



تأليف



سنة ١٩٢٢ — ١٣٤٠



*

اهداء الكتاب

الى مليكنا المفدى صاحب الجلالة احمد فؤاد الاول خلد الله ملكه وادام سلطانه

فى عهدلك الميمون استروحت مصر نسمات الحرية وذاقت حلاوة الاستقلال وفى ظل رعايتكم الظليل وفق رجال عاملون الى خدمة قضية البلاد . وانما بمددك وعونك وفقوا وبحولك وقوتك اعتزموا وصمموا وبهمتكم العالية خاضوا الغمار وساوروا الاخطار . وبعزيمتك الماضية ابتدروا فى سبيل رفعة الاوطان غاية المجد والفخار . فان كان لهم فى ذلك فضل فمن معين مواهبك الغزيرة مغترفه ومستقاه . ومنك واليك في كل حال مبتدؤه ومنتهاه .

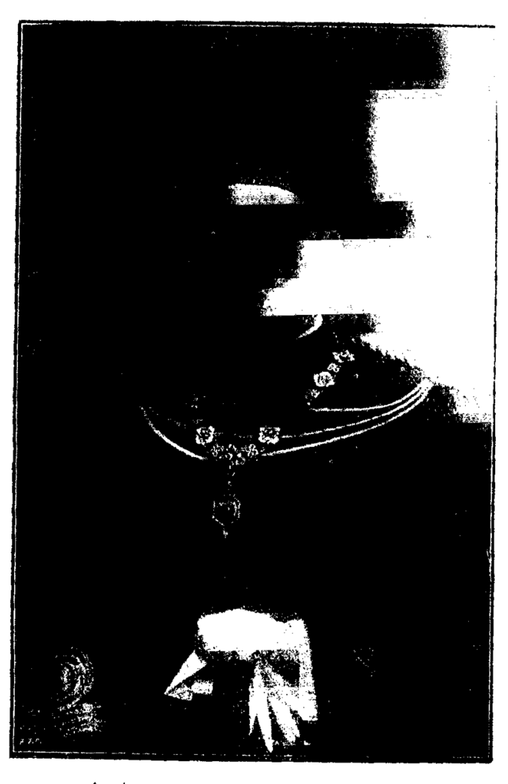
فاليك يامليك البلاد اتقدم باهداء هذا الكتاب المضمن كلمات صدق واخلاص عن اولئك الرجال ابطال دولتك ـ حاملى رايتك . ومنفذي مشيئتك . ولابسي مطارف فضلك ونعمتك .

وانى اضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يصون دولتك بحوط سلطانك ويبقيك لرعاياك المخلصين ذخراً عتيداً . وظلا مديداً . وروضاً مريعاً . وكهفاً منيعاً . وان يقر عينك وعيون

المصريين جميعاً بولى عهدك المفدى الامير فاروق كعبة آمالنا ومطمح امانينا.

ليحى جلالة الملك فؤاد الاول وولى عهده الامير فاروق ورجال دولته المخلصون.

عبدكم الخاضع،
محمد الشباعي



حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول

واهب الحرية والاستقلال ومانح الدستور



حضرة صاحب الدولة عدلي يكن باشا

رئيس الوفد الرسمى



حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا

رئيس لجنة لدستور



حضرة صاحب الدولة عبدالخالق ثروت باشا
رئيس اول وزارة مصرية فى عهد الاستقلال

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ان عصور النهضات فى كل امة لا تزال مملوءة بعظائم الحوادث مزدانة بعظماء الرجال والحقيقة ان كل حركة او نهضة تعتري الشعوب الساكنة المطمئنة فتحدث فيها تطورا او انقلابا انما هي فى الحقيقة نوع من الزلزال فلا عجب اذا رأيت هيكل الامة قد تفجر عما يستكن فى جوفه من ملكات ومواهب وفضائل ومناقب وتفتحت كنوزه فباحت بخفايا بدائعها وابرزت خبايا ودائعها . وهنالك يقذف المنجم ياقوته وعقيانه . ويلفظ اللج لؤلؤه ومرجانه . وهنالك تظهر فحول الرجال . وعظماء الابطال .

اولئك الفحول والعظماء من جلة رجال الامة يبرزون على مسرح النهضة فيلعب كل دوره الذى اعدته له الفطرة والطبيعة وهيأته لتمثيله الظروف والاحوال .

لكل رواية دورها العصيب المسمى فى الاصطلاح التمثيلى ازمة الرواية او « قمتها » حيث يبلغ السيل الربى ويصعد الترمومتر

الى درجة الغليان . ويجلس القدر على منصة الحكم وينصب الميزان . واذ ذاك تتشوف ابصار وتشرئب اعناق وتخفق افئـدة وتبهر انفاس ويلوى القلق والاشفاق اوتار القلوب ويقوم الشعب بين الخوف والرجاء على سراط الشك المرهف الدليق . الاملس الزليق . المعلق فوق هاوية التلف والخسار يؤمون لدى نهاية هذا السراط وادى السعادة والنعيم مسترشدين فى مأزق هذه الرحلة الخطرة المخوفة بكوكب الأمل الدائم الخفق واللمعان .

تلك هي حالنا بالدقة فى دورنا الحالى الخطير وان كنا قد اجتزنا بعد من مناطق هذا السراط اشدها خطرا واوعرها مسلكا ودخلنا فيما نستطيع ان نجعله بفضل الحكمة والحزم منطقة سلامة وخطة نجاة .

وبديهى ان مثل هذا الدور العصيب من ادوار رواية الجهاد الوطنى جدير ان يحرك بعظيم احداثه من نفوس الكتاب مالا تحركه العصور الخاوية الفارغة وان يثير من خواطرهم بما يبديه من مآثر الرجال ومفاخر الابطال ماليس تثيره الاوقات الساكنة الوسنى باشخاصها الصغار العاديين — اجل ان عصر النهضة خليق بفضل حوادثه وابطاله ان يهز جدران النفوس من ارسخ آساسها ويثير لجج الارواح من اعمق اعماقها حتى تفعم الاذهان

من مزدحم الافكار والعواطف بما يأبي الا التدفق على اسلات الالسن والاقلام امجز اربابه عن حبس طوفانه في أوعية صدورهم ودفن نيرانه في حنايا ضلوعهم .

وكذلك الكلمة الحارة هي كالدمعة الحارة ان نفثت أراحت وفرجت . وان كتمت امضت وارمضت فهي مدفونة في الجنان — اخبث داء . ومنطلقة من اللسان — انجع دواء . ورب كلمة خزنت في الضمير فكانت منية صاحبها وآخرين . وكلمة افظت فكانت حياة صاحبها ومنجاة ملايين

فبديهي بعد ما تقدم ان اصبح كغيري ممن تصدوا للكتابة عن عصور النهضات يأبى ضميري الا نفث ما يجول به ويزدحم من سوانح الفكر والخواطر عما يبدولي من حوادث هذا العصر ومآثر رجاله وابطاله .

وسأتوخى في كتابتي ان شاء الله وصف الواقع لا اقل ولا اكثر ونعت الحقيقة جهد طاقتي محاولا ان اكون في ذلك كالمرآة المنبسطة تعكس صورة الأشياء كما هي دون ادنى تحوير او تبديل وليس كالمرآة المحدبة او المقعرة التي تعكس شبح الشيء مفرغا في قالبها المشوه — وان اجعل من مخيلتي مجازا ومعبرا للحقائق ليس الا — تدخل من أحد طرفيه وتخرج من الآخر ثابتة على

حالها لم يخالطها مزاج ولم تشبها شائبة — متحاشيا ان اجمل من مفكرتى وعاء طيب وغالية تمر به الحقائق فتخرج مضمخة بذكى نشره وعاطر اريجه . ولكنى سأجمل من يراعى معزفا ترتل عليه الطبيعة الحان الحقائق خالصة حرة صريحة — لم يتعرض لها ماحن الانانية فيطبعها بالحان الاغراض ويوقعها على نبرات الحب والبغضاء والسخط والرضى

والله اسأل ان يجيء هذا السفر غير خال من النفع والفائدة وأن يجعله وسيلة هداية وارشاد فى ظل صاحب العرش الكريم المحفوف بالعناية والتأييد جلالة ملك مصر والسودان فؤاد الأول ادام الله ملكه وسلطانه . واغدق على رعايه المخلصين بره واحسانه وارتعهم من جنانه الفسيح فى اخصب واد . واطيب منتجع ومستراد . واحلهم من ركنه الوطيد فى اسمى ذروة وقة . وامنع ملاذ وعصمة . ما هبت نسمة . ولاحت نجمة . والله سميع الدعاء

محمد السباعى

الفصل الاول

مشروع كرزن

والمذكرة الايضاحية

ليست حياة الأمة الناهضة الساعية الى استقلالها بالحياة السهلة الهينـة ولا مسيرها الى غايتها المجيـدة بالنزهة الجميلة بين الحدائق والبساتين فى سنا رونق الساعات الذهبيـة وعلى شجا ترتيل النغمات الشهية . ولكنها حرب طاحنـة ضروس وجهاد شاق فى أوعر المسالك وأضيق المآزق. ولا تزال مثل هذه الامة تتنقل فى تاريخ نهضتها من طور الى طور وتتحول عن دور الى دور وكل أدوارها وأطوارها صعب شديد وان تفاوتت فى درجة الشـدة والصعوبة تبعاً لتغير الظروف والأحوال — على انها لا تلبث ان تصل يوماً ما الى ذلك الدور الذى يصح لنا بحق ان نسميه عقدة العقد وعقبة العقبات والباب الموصد والغل المحكم حيث يخيل للمرء انه ليس ثمت من منفذ ولا مخلص ولا مستروح ولا متنفس . وأن متن الرجاء قد انبتر . وظهر السعي قد انبت وانحسر . وان ملائكة العون والمدد قد رنقت أجنحتها وطارت

وان القلم الاعلى قد سجل حكم الشقاء على الأمة فى صحيفة الأبد.

مثل هـذه الازمة العصيبة والساعة السوداء لم تكد تخلو منها سير الأمم الناهضة أثناء حركاتها الثورية وقد أصيبت بها الحركة المصرية الحالية فى أول ديسمبر سنة ١٩٢١ وذلك حينما رمتنا السياسة الانكليزية بمشروع كرزن ومذكرة اللورد اللنبي الايضاحية التى شفع بها ذلك المشروع .

لقد كان لتلك المذكرة الايضاحية اسوأ وقع فى نفوس الشعب عامة وآلم أثر في قلوبه وأشد صدمة لآماله ومطامحه وأدمى طعنة لعزته وكبريائه. ذلك ان الشعب المصرى بعدما أتته دعوة المفاوضة من جانب الحكومة الانكليزية فى أجمل شكل وأحسن صيغة مال الى حسن الظن بتلك الحكومة وقال فى نفسه « لا يبعد ان هذه الدولة الجبارة قد اهتدت أخيراً الى ان أقصد السبل وأنجع الوسائل الى حل مشكلتنا وتسوية مسألتنا هي سياسة الصراحة والوضوح والأخذ بمبدأ العدالة والحق بعد ماتبين لها فشل سياسة الختل والخديعة» وبناء علي ذلك فاوضت مصر انكلترا على لسان وفدها الرسمى الذى كان يرأسه دولة الرئيس الخطير عدلي يكن باشا. فكيف كانت نتيجة المفاوضات؟ كيف كانت نتيجة ماادعاه الانكليز من سياسة الصداقة والوداد

والمحابة والمصافاة والعمل على توطيد دعائم السلام ونشر اعلامه؟
كانت هذه النتيجة هي قطع المفاوضات من جانب وفدنا الرسمى بما شرفه وشرف الأمة جمعاء . واعلان انكلترا تلك المذكرة الايضاحية المصرحة بما لا يتفق مع ما ادعاه القوم من الميل الى المسالمة والمصافاة والنية على توطيد دعائم السلام ونشر اعلامه ـ من مظاهر الاستعباد الذى ليس دونه استعبا. وآيات الاستبداد الذى ليس وراءه استبداد . كانت نتيجة ذلك هي تلك المذكرة التى صورونا فيها بصورة شنيعة منكرة تبريراً لما أعدوه لنا من اغلال الرق ونير العبودية حتى قالوا انهم يرون من واجباتهم حماية عرش سلطاننا وحماية بعضنا من بعضنا كأننا الشعب المصرى قد بلغ من همجيته وانحطاطه انه صار عدو نفسه وهي لعمرى نقيصة يبرأ منها الى الله أشد الأمم همجية وانحطاطاً . كانت النتيجة انهم لم يكتفوا بأعلان ذلك المشروع البغيض حتى كلفونا ان نرضاه ونقره ـ بعد ما علموا وعلم العالم اجمع رغباتنا ومطالبنا واطلعوا على برنامج وفدنا. كانت النتيجة ـ وذاك أشنع فصولها وأنكر أركانها ـ انهم انذرونا وهددونا بتنفيذ مشروعهم على الكره منا وعلى الرغم من انوفنا بالقسر والقوة .

من أجل ذلك كله نقول ان يوم ٣ ديسمبر الذى أعلنت فيه

هذه المذكرة الممقوتة كان أعصب يوم فى تاريخ الحركة المصرية.

ما كان أكذب آمال الأمة المصرية يوم غرتها من مواعيد الانكليز فى الدعوة الى المفاوضات لمحات السراب وبارقات الخلب! سحابات ابخرة الاباطيل تنقشها بأجمل الالوان كف الخديعة الخاتلة: ما أجملها فى عين ناظر يشيمها بلحظ الغرور. وما أروحها لقلب ساع يهرع نحوها بسرعة الصب المفتون: وما أفرغها فى النهاية وما أخلاها من كل فائدة وطائل!

كيف خبت كواكب الامل المشرقة واكفهر وجه السماء وانذرتنا من جانب الافق طوالع النحس. فهل كان الرجاء انقطع بتة وهل ضاع الأمل آخر الابد؟ كلا: انما ارجىء الامل وسوف الرجاء. لم يمح الامل ولم يزل وانه وايم الله بطبيعته غير قابل للمحو والزوال وهو العنصر الابدى في طبيعة الانسان وهو القاعدة التى يقوم عليها كيانه وهو ميراث الانسان وذخيرته الوحيدة حين تسلب منه سائر الذخائر. او لم يسم الفلاسفة والحكماء هذه الدار الفانية التى يسكنها الانسان «دار الامل»؟

ما اقسى تقلبات الصروف السياسية بهذه الامة المصرية المجيدة. وكيف لا يزال مصباح الامل يستدرجها على سنا شعاعه البراق فى اوعار السياسية العسوف وفى صعابها واوعائها. وكيف

لايزال يومىء اليها ان تتبع شبحه المتلون فى تلك المجاهل والمعاسف مشرقا عليها تارة بابتسامة العطف والتشجيع وتارة متأججا متوهجا بأهيب النذير والتحذير ـ ولكنه باق امام عينها فى جميع الحالات وعلى كل التقلبات لايخبو مصباحه . ولا يخمد لماحه . ـ حتى فى اشد حالات اليأس والقنوط . وما هو اليأس وما معناه ؟ وهل اليأس سوى نوع من الامل ؟ وهل كان فرط اليأس وغلواؤه إلا مقياسا لمبلغ ما فينا من قوة وحياة ومقياسا ايضا لمقدار حقنا فى الامل و لرجاء ؟ وهل ترى دخان اليأس مهما اشتد سواده الا مصيبا يوما ما من روح الله ومن همة الشعب جذوة صدق وجمرة حق تشعله ضراما وهاجا يملأ الارض والسماء بضيائه ؟

لاخوف على الامة المصرية الكريمة مما اصابها من شديد الحزن لاسوأ ماحل بها اثناء جهادها المجيد ـ اعنى لتلك المذكرة الايضاحية التى مست صميم كرامتها وجرحت كبرياءها وعزتها وسخرت من مقدس امانيها ومطالبها . لاخوف على الامة المصرية مما اصابها من حزن وكمد فى سبيل جهادها . بل لاخوف على الامم عامة ولا على الافراد من الحزن الشريف والكمد المجيد فان نيران مثل هذا الحزن لهى خير بوتقة لتصفية جوهر النفس وتنقية معدن الروح . وهي اقوى اداة لاشعال الهمم

والهاب العزائم حتى تندفع فى سبيل جهادها الشريف باضعاف مابها من قوة وحدة . فلتغتبط الامة باحزانها في سبيل قضيتها او ليس ذلك الحزن مقياسا لمبلغ ما عندها من شعور واحساس ومن مقدرة وكفاءة بل من غلبة وظفر وانتصار ؟ الا ان حزن الامة المجاهدة ماهو الا صورة معكوسة لمقدار مالها من عزة وشرف ونبل فلتغتبط الامة المصرية الكريمة باحزانها ولتبتهج باشجانها ولتجعلها مصدر همة وعزم ومضاء .

ولنوقن ان هذا الاستعباد الانكليزى انما هو ابطولة واكذوبة وكل اكذوبة فالى الزوال مصيرها مهما امتدت بها العصور وتراخت بها الازمان . بذلك قضت نواميس الطبيعة وحكمة هذا النظام المقدس فانه لادوام للباطل . بل ان الحق ذاته لايدوم على صورة واحدة ولا بد له ان يغير صورته ويبدل شكله وصيغته من آن الى آن حيث يخلق خلقا ثانيا ويولد من جديد اما الاكاذيب – وعلى الاخص اكذوبة استعباد الامم والافراد التى خلقها الله حرة طليقة – فلقد سجل عليها حكم الاعدام منذ الازل فى صحيفة الاقدار – فهى تسير بطيئا اوسريعا الى ساعتها المحدودة – الى حينها المحتوم . وحتفها المحموم . والسر فى ذلك ان هذه الحياة لا يمكن ان تقوم على اساس الباطل – وهذا الانسان

(الذى هو صورة الله فى الارض ـ مهما شابت قداسة روحه شوائب الخبائث والدناءآت) لايمكن ان يقوم على اساس من الكذب والضلال . ولكن السياسة ـ تنفيذ لمآربها الانانية واغراضها الاستعمارية تجهل ذلك او تتجاهله . وليس بنافعها هذا الجهل او التجاهل ازاء ناموس الطبيعة العادلة وسنة الله الحكيمة. واستبدادها العقيم مقضى عليه بالفشل محكوم عليه بالفناء مهما طال اجله وتراخت مدته

لقد يخيل الى زمرة الساسة والاستعماريين ان استمرار سياسة الظلم والجور فى ارض الله بلا قامع ولا مبيد وتمادى دولة الاستبداد والاستعباد دون ان يصدر وينفذ عليها ما تستحقه من حكم العدالة الالهية دليل على خلو هـذا العالم الارضى من قانون العدل والانصاف . ولكنهم فى ذلك مخطئون غافلون فان حكم العدالة الالهية فى هذه الحياة الدنيا قد يؤجل اليوم واليومين بل القرن والقرنين ولكنه حقيقة مؤكدة لاريب فيها ولا مناص منها ـ حقيقة محتومة كالحياة نفسها وكالموت ذاته . ولا جرم فانك ان انعمت النظر فى زوبعة الحياة الدنيا ـ تلك الزوبعة المضطربة العاصفة الهوجاء البادية لعينك كأنها كلها هرج ومرج وتشويش واختلاط ـ وجدت انه فى اعماق اعماقها يستقر وينطق

آله منصف عادل ـ والفيت ان روح هذه الدنيا انما هي الحق والعدالة . فهذه الحقيقة الهائلة التي ما برحت منذ كان الانسان ـ تبدو لاعينه ناصعة باهرة سواء كان مسلما او كتابيا او بوذيا او وثنيا ـ وسواء سكن قصور باريز او غابات امريكا او زمهرير القطب او سعير الاستواء ـ هذه الحقيقة الهائلة اذا جهلها الساسة فقد جهلوا كل شيء وقد باعد الله بينهم وبين النجاح كما باعد بين الارض والسماء . وأنى لهم بالنجاح وقد ظلوا يناوئون ويعادون ناموس الطبيعة وروح الوجود ويكافحون الكون اجمع فى معركة ان يخرجوا منها الا مثقلين بافدح اعباء الهزيمة والخسران .

الا ان في كل شيء خيراً . وقد كان للامة المصرية فى تلك المذكرة الايضاحية خير وان بدا متلفعاً برداء وهاج من لهيب الألم وضرام الحزن المتسعر . لقد كانت الأمة أصيبت من قبل ذلك بشر ما يصيب الأمم الناهضة المجاهدة من العلل والأدواء ـ أعني بداء الانقسام والتحزب وكان ذلك الداء الخبيث قد فشا في جسدها ونقض من أسباب ائتلافها وتماسكها وفصم من عرى اتحادها وتضافرها وهدد كيانها بالتهدم والانحلال وكاد يمسها فى صميم نفسها ويذهب بما قد ملأ قلبها من روح الوطنية العالية والتضحية الشريفة فما هو الا ان لطمتها السياسة الانكليزية تلك

اللطمة القاسية . وطعنتها تلك الطعنة الدامية حتى أفاقت من سكرتها . وهبت من رقدتها . ونفضت عن اعطافها غبار الفتور الذى كان جللها به ريح الشقاق والنزاع كما ينفض الأسد الهصور غبار الكسل عن لبده ثم تحركت ونشطت كأنما قد افعم قلوب ملايينها العديدة روح واحدة لا تقبل الانقسام والتجزئة .. واعلنت بلسان واحد وبصوت واحد يملأ الفضاء الرحب ويهز هيكل الأرض من اعمق جذورها ودعائمها ويصدع اديم السماء « انها حية يقظة متحفزة ناهضة »

أجابت مصر على المذكرة الايضاحية بذلك الجواب المفحم الحاسم — اعنى بما كانت أعلنته قبل ذلك على لسان جماعة الكونتنتال حين شعرت بما أضمره لها الانكليز من الشر وسوء النية — أجابت بذلك القرار الذى كان الموحى به فى الحقيقة هو روح مصر المنبثة فى فضائها . الطائفة فى جوها . المرفوفة على مضاجع أهليها وعلى سوامرهم وانديتهم الحائمة على مهود أطفالها واكنان عجائزها وشيوخها — على الاجنة فى بطون امهاتها وعلى الأموات فى بطون اجداثها — الحدبة المطوف على أمانيها وآمالها الحذرة القلقة المشفقة على ماضيها ومستقبلها .

بهذا الجواب المفحم الحاسم أجابت مصر انكلترا بلسان

واحد وصوت واحد ـ علت من نبراته صيحة الانسانية المتألمة. وتأججت فى هزاته جمرة الوطنيـة المحتدمة . وما أعظم صوت الأمم والشعوب وما أقواه وما أقهر سلطانه وما أشد وقعه ! . ألم تر الى صرخة الشعب الواجد الغضبان كيف تصم أذن الظالم وتقرع حبة فؤاده بل كيف تـكاد تشل خلجات روحه . وتكاد تحرق زهرة الحياة في مغارس نفسه ووجدانه

قال توماس كارليل فى كتابه « الثورة الفرنسية » « ما اجل صوت الجماعات وما اخطره ! صوت غرائزهم التى هى اصـدق من خواطرهم وافـكارهم . اما ان هذا الصوت لأجل واخطر ما يصادفه الانسان بين تلك الاصوات والاشباح التي يتكون منها هذا العالم الزمنى . وكل من يجرأ على مناقضة هذا الصوت ومقاومته فقـد خرج بنفسه عن دائرة الزمان وعن حـدود نواميسه وشرائعه »

اعلنت الامـة المقاطعة واعلنت وجوب الاضراب عن تأليف الوزارة تأييداً لمبدأ عدم الاشتراك مع الانكليز في حكم البلاد وادارة شؤونها . اذ كان فى ذلك الاشتراك دليل على الرضا بما يسومنا الانكليز من خطة الذل والخسف والهوان . أعلنت ذلك الامة المصرية وتمسكت به أشد تمسك ولم تسمح

لنفسها فيه بهوادة ولا لين ولا تساهل وحصنت نفسها بامنع دروع الاصرار والتصميم والاباء والمعاندة وتمسكت انكلترا من الجهة الاخرى بخطتها اشد تمسك وأظهرت ان مشروعها الاخير هو القضاء الفصل والحكم النهائى الذى لايقبل تغييرا ولا تبديلا ولا نقضا ولا ابراما . وكذلك انفرجت مسافة الخلاف بين الطرفين واستحكمت حلقاته وبلغت المشادة والمعاندة اقصاها واظلم ما بين الامتين وجف بينهما الثرى وعظم الخطب واستفحل الداء .

وهنا دخلت الامة المصرية فى اصعب ادوار حركتها الجهادية واشد ازماتها وافظع ساعاتها ـ ذلك الدور الذى سميناه فى بدء كلامنا عقدة العقد وعقبة العقبات والباب الموصد والغل المحكم حيث خيل للمرء انه ليس ثمت من منفذ ولا مخلص وان . . . الرجاء قد انبتر وظهر السعى قد انحسر . وان ملائكة العون والمدد قد رنقت اجنحتها وطارت وقد سجل على الامة الكريمة حكم الشقاء فى صحيفة الابد .

هنا جاء على الامة المصرية اشنع ادوار حركتها الجهادية واسود الافق وحجبت نور السماء سحائب النحس فماذا نصنع؟

وكيف نواجه هذا الكارث؟ وكيف نمد العدد ونجهز آلات الدفاع ونشحذ سلاح الهجوم . وأي عدد لدينا وأي آلات وأي أسلحة؟ دروع الصبر والجلد وسلاح السكينة وعدة الأمل والرجاء . ونعم الدروع والآلات والاسلحة (لا أقول ذلك هازئا ولا ساخراً معاذ الله وقد أوضحت آنفاً ان استبداد الظالم اكذوبة وانه كسائر الأكاذيب مقضي عليه بالفشل محكوم عليه بالاعدام فى النهاية وان صوت الأمة المظلومة أقوى صوت فى العالم وان مآل الحق ان يتغلب على الباطل وان الأمل ميراث الانسان وذخيرته وان الدنيا اسمها دار الأمل) . أجل لا أقول ذلك هازئاً ولا ساخراً ولكني أقول ان هذه الأسلحة السلبية ان احرزت النصر والظفر لم يجيء ذلك الا بطيئاً . وليس النصر البطيء بأحسن أنواع النصر . وليس الفرح بالمتاع الآجل البعيد الذي قد لا تمني نفسك بأن تراه لا أنت ولا أعقابك ولا أعقاب أعقابك كالفرح بالمتاع الذي يزف اليك عاجلا تابس جميل زينته . وترشف عذب ريقته.

أقول لا مشاحة فى ان ذلك الدور كان أشنع أدوار قضيتنا وتلك الساعة كانت أسود ساعات حركتنا . وحق لنا إذ ذاك ان نحار ونبهت وان نأسي ونحزن . وحق لنا ان ندور بأعيننا بين

أبناء أمتنا المجيدة فنفتش فى نخبة رجالها وصفوة أبطالها عن رجل نرمي به هذا الحادث الجسيم . وننقب عن بطل نصدم به هذا الكارث العظيم

ان الطبيعة التى تخلق أدواء المجتمع الانسانى وعلله تخلق أيضاً أدوية هذه العلل والادواء . والطبيعة التى توجد آفات الحياة الانسانية توجد أيضاً وسائل ابادة هذه الآفات . وذلك لأن الطبيعة أساسها العدل وروحها النظام وغايتها الصلاح والنمو الحسن والرقي . فان هي خلقت الادواء والعلل والآفات فلم تقصد بذلك الى الفساد والخراب ولا الى الفشل والفوضى (وان ظهرت تلك العلل والآفات فى دورها الاول بمظهر الفساد والفوضى) ولكنها تقصد الى الصلاح والنظام والرقي فى النهاية وانما هذه العلل والآفات — مع ضررها المؤقت وشرها الزائل — عمليات ضرورية لابد للمجتمع من اجتيازها فى طريق نموه ورقيه — هلا نظرت الى أوراق الشجر وأجزاء النبات حين تعصف بها الرياح الهوج فتسقط وتذبل ثم تعفن وتبلى وتنحل فيخيل اليك انها فسدت وماتت ولا موت ولا فساد فى الطبيعة ولكن هذا الذى يخيل اليك بلى وفساداً انما هو عملية انتقال من حال الى أحسن منها فلا تلبث هذه المواد النباتية ان تستعيد حياتها

وتجدد بهجتها وقد تستحيل بعد عدة من هذه العمليات الأليمة المحزنة فى ظاهرها الى صنف أجود وأحسن ـ سنة التحسن والتقدم وقانون النشوء والارتقاء الذى هو روح الطبيعة وعملها وغايتها .

نقول ان الطبيعة التي تخلق أدواء المجتمع تخلق أيضاً أدوية هذه الادواء . والطبيعة التي توجد آفات الانسانية توجد أيضاً مهلكات هذه الآفات . واذا اشتد الجدب صاب الغيث واذا أربد الغيم بدده شعاع الشمس . واذا تكاثرت المصائب على أشخاص المأساة الابرياء فوق المسرح وتكاثفت الارزاء وأخذ الموت بالكظم وبلغت الروح التراقي ـ ظهر على المسرح من حيث لا يرجي ولا ينتظر بطل الرواية فغير مجرى الحوادث وحول منهج الكوارث فجلى دجى الخطب وأشرق على الابرياء بنور الصفو والخير والسعادة .

وكذلك لما ادلهمت مأساة السياسة على مسرح الحياة المصرية وانتهت هذه المأساة بفضل المذكرة الايضاحية الى ازمة الازمات وعقدة العقد كما أسلفنا وعظم الكرب واستفحل الداء ـ ظهر على المسرح لابادة الشقاء واسداء الخير والصفاء بطل الرواية المصرية الحالية ـ عبد الخالق ثروت باشا

ان العناية الأزلية لما بصرت بتناهي البلاء فى هـذا البلد الأمين وبلوغ الشقاء والكرب أقصاه نثرت كنانتها بين يديها ثم فتشت عيـدانها فوجدت ثروت أمرها عوداً وأصلبها معجما فرمت به الحادث الجلل والمحنة النكراء .

أى ثروت : أيها الرجل القوي المتين ! ماذا امامك من العقد والمشاكل والازمات والمعضلات ! أمة مظلومة مهضومة واجدة على الظامة غضبى على الجورة يتأجج صـدرها بركانا ويتقـد فى ألحاظها لهيب ما انطوت عليه الجوانح من نار الحنق المكتومة وتقذف السماء بصيحات احتجاجها على الجبابرة وبصرخات نقمتها. أمة تختمر فى أفئدتها عوامل الهياج . وتفرخ فى نفوسها جرائيم الفتنـة ويعب عباب غيظها ويزخر تيار غضبها وتجيش أعماق روحها بدوافع الثورة ـ امامك خضم زاخر ينذر مسامعك من اعماقه نشيش غليان الطغيان . وازيز فوران الطوفان . ـ امامك فى افق البلاد المظلم المربد آيات العاصفة وامارات الزوبعة ينذر مسامعـك من لدنها دوى قصفها مخوفاً مرهوباً . وامامك من الجهة الأخرى الدولة القوية المخيمـة على ارجاء المعمور المدسكة بأطراف العالم المالئة الأرض بمدافعها والبحر بأساطيلها والجو بمناطيدها ـ جبارة متكبرة طاغية مصرة على تنفيذ ارادتها ضد

أوامر العاطفة والانسانية ونواميس الحق والعدالة وعلى الرغم من الأقضية والاقدار. مصممة أباءة مطرقة كالافعوان والحية الرقشاء لا تؤثر فيها الرقي والتعاويذ ـ قاسية جامدة صماء كالقدر أو كالموت :

وفوق هذا وذاك امامك من أمتك الفئة ذات الاهواء والاغراض الذين لا يريدونك ولا يحبون ان يكون على يديك انفراج الازمة وحل المعضلة وزوال النقمة وحلول النعمة ـ الباذلون أقصى الجهد فى العمل على تنحيتك عن مواطن المجد ومواقف الفخار.

أي ثروت ! أيها الرجل الجلد المكين ! ما أحرج مركزك وأصعب موقفك ! فبحقك ماذا أنت صانع وسط هذه العوامل المتنازعة والقوى المتدافعة والعناصر المتكاثفة المتضاربة ! وأنت قائم بينها منفرداً وحيداً كالجبل الباذخ تعصف الزوابع الهوجاء حول هامته الشماء فلا تحرك من سكينتها ولا تستخف من رزانتها وتثور الزلازل حول أساسه فلا تزعزع من ثباته ـ وقد سمت قمته العلياء فوق سحب الاهواء والاغراض وضباب الحزازات الشخصية والاحن الانانية وواجهت شمس الحقيقة الساطعة والنزاهة الخالصة .

تقدم ثروت باشا الى أمته فصرح لها انه لن يقبل الوزارة حتى تجاب له شروط فيها رضى الأمة ووفاء بأقصى ما يصح ان تطمح اليه فى هذا الدور من قضيتها : تلك الشروط هى الغاء الحماية واعلان الاستقلال التام وتأسيس برلمان تكون حكومة البلاد مسؤولة امامه وحصر مشاكل الخلاف بين الأمتين فى أربع نقط يتولى تسويتها البرلمان المصرى بعد انشائه مع الحكومة البريطانية . وازاء هذه الحقوق المستردة لا تعطى مصر انكلترا ادنى شيء ولا تتقيد لها بشرط ما

تقدم ثروت باشا الى الحكومة الانكليزية بهذه الشروط العظيمة وشدد كل التشدد فى طلبها وأكد لها انه لن يتنازل البتة عن شيء منها وانه لن يتولى الوزارة الا بعد اجابة شروطه هذه بحذافيرها

كيف تقبل هذه الشروط الجسيمة وتجيب هذه المطالب العظيمة وترضخ لهذا الحكم الهائل انكلترا سيدة البحار وأقوى دول العالم ؛ وأين ذهبت جيوشها وأساطيلها وسلطانها الباسط جناحيه على المشرق والمغرب ؟ بل اين ذهب كبرياؤها وجبروتها وشرهها الاستعمارى ؟

تصعبت انكلترا فى أول الامر كما هو المنتظر وتمنعت . وفى

ذلك المشقة العظمى والصعوبة الكبرى

وأما مصر فلم تكد تصدق نبأ هـذه الشروط والمطالب وحسبته حلماً من الاحلام اعتقاداً منها أنه يكاد ان يكون من المستحيلات قبول انكلترا مثل هذه الشرط الجسيمة . (لقد كان الوفد المصرى من قبل ذلك لا يطمع فى اكثر من ان تعطيه الحكومة الانكليزية قبل دخوله معها فى المفاوضات مجرد وعد بالغاء الحماية اثناء التفاوض) ولا تنس أولى الاغراض والاهواء والاحن والحزازات الذين مع فرط استعظامهم هـذه الشروط واعتبارها كالاحلام أخذوا يرجفون بأن الامر ليس بالجد وانما ألاعيب سياسية يقصدون بذلك الى ترويج سوء الظن بدولة الوزير الجليل ويبثون فى الامة من روح التشاؤم ما يثبط الهمم ويفل العزائم.

بين هـذه العوامل المتنازعة والقوى المتدافعة والعناصر المتكاثفة المتضاربة انبرى الرجل الكفؤ الضليع يكد ويعمل مضاء فى تؤدة منصلتا فى اناة صارما فى رفق جريئا فى حزم — والامة المصرية والامة الانكليزية واوروبا والعالم أجمع ينظر اليه نظرة اعجاب واكبار . ويشرئب لاستطلاع نتيجة عمله العظيم واستكشاف غاية شوطه الخطير وشأوه الرائع — كأنهم يرمقون عطارد أو المشتري اثناء سيرته المشرقة الزاهرة . ودورته

المتألقة الباهرة

وقف العالم ينظر الى ثروت باشا اثنـاء تلك الفترة الحرجة العصيبة ـ تلك الفترة التى باتت تتمخض السياسـة اثناءها عن ميلاد مستقبل امة ـ لا يعلم ايجىء موفوراً ناضجاً تاماً ام مبتوراً منقوصاً مشوهاً ام ما هو شر من هذا ـ يولد ميتا .

وقف العالم ينظر الى هـذا المخاض السياسى الهائل يرقب نتيجته بقلوب خافقة حتى كاد يخيل الى المرء ان الرياح والاعاصير ذاتها قد حبست انفاسها والافلاك شأوها وأن الزمن نفسه وقف مبهوتا يتأمل .

أراك أيها الوزير الخطير فى بحر السياسة البعيد الغور العسوف الموج العصوف الاعاصير والانواء تسير سفينة الوطنية تتنكب بها مكامن الصخور والمهالك وتنتحى بها مسالك الامن والسلامة تدير دفتها بيد مباركة ميمونة رائدها التوفيق والنجاح تكمن فى اساريرها اسرار الحذق والمهارة تؤم بالسفينة النفيسة ساحل الفوز والنجاة

وأراك فى بيداء السياسـة المخوفة تقود الشعب الكريم خارجاً به من نير عبودية الجبابرة مجتازاً به تيه الاضاليل السياسية تؤم بالقافلة افق الاستقلال وفضاء الحرية الرحيب .

وأراك من فوق زوبعة السياسة الثائرة وفوضى العناصر المتنافرة تصفق جناحي نسر ساكن الجأش ثابت الجنان تصرف اعنة الحوادث وتدبر أزمة الشؤون كأنك الملك الحارس الامين كلما ازدادت الحوادث اضطراباً ازداد سكينة وهدوءاً

أرى ساكن الاوصال باسط وجهه
يريك الهوينا والأمور تطير

وأراك حين تفاوض ساسة الانكليز تعلو عليهم فى حومة الخطاب وميدان المحاجة بسليقتك الفائقة وسجيتك الغلابة وبعقلك الراجح وبشخصيتك الفتانة الخلابة التى هى خلاصة مجموع ما فيك من غرائز وشيم وطبائع . وكانت حين تناقشهم قد اتخذ سلطان الاقناع عرشه بين شفتيك وكمن هاروت تحت لسانك — حتى تتركهم من اعجاب واكبار يقولون فيك ما قاله نابليون الاول حين صادف شاعر الالمان العظيم « جيتا » هاكم رجل مستكمل الرجولة . وما قاله أحد الساسة الانكليز فى المغفور له الشيخ محمد عبده «انه حق لمصر ان تفخر بمثل هذا الرجل . فان امة تخرج مثله خليقة ان تفلح »

فى تلك الزوبعة السياسية الثائرة وفى ذلك الجو المتلبد بالغيوم وفى مضطرب تلك العوامل المتدافعة والعناصر المتكافحة مضى

ثروت في سعيه المجيد كالصارم المصقول والكوكب المشبوب ـ يعمل ويكد ليل نهار كأنه ينبوع قوة لا ينفد وشعلة حريق تأبى أن تطفأ وتخمد تملأ فضاء البلاد رونقاً ونوراً . اجل أن مقدرة هذا الرجل الهمام على العمل والكد لا تحد ولا تحصر ولا يكاد يصدق بها الذهن . وليس يدرى سوى من عاشره عظم ما قد تستطيعه القوة البشرية من العمل ومقدار ما تستثمره من جليل الفوائد في يوم واحد . ان ساعة هذا الرجل العظيم كعام غيره وشهره كدهره .

وكل هذه الاعمال الجسام ينجزها ثروت باشا في أتم سكينة وصمت . ألا حيا الله دولة الصمت وخلد ملكه وسلطانه ! ولا حيا الله الجلبة والضوضاء والصخب :

قال توماس كارليل في كتابه « الماضي والحاضر » « ما أعظم الرجل الصامت وما أجل مقداره ارأيت اذا اجلت بصرك في هذا العالم اللجب الصخاب وفي كلماته الخالية من المعاني وفي أعماله الخاوية من الفوائد أفلا يلذ لك أن تتعشق جمال الصمت وجلاله ؟ أفلا يلذ لك أن تتغنى بمحامد الرجال الصامتين ذوي الفضل والكرم والمروءة العاملين في سكوت الجادين في خشوع وتواضع . البانين صروح الحضارة والمدنية دون أن تجلجل باسمائهم والقابهم

أبواق المجلات وطبول الجرائد ؟ الا أن أمة تخلو من أمثال هؤلاء أو يقل منهم نصيبها لخليقة أن تختل حالها ويسوء مآلها . ويكون مثلها كمثل غابة خلت من الجذور والاصول واستحالت كلها ورقاً وفروعاً ـ فهي لا تلبث أن تذبل وتموت. لنا الويل والثكل إن كان كل عتادنا وذخيرتنا هو ما لدينا من الكلام والطنطنة والاشياء التي نعرضها على الملأ ونرفعها لاعين المتفرجين والنظارة. ألا فقدس الله عالم الصمت ! انه لاسمى مقاماً من الكواكب وأعمق غوراً من عالم الموت !وانه وحده هو النبيل والعظيم والجليل ـ وكل ماعداه حقير ضئيل تافه ! فلتلزم أمتنا فضيلة الصمت ولتعتصم بها . ولتدع غيرها من الأمم المولعة بالجلبة والضوضاء وحب التظاهر تصيح في كل موقف وتملأ الدنيا صياحا بكل صغيرة وكبيرة من شؤونها وتجعل بلادها مسرحا ترقص عليه وتلعب على مرأى ومسمع من المتفرجين والنظارة ـ فأمثال هذه الأمم المتظاهرة الصخابة ستصبح عاجلا أو آجلا غابات بلا جذور ولا أصول ـ مآلها الذبول والموت. ألا ما أقدس الصمت ! انه مستمد من ملكوت السماء ! انظر الى الدوحة العظيمة في الغابة تجدها قد لبثت الف عام تنمو في أتم صمت وسكينة فتي تسمع صوتها ؟ لا تسمع ذلك إلا حينما يجيئها الحطاب في نهاية الالف عام بفأسه ليقطعها

حينئذ تسمعك الدوحة صوتها . حينئذ تعلن الدوحة عن نفسها بتلك الصرخة الشديدة ـ صرخة الفناء والموت ـ صوت انصداعها وانقصامها . فهل أسمعتك الدوحة صوتها ساعة البذر والغرس المبارك حين نثرت بذرتها من حجور بعض الرياح الميمونة . هل أسمعتك صوتها ساعة اكتست حالى الورق النضر ووشى الزهر المفوف (وما كان أمتعها ساعة واملأها بالافراح والمسار) . كلا لم تسمعك الدوحة صوتها فى تلك الاوقات الهنيئة ولم تنبس بحرف واحد اعلانا لهذه الحوادث المفرحة . انما أسمعتك صوتها ساعة المصاب والفجيعة ـ ساعة الموت والفناء »

وهكذا رأينا تروت وسط الزوبعة السياسية يكد ويعمل فى أتم سكينة وصمت لا ثرثرة ولا افتخار ولا دعوى . ولا اضاعة للوقت الثمين فى المجادلات العقيمة المجدبة وخوض النظريات الخيالية المستحيلة ولا فى الشقشقة الهدارة والجلجلة الطنانة . ولكنه وقف مجهوداته العظيمة على الكد الدائب وحصر همه الجسيمة فى العمل المتواصل . وبارك الله فى الاعمال انها أجل وأعظم من الاقوال . الا انما الاعمال لمملوءة بالروح حافلة بالحياة جياشة بمادتها الغزيرة الزاخرة . الاعمال طافحة بالحياة الصامتة التى هى برغم صمتها حقيقة متمرة واقعة حاضرة الخير حاصلة الارباح

والفوائد . والاعمال تزكو وتنمو كالشجر المبارك الثمار وهي تعمر فراغ الوقت وتملأ فضاء الزمان وتكسوه خضرة ونضرة

ثروت باشا لا يميل بطبعه الى الجدل والثرثرة ولا الى المباهاة والمفاخرة ولا الى الاعلان عن كفاءاته ومواهبه . فاذا كان دور الكلام والاسترسال في ميادين النظريات المستحيلة والمشروعات الخيالية والمباهاة بأساليب المنطق الاجوف الفارغ المؤدي الى غير نتيجة وبتفويق سهامه الطائشة التي قصاراها أن تزل من فوق سطوح الحقائق المتينة القاسية دون أن تصيب أكبادها — وتنزلق من فوق أديم الحقائق الخشنة الجافية دون أن تنفذ الى صميمها — فتسقط تلك السهام متعثرة خائبة عن أجساد الحقائق وتبقى الحقائق بعد ذلك على حالها لم تذلل ولا تمتلك ولم يقبض على أزمتها — تواجهك — كما كانت من قبل — مرة أليمة قاسية — قد نفدت الجعب والكنائن دون أن تؤثر فيها مثقال ذرة وكأنما لم نصنع شيئاً . وكأنما انتهينا من حيث ابتدأنا — أقول اذ كان هذا الدور — دور الكلام والخيالات والمستحيلات — رأيت ثروت باشا قد اعتزل الميدان لا عن ملال ويأس ولكن تحيناً للفرصة وتحفزاً للوثبة ثم ربض في مكمنه وخدر في غيله سمير افكاره وأنيس وحدته

ولكن اذا جاء دور العمل وواجهتنا الحقيقة المرة الاليمة وتبادر الرجال لتذليل هـذه الحقيقة وفك معضلتها وللاخذ بناصيتها والقبض على زمامها واستثمارها لمنفعة البلاد وصالح الاوطان — ورأيت رجال النظريات المستحيلة والمنطق الاجوف يرسلون سهامه الطائشة على هيكل تلك الحقيقة فتزل من فوق سطحها وتنزلق عن اديمها الأملس الذى كأنه جلدة الافعى وكذلك تستمر افعى الحقيقة سائرة فى طريقها سليمة مصححة كاهدأ ما كانت وانعم بالا — إذا كان هذا هو قصارى زمرة الخياليين المتشدقين ذوى المنطق الاجوف — ثم جاء دور ثروت باشا رأيت ذلك الرجل العملى قد هاجم افعى الحقيقة وساورها وقبض على ناصيتها واخذ بكظمها وطفق يعالجها أشد علاج ويصارعها اعنف صراع ليرى أهو أم هي أشد بأسا واصعب مراساً — يجالدها ويكافحها بقوة جنانه أعنى بقوة جلده ومثابرته فى أمل ورجاء بل فى استيئاس واستماتة وصبر لا ينفد وايمان عميق وذكاء متوقد

كل هـذه القوى العقلية والخلقية تبرز من مكامنها حينما يصارع ثروت باشا (أو غيره من عظماء رجال العمل) أفعوان الحقيقة — وفى هذه المعركة وحدها — وعند هذا الصراع فقط — يمكننا أن نقيس مقدار همة الرجل ونزن مبلغ كفاءته وقدرته.

العمل وحده عنوان الفضل وآية القدرة ومسبار غور الرجل ومقياس عمقه . وعلى صحائف الاعمال يلوح فى سطور من النور بيان مايكمن فى صدور الرجال من كنوز الفضل والحكمة والادب والنهي ومن ذخائر الصبر والجلد والجد والمثابرة والحزم والعزم والاخلاص والامانة وصحة النظر ونفاذ البصيرة والحذق والبراعة — اجل كل ماينطوى عليه الرجل من قوة يلوح متلألئا فى أحرف من النار والنور على صحيفة عمله . أوليس العمل الجدي المخلص هو ان يواجه الرجل الطبيعة ونواميسها الابدية فيعالجها ويمارسها ليسيرها فى سبيل مقاصده وأغراضه . وعلى قدر فهمه لاسرارها ومطابقته لقوانينها يكون مبلغ فوزه ونجاحه . وهي الطبيعة تصدر على الرجل وعلى كفاءته حكمها حسب ماتراه من أسلوبه فى معالجتها ومسايرتها — اذ تقول في حكمها على الرجل هذا مبلغ ماوجدت فيه من فضل وكفاءة — هذا القدر لا أكثر ولا اقل — هذا مبلغ مافيه من قدرة على فهم أسراري والائتلاف معي ومجاراتى والسير على منهاجي ومراعاة شرائعي ونواميسي — وعلى حسب هذا كان نجاحه أو خيبته وسعادته أو شقوته كما ترى وتشاهد .

مصر فى أشد ازمات جهادها وأضيق مآزقه (عقب اعلان

المذكرة الايضاحية) اصبحت بأمس حاجة الى رجل العمل الدائب والكد الشديد والمجهودات الهائلة . لقد جربت من قبل ذلك اللجب والضوضاء والصياح والصراخ وجربت الشقاشق الهدارة والجلاجل الطنانة وجربت طواحين الهواء والالعاب النارية التي تملأ الجو طنينا ودويا وألاهيب وهاجه وشعلا براقة تساور السماء وتلامس الجوزاء ثم تسقط رماداً وتتبدد هباء — جربت هذا وذاك فلم يغنها فتيلا ولا قطميرا . وان كان افادها تلك الحقيقة الخطيرة وهي ان الكلام في موضع العمل عبث باطل . وان النزاع والشقاق في مقام التضامن والاتحاد ضلال مبين وان الصياح وحده هواء يذهب في الهواء وان السبح في بحار الخيال يؤدي الى ساحل الخيال الذي اذا ارسيت لديه وجدته ضباباً ينقشع من تحت قدمك وهباء يفر من بنانك — وليس يؤدي الى ساحل الحقيقة المادية الصلبة التي تحصل في ملكك وتقع في حوزتك

لما جربت مصر هذه الوسائل الكلامية واستنفدت ما هيأت لها معامل الحناجر ومصانع الاجهزة التنفسية من بارود الصراخ والهتاف وقنابل «يسقط ويحيي» فالفت كل هذا لم يغن ولم يثمر ووقفت حائرة مبهوتة ازاء الحقيقة المرة وازاء لغز السياسة بل لغز

الحياة المعضل المعقد الذي أبى أن ينحل على الرغم مما صبت على أم رأسه من بارودها الهتاف وقنابلها « الأسقاطيـة الأحيائيـة » تحننت عليها الطبيعة ورق لها فؤادها الكبير وتقدمت لعونهـا وامدادها . وقالت لها استريحي هنيهة. واختارت لحل اللغز وفك المعضلة رجل العمل والدأب والحزم والعزم والحجي والدهـاء — عبد الخالق ثروت .

وكذلك الطبيعة السمحة السخية ما كانت لتضن على الشعب المجاهد بالرجل العظيم عند الحاجة اليه . ولا يزال كلما ارتطمت الامة المجاهدة فى المأزق الضنك والزحلوقة الزل اسرعت الطبيعة الى اسعافها فساقت اليها رجل الساعة وبطل الميدان فلا يلبث ان يقيل عثرتها ويأخذ بيدها ويهديها سواء السبيل — ذلك دأب الطبيعة وديدنها الذى لن تعدل عنه الا اذا كانت قد أرادت بهذا العـالم الارضي الخراب السريع والدمار العاجل .

ولما اختارت لحل اللغز وفك المعضل رجل الجد والعمـل ثروت باشا ودفعت به فى جوف الزوبعة كما أوضحنا آنفا وفى وسط العوامل المتنازعة والقوى المتدافعة والعناصر المتكالبة المتلاطمة ارتاح لذلك العقلاء واستبشروا وقالوا « اما والله ما كانت قط زوبعة فوضى فرمى الله فى جوفها بروح النظام ممثلة فى رجل حازم

الا بدأت فيها حركة مباركة نحو ائتلاف العناصر المتنافرة والتوفيق بين القوى المتضاربة واستبقاء النافع واسقاط الضار من الاسباب والعوامل ـ حتى تري الفوضى سائرة الى النظام والثورة الى الهدوء والضجيج الى السكينة وتبصر مكان الجدب والعقم الانتاج والاثمار ـ فتوقن بحسن المآل والعاقبة» ولا جرم . فما من فوضى تقيم في وسطها روحاً عاية نبيلة الا آلت الى النظام والخير والفلاح بفضل ذلك . هـذا وان الطبيعة تحب النظام وتبغض الفوضى ولا تطيقها ولا تحتملها ولا تصبر عليها الا ريثما تهيء لها روحاً سامية تعالج بها شرها وتزيل خطرها . وهذا الكوكب الارضي النبيل المقدس الذي نعيش فيه ونتقلب مهما طال صبره على مروجي الهرج والفوضى فهو في النهاية لا يطيقهم ولا يلبث ان يريح نفسه منهم . وهذا من أشد ضرورات العالم اذ كانت سنته الصلاح والرقي وكانت مادة الخير فيه اكثر من مادة الشر وكان الحق فيه متغلباً على الباطل .

وأي خير في الفوضى الا اذا أصبحت تتجه نحو النظام وأي بركة في الثورات السياسية الا اذا تولى المصلحون تنظيمها برسم الخطط والبرامج العملية .

أي ثروت ! ايها الرجل الحازم البصير ! لقد قذفت بك الطبيعة

فى مضلة السياسة وتيهها وفى مجاهلها ومهالكها حيث اشتبهت المسالك واشكلت المناهج وخفيت وجوه الرشاد وخبت مصابيح الهداية فانظر ما انت صانع ؟ وأي السبل تسلك وأى الوجوه تنتحي ؟ الا فاعلمن ان راكب الصعاب وولاج المآزق مثلك اذا تشعبت فى وجهه السبل ووقف ينظر ايها يسلك الى غرضه الاسمى فلقد يوجد أمامه بلا شك بين هذه السبل منهج واحد هو اقصدها وأهداها ــ منهج يكون سلوكه فى ذلك الظرف وتلك الآونة احق ما يأتيه واصوب ما يصنعه ــ منهج واحد اذا أتيح له سلوكه طوعا أو كرهاً كان الحازم البصير والاريب الداهية ــ كان الرجل المكتمل الرجولة الموفق الى ما يرضى الرجال والالهة المساير لانظمة الطبيعة ونواميسها الغامضة الخفية فالطبيعة والكون أجمع يرحب بمثل هذا الرجل ويهتف له «مرحي ــ بورك فيك وفى عملك» ! ثم يكون اليمن رائده والنجاح حليفه فهل انت يا أيها الرجل النبيل والوزير الجليل مستبين بين ما يواجهك فى تيه السياسة ومضاتها وفى مجاهلها ومهالكها من متشعب الطرق والسبل . ذلك المنهج القويم الاوحد فسالكه الى قصدك الانبل وغرضك الاسمى ــ النجح والفلاح ــ الى ضالة الوطن المبتغاة وبغيته المرتجاة وأمنيته المشتهاة ــ الى الحرية

والاستقلال ؟ سنرى ذلك قريباً

سنراك وقد قذفت بك الطبيعة وسط زوبعة السياسة الهوجاء وعواملها المتنازعة وعناصرها المتكاثفة تؤلف بما اوتيت من عزم وحزم بين هذه القوى المتمردة الطاغية . وبين هـذه النزعات المتضادة المتعادية ـ ترد شواردها وتكبح جوامحها ـ آونة بسوط بأسك وسطوتك ولكنه بأس الحـازم المتدبر المتلهف على مصلحة بلاده وسطوة المنصف العادل الحدب على منفعتها ـ وآونة بكف لينك الغريزى المغروس فى طبيعتـك . ورقتك الفطرية المركبة فى سجيتك .ـ دأبك ذلك إلى أن تعنو لك عاصفة السياسة الهوجاء فترتد الفوضى نظاما . والزوبعة نسيما والحرب سلاماً . انك وان كان قد كتب لك بحكم الظروف والأحوال أن تعمل وسط الزوابع السياسية والثورات الوطنية ـ وسط ما يصح لنا أن نسميه نوعاً ما من الفوضى ـ فانك بطبعك ونحيزتك رجل نظام لارجل فوضى ـ وتلك طبيعة العظماء كافة كلهم مجبول على حب النظام ـ بل كلهم النظام مجسدا . وكذلك الرجل العظيم إنمـا هو رسول النظام فى هـذا العالم . (وكذلك ما يجب أن يكون شيمة كل إنسان يحمل الصورة الادمية) أو ليس كل عمل من أعمال الانسان في هذه الحياة هو «ردالفوضى

الى النظام » ؛ أو ليس كل ذى حرفة وصناعة موكل في هـذه الدنيا أن يجمع المواد الطبيعية المبعثرة فى أنحاء الـكون المشتتة في ارجاء الوجود المتباينة جوهرا المتنافرة صفات وطباعا فلايزال يوفق بينها ويؤلف حتى يضم شتاتها ويجمع بددها ويفرغ تفاريقها في قالب محكم بديع عجيب الصنع محدود بالقواعد الهندسية والحسابية ؟ كلنا مولودون بفطرتنا اعداء للفوضى عشاقاً للنظام ـ هذه مزية البشر عموماً وهي فى الرجل العظيم اضعاف اضعافها فى الرجل العادي .

النظام يقتضي الشدة ويتطلب الصرامة احياناً ـ وهذا بلا شك نوع من الحذر والاشفاق على المصلحة العامة ـ وفى هذه الظروف الضرورية يصبح إسم « الشدة والصرامة » غير منطبق تمام الانطباق على المعنى الحقيقي لما يتبعه الرجل الحازم من خطته الصارمة الشديدة التى يكون أحق بها وأولى وأقرب إلى معناها الحقيقي أن تسمى «رقة معكوسة » و « عطفاً مقلوباً» اذ كان باعثها الحقيقي هو العطف والرقة . والحنان والشفقة وكما أن الطبيعة تنجز اعمالها وتنتج نتائجها آنا بالنسيم اللطيف وآونة بالاعصار العنيف وتارة بالجدول السلسل وأخرى بالسيل الجارف فكذلك الرجل المصلح الذى هو شعبة من الطبيعة وفلذة من

كبدها يحدث آثاره النافعة وما آثره الجليلة باللين تارة وبالشدة أخرى كالطبيب الحاذق يداوي بالعسل وبالصاب وربما أزال السم بالسم وشفى الداء بالداء .

نقول لما اعضل على الأمة المصرية لغز السياسة المعقد واعتاص حله ولم تفلح فيه سهام المنطق الاجوف وزخارف الآمال واخاديع الامانى ولم توفق الى حله طمحات الاوهام وسبحات الخيال والاستناد على النظريات المستحيلة والاحتجاج بالافتراضات الوهمية معززة بقذائف « الهتاف » والقنابل « الاسقاطية الاحيائية » تقدم إلى معالجة هذا اللغز المعضل العويص رجل الحقيقة والجد والعمل عبد الخالق ثروت . ووقفت مصر وانكلترا والعالم أجمع ينظر إليه نظرة العجب والدهشة ليرى ما هو صانع ازاء ذلك المشكل المعضل .

وقف رجل العمل والذكاء والدهاء امام ذلك اللغز المخوف وكأنا بذلك اللغز يخاطب الرجل العظيم قائلا له « أتفقه معنى هذه الساعة العصيبة ؟ أتفهم لغز الحياة فى هذه العقبة الكؤود والموقف الحرج ؟ أن الآلهة تواجهك بسؤال معجز ولغز معضل فهل عندك جوابه وهل لديك حله ؟ »

قال توماس كارليل فى كتابه (الماضى والحاضر) لقد جاء فى

أساطير الاولين ان جنية كانت تربض على قارعة الطريق للمارة تواجه كل عابر باحجيتها الصعبة ولغزها العويص فاذا استطاع حله مر سالماً آمناً فى سربه والا أهلكته وأوردته حتفه . ويزعمون أن هذه الجنية كان لها وجه حورية حسناء وصدرها الناهد وأعطافها اللينة . ولكن بدنها الغض الرشيق ينتهي بعجيزة لبؤة ضارية ومخالب سبعة عادية .

« وكذلك الحياة هى كتلك الجنية لافرق ولا خلاف — فالحياة تواجهك بجمال حورية وحسنها الفردوسي الذى معناه النظام البديع والحكمة العالية والخضوع لقانون العقل الأزلى السرمدى ولكن فيها مع ذلك عنفاً وطغياناً وظلمة وهلاكا — أحق أن تسمى آفات جهنمية . وهذه الحياة أوالطبيعة لاتزال — كتلك الجنية — تلقي على كل انسان يعبر سبيلها بصوت رقيق رخيم هذا السؤال الخطير المرعب « أتفهم معنى هذا اليوم الذي أنت فيه ؟ أتفقه مغزي هذه الساعة؟ أتدري أي مشكلة تواجهك وكيف تحلها؟ وأي سبيل تسلك إلى ذلك ؟

« أجل ان الحياة أو الطبيعة أو الوجود أو القدر — كيفما سميت هذه الحقيقة الهائلة التى لا يستطاع تسميتها — والتى نعيش فى وسطها ونجاهد — لهي حورية فردوسية وعروس سماوية وربح

وغنيمة للاريب اللبيب والذكى الالمعى الذى يستطيع أن يتفهم أسرارها ويحل لغزها ويتبع قوانينها ويصدع بأوامرها . وهي جنية فتاكة وشيطانة مهلكة لمن لا يفعل كذلك ولا يستطيعه . فافهم اسرارها وحل لغزها تسلم وتغنم .

أما إذا لم تعن بذلك ولم تأبه له ومضيت فى سبيلك دون أن تحل ذلك اللغز وتجيب ذلك السؤال فستحله لك جنية الحياة وشيطانة الطبيعة — ستحله لك بمخالبها وتجيبك ببراثنها وأنيابها الحادة ثم لن تصادف فيها سوى لبؤة ضارية وسبعة عادية وحية رقشاء . أباءة صماء . لا تسمع دعاك . ولا ترق لشكواك . ولا تلين لرقك . »

تقدم رجل الحقيقة والجد والعمل الى العقدة الصعبة والمشكل المعضل بعد ما أعجز أهل الخيالات والاوهام وطلاب المعجز والمستحيل — وقف ثروت باشا على قارعة السبيل وواجهته شيطانة السياسة بلغزها العويص وطالبته بالحل والجواب — فهل هو مخطىء أو مصيب — هل هو معرض نفسه وبلاده لمخالبها وأنيابها أو مشيع منها بنظرة الرضا وابتسامة الارتياح — الى منهج التوفيق وسبيل النجاح ؟ سنرى ذلك قريباً سنري رجلا ليس باسير خيالات وأوهام ولا متعلقاً بأذيال الخوارق

والمستحيلات ولكن رجل الحقيقة والواقع ـ رجل الممكن والجائز ـ رجل الغريزة الصادقة والبديهة الحافلة والبصيرة النافذة رجلا يسلط شعاع عينه الثاقبة على المشكل والمعضل فيبدد عنه ظلمات الشكوك وغيوم الريب والشبهات كما تسلط العدسة البلورية طائفة الأشعة على الأشباح فتجلوها في أسطع مظهر من الوضوح والبيان ـ رجلا ينفذ بنور بصيرته إلى اكناه الأمور وجواهر الأشياء واكباد الحقائق حتى يقهرها ويتملكها آخذاً بنواصيها قابضاً على أعنتها ـ وذلك بفضل مافاق به غيره من رجاحة العقل وصدق العزيمة وقوة الروح ـ ذلك رجل لا ينظر إلى الدنيا ومشكلاتها بمنظار النظريات والقياسات ولكن بعين مجردة نافذة البصر ساطعة الشعاع كشافة اللمحات ـ رجل الاخلاص العميق والغيرة الملتهبة والقلب الذكي المتأجج . والروح الحي المتوهج .

سنرى رجلا مطوياً على غريزة الاهتداء إلى سر الحقيقة وجوهرها أينما كان ـ رجلا قد ثبت قدمه على أساس الحقيقة الوطيد الراسخ ـ رجلا يستطيع أن يتبين بصادق نظره ونافذ بصره من خلال التعاقيد والارتباكات لباب الشيء وجوهره فيعمد نحو ذلك ويسدد اليه خطواته . لقد روي عن نابليون

الأول انه لما كان أمين قصره يعرض عليه يوماً ما استجده فى القصر من فرش وأثاث وقد جعل هذا الأمين يطرى هذه الأمتعة والأدوات ويثنى على صناعها ويقول انها قد جمعت إلى جودة الصنف ونفاسته رخص القيمة وقلة النفقة لبث نابليون أثناء تلك الأقوال المسهبة والخطاب المستفيضة صامتاً لاينبس بحرف واحد . ولكنه بعد نهاية هذا الكلام المطول أمر أمين القصر أن يجيئه بمقص ثم عمد إلى هدابة ذهبية من هداب إحدى الستائر فقصها وطواها فى جيبه وانصرف . وبعد مضي أيام قلائل أبرز الهدابة من جيبه فى الفرصة المناسبة فعرضها على منجد القصر الذي كان صنعها فارتاع ذلك الصانع التعس وأرعدت فرائصه : لقد كانت تلك الهدابة مغشوشة — لم تكن ذهباً كما زعم ولكن صفيحاً ! هذه النادرة على تفاهتها تبين ماهية طبيعة الرجل وعنصر خلقه — تبين أنه رجل عمل لا كلام وإن غريزة نفسه الصادقة تدفع به إلى كبد الحقيقة مباشرة ضارباً صفحاً عما يحيط بها ويحجبها من الأقاويل والأراجيف ومن الشكوك والشبهات . كذلك كان نابليون الأول وكذلك كان غيره من رجال الحقيقة والجد والعمل — وكذلك نري عبد الخالق ثروت .

هذا الرجل العظيم — ثروت باشا — يعرف بغريزته الصادقة

كنه ما يحيط به من الظروف والأحوال وماهية الأسباب والوسائل التي يستخدمها ويتذرع بها إلى بلوغ غرضه ويعرف كذلك درجة قوته ومبلغ قدرته وأين تقعان من غايته وبغيته ـ يعرف النسبة بين كفاءته وبين ما يكتنفه من الظروف وما يستعمله من الوسائل . وهذا لا يتأتى بالنظر السطحي ولا باللمحات المتقطعة ولكن بطوفان من نور البصيرة يغمر الأمر المبهم من جميع جوانبه وأركانه ـ بفضل العين الثاقبة والذهن المتوقد . وكذلك على مقدار فهم الرجل لحقيقة الموقف يكون حسن كفايته وبلاءه . فهل هو يستطيع أن يجمع الشتات ويؤلف الشوارد وينفث في الخليط المشوش روح النظام والتنسيق — هل يستطيع الرجل أن يقول في غياهب الشك وظلمات الشبهة « فليكن نور » فيكون النور ؟ هل يستطيع أن يخلق من عالم السديم والفوضى دنيا منظمة منسقة ؟ ستكون قدرته على ذلك بحسب مايحتويه قلبه من النور والضياء . وسنرى قريباً مبلغ نصيب الوزير الجليل من هذه الميزة العظمى ـ ميزة الملائكة وهبة الآلهة .

ذلك النور والضياء في فؤاد ذلك الرجل الألمعي ـ عبد الخالق ثروت باشا ـ هو مصدر مايمتاز به من خلال النبل

والكرم والهمة والمروءة والوطنية الملتهبة وخصال الصبر والجلد والحلم والرفق والتسامح .

ألا فقدس الله نور القلب وضياءه ! ـ أليس ذلك هو الذى يجلو لك ، ما يستكن فى ضمائر الاشياء من روح النظام والائتلاف ـ اليس ذلك هو الذى يوضح لك مغازي الطبيعة ومقاصدها وما قد تخفيه تحت قشورها الخشنة ومظاهرها الكريهة من المعاني الموسيقية ؟ (فانه ليس من شىء كائن فى هذا الوجود الا يستكن فى أعماق جوفه معنى موسيقي أى روح نظامية تكون قوامه ومساكه وعماده وملاكه . وبغيرها الا يتماسك ولا يكون) . فنور القلب أو العين الثاقبة فى عظماء الرجال عامة وفى ثروت باشا خاصة هي التى تهديه فى زوبعة السياسة الثائرة بآفاتها ومكارهها ـ الى مواطن الخير والمنفعة والصالح فيستخلص من المنكر معروفاً ومن المر حلواً ومن السم درياقاً . كما سنرى قريباً .

لقد تقدمت أيها الوزير النبيل لعملك الجليل وسط اطلال صرح الاستقلال المتهدم وانقاضه المبعثرة وأمامك الخصم العنيد يحاول مقاومتك ومناهضتك بهدم ما تشيد وتقويض ما تبنى . وحولك البناؤون من بنى وطنك منهم المسعف المسعد الحاضر المدد والمعونة ومنهم المتباطىء والمتلكيء والوانى والمتهاون ـ

فمصاعبك جمة ومتاعبك شاقة ـ أحجار وجلامد صلبة صماء تتأبى وتتعسر . ورجال تتأفف وتتضجر . وأمور متناقضة وشؤون متضاربة وظروف عاتية متمردة . فلتقهرن هذه جمعاء ولتتغلبن عليها إن قدرت ـ وإنك على أمثالها لقادر .

إن المصاعب والآفات والمتاعب والعثرات قريبة ظاهرة مجابهة تتلقاك لدي كل خطوة ـ وإن عون الطبيعة ومددها وإسعافها (وإن كان فى النهاية مؤكداً مضموناً) لمستتر مختبيء ـ فاستثره من مكامنه ونقب على خفاياه بالصبر الجميل وبالجلد والعزم والاخلاص ـ بقوة رجولتك ومضاء همتك . تغلب على كل عقبة وصعوبة وحاول بكل ماأوتيت من حول وطول أن تشيد من هذه الانقاض المبعثرة المشوشة صرح الاستقلال التام لبلادك راسخ القواعد موطد الأركان منيع الجوانب شامخ الذرى .

لبث الوزير الجليل عبد الخالق ثروت باشا ثلاثة أشهر طويلة يدافع عن حمي بلاده ويذود عن حياضها ويكافح عن حقوقها ويناضل ازاء الد الخصوم واعتاها وأشدها استبداداً وجبروتاً ويطالب بتحقيق مطالب الوطن العزيز وامانيه الكبيرة ـ ثلاثة اشهر جاهد فيها جهاد مشمر معتزم مستبسل فى سبيل الحق مقدما اصدق مثال على روح الوطنية العالية والتضحية

الشريفة . فكيف كانت نتيجة مساعيه وثمرة مجهوداته .

فى نهاية هـذه الأشهر الثلاثة أذعنت لشروطه وأجابت مطالبه اقوى دول العالم فاعلنت فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الغاء الحماية عن القطر المصري واعلنت استقلاله التام ـ وان يكون للبلاد دستور وحكومة مسؤلة

جزاك الله أيها الرجل العظيم عن البلاد وأهلها أكرم الجزاء.. وقدرها على القيام بواجب الشكر نحوك

الفصل الثاني

التصريح لمصر

بالغاء الحماية واعلان الاستقلال التام

وكذلك في غرة شهر مارس سنة ١٩٢٢ خطت مصر أفسح خطوة وأيمنها نحو غايتها المقصودة وأمنيتها المنشودة فصدعت عن نفسها أغلال الاستبداد الاجنبي وتخلصت من ربقة الحكم البريطاني ووضعت قدمها على قارعة طريق النجاة والسلامة وبرزت من ظلمة سجن العبودية الى فضاء الاستقلال المطلق الرحيب والى جوه المشرق المستنير وتنسمت أول نسمات الحرية ـ تلك النسمات الغضة المنعشة التي هي غذاء الانفس ومادة الارواح وحياة الحياة اذ كانت هي الشرط الاول لنهضة الامم من وهدة التقهقر والانحطاط والحجر الاساسي لبناء صرح المجد والعلاء وكانت مفتاح باب النعمة والثراء . والرغد والرخاء . وسلم الرقي الى أسمى درجات المدنية والحضارة والحياة السامية النبيلة .

أعلنت انكلترا في « التصريح لمصر » الغاء الحماية والاعتراف

بالاستقلال التام وأن يكون لمصر برلمان يمثل الامة تمثيلا صحيحاً وحكومة مسؤولة أمام الامة ممثلة فى برلمانها وأن تتولى مصر بنفسها دون أدنى تداخل من الدولة الانكليزية أمر تأسيس البرلمان وسائر مهمات الحكم والادارة فى بلادها . وأن يحصر الخلاف بين الامتين فى أربع نقط وهى :

(١) حماية المواصلات البريطانية داخل حدود القطر المصري (٢) حماية الاقليات والأجانب (٣) الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أجنبي (٤) مسألة السودان . فهذه المسائل الاربعة ينظر فى تسويتها وحلها بواسطة مفاوضات مستقبلة تدور بين الحكومة الانكليزية وبين البرلمان المصري الذي يكون هو وحده صاحب الحق فى تحديد موعد هذه المفاوضات والشروع فيها حسب ميله ومشيئته الحرة المطلقة. وفى مقابل هذه الفوائد الجمة والغنائم العظيمة التى استخلصها عبد الخالق ثروت باشا لمصلحة بلاده من يد الخصم الالد المعاند لم يبذل دولة الرئيس الاجل لذلك الخصم أدنى ثمن فى صورة شرط أو تعهد أو قيد ـ بل احتاز للوطن هذه الثمرات المباركة غنما بلا غرم وطعمة سائغة هنية وعربونا لما سوف تستوفيه مصر على يد برلمانها فى

المفاوضات المقبلة من موفور الحقوق ومستكمل المطالب .

كل ذلك نالته مصر بعونة الله العلى الأكبر جل شأنه وبهمة مليكها المعظم وفضل مساعيه الجليلة ومجهوداته العظيمة محتذيا فى ذلك حـذو آبائه الاقيال الاماجد واجداده الصيد الصناديد جاريا على سننهم الاغر الاوضح ومنهاجهم الانبل الاشرف متبدرا غاية من المجد والسناء تقع من دونها سابحات الآمال وطامحات الاماني وتنحسر عن شأوها المديدا حث مطايا الحمد واوحى سوابق الثناء والشكر . ادام الله سلطانه . ودعم بالعز بنيانه ووطد بالعدل أسسه واركانه . وايد بالفتح المبين صولجانه . وانسح فى بحبوحة النعيم ارجاءه . واخفق فى رياح النصر لواءه . وجعل عهده الميمون مراد خصب عميم . ومرتع عز مقيم . وفاتحة خير للبلاد لاتجف على الزمان اخلافـه . ولا يجمد على الحقب والاجيال هطاله ووكافه . انه سميع النداء . مجيب الدعاء .

نالت مصر كل هذه الفوائد والغنائم بفضل الله عز وجل وبفضل مليكها المعظم ادام الله عزه وخلد ملكه وبفضل الوزير الاجل عبد الخالق ثروت باشا الذى رد إلى البلاد بفضل حكمته وحزمه ومثابرته وجهاده اوفر قسط من حقوقها المسلوبة ـ (وأنه على استرداد الباقي لمعتزم دؤوب) ـ والذى محا ما كان أصاب

كرامة الاوطان من وصمة « المذكرة الايضاحية » واسى ما كانت أحدثته فى أديم تلك الكرامة من ندوب وجراح ـ دون أن يقيد البلاد باعطاء أدنى مقابل من شرط أو تعهد .

وبفضل مجهودات الشعب المصرى ذاته الذى ما قصر فى المطالبة بكامل حقوقه ولا فرط ولا ونى ولا تبلد والذى أظهر فى الساعة العصيبة والمحنة النكراء (عقب اعلان المذكرة الايضاحية) من ضم الصفوف وتوحيد الكلمة ماشد أزر الوزير الجليل ثروت باشا وايده وكان من ورائه حصناً حصينا فى مناهضة الخصم وكهفاً منيعا وعروة وثقى .

وكذلك فى أول مارس ١٩٢٢ هب على مصر من نفحات رضوان الله نسيم الاستقلال وحيا مسامعها من موسيقى النظام الابدى، نغمات الحرية المطربة الشجية فحيا الله فى الأيام ذاك اليوم الأغر المحجل وقدس الله فى الساعات تلك الساعة السعيدة الزهراء ساعة هبط علينا البشير يحمل إلينا صحيفة السعادة الخالدة ممسكة باذكى من شذى العطر . مصقولة الطراز بابهى من سنا الفجر . وأى ساعة أجل وأعظم واحق بالتحميد والتمجيد من ساعة تنطلق فيها الروح الانسانية بعد طول اسر واحتباس من قيود الرق واغلال الخسف والعسف فتنهض وتنبعث ـ ولو غشيها

اثناء ذلك شيء من الدهشة والارتباك والحيرة ـ وتنشط من عقالها حائفة بالذى خلقها وسواها لتكون حرة واتبقين طايقة؟ الحرية وما ادراك ما الحرية ؟ هي جوهر الروح وعنصر النفس وملاكها الذى لاتقوم بغيره وقوامها الذى لاتصح ولاتسلم إلا به. وهي البغية والطلبة التى لا تزال تنزع اليها الروح من أعماق اعماقها وتشرئب وتطمح وتصيح مفصحة أو معجمة مبينة أو مجمجمة تطالب بها السالب المغتصب مناوئة منابذة ولو هددها بما فى الأرض والسماء من قوة . وهي التى فى سبيلها وحدها يبذل بنو الانسان بحكمة أو بلاحكمة كل كدوعناءومجهودوجهاد: ويغشون كل ملحمة ومعترك ويقاسون كل ألم وكربة وبلاء . اجل ما اجل تلك الساعة وما اعظمها ـ ساعة تنسم الامة انفاس الحرية المنعشة! ساعة يبدو للقافلة المكدودة الظمأى خضرة الروضة العشيبة وسط القفرة الجرداء ويقر اعينها رفيف ايكها النضر فى وقدة الهاجرة ولفحة الرمضاء.

لما قبلت انكلترا شروط ثروت باشا واجابت مطالبه انفكت الأزمة الوزارية ورأى ذلك الوزير الجليل انه لا بأس عليه فى تلك الظروف الحسنة من قبول الوزارة ـ وحينذاك رأت جلالة الملك أن تسند إليه الرياسة فلبى دعوة مليكه المعظم تلبية مسرع

إلى طاعته صادع بأمره محتملا فى سبيل خدمة البلاد اعباء تلك المهمة الشاقة ثم اختار دولة الرئيس للوزارات المختلفة رجالا هم صفوة ابناء الأمةونخبتهاوعتادهافى الازمات والشدائد وذخرها فى الملمات والعظائم ـ من كل فاضل كفوء وحازم بصير مديد الشأو رحب الذراع بعيد الهمة وحسبك أن يكون بينهم رجل كصاحب المعالى اسماعيل صدقي باشا ـ ذلك الفذ النابغة الذكى الالمعى الذى كأنما تتوقد بين جبينه كواكب الفلك. ومصابيح الحلك . ذلك المشهود له بدقة الذهن وصفاء القريحة لايطيش له فى حومة النضال سهم . ولا يخبو له فى ظلمة الشكوك نجم. وقد طالما عجمته الحوادث . وعركته الكوارث . فالفته صلد الصفاة . جلد الحصاة . لاتحل حبوته . ولاتفل عزمته. وكم دفعت به خطوب السياسة فى المآزق والمضايق فما راعنا الا خروجه منها ظافرا وادع القلب وضاء الجبين . وكفاه نبلا وشرفا انه كان موضع اختيار الرئيس الاجل وانه مازال موطن ثقته واعتماده .

وحسبك أيضاً أن يكون من بين من اصطفى الرئيس أيضاً صاحب المعالي مصطفى ماهر باشا ـ وهو ذلك الرجل الجلد القدير على العمل الناهض بأعبائه مهما كدت وفدحت . وكم له

من موقف فى ميادين الاعمال الجسام اظهر فيه الحكمة مقرونة بالصرامة والتؤدة مشفوعة بالعزم والمضاء . وقد أحسن الرئيس كل الاحسان فى اختيار مثل هـذا الشهم الهمام لوزارة المعارف لانها أحوج الوزارات الى عميد ينفحها بروح من عنده ويبعث فى كيانها تياراً ملتهباً من « بطارية» ذهنه المتقد ، وجذوة حامية من مرجل حميته المحتدمة . وما ذا عسانا بعد أن نقول فى رجل رآه الرئيس اهلا لما ناط به من ذلك العمل الجليل والمنصب العظيم

كذلك تألفت الوزارة باختيار ثروت باشا من رجال اكفاء سبقت لهم فى خدمة البلاد اياد بيضاء . ومآثر غراء . تجلى فيها اخلاصهم وصدق وطنيتهم فى حذق وبراعة . وقد تبوأ اولئك الوزراء مناصبهم فى وزاراتهم المختلفة حيث أخذوا بالمبدأ السياسى الجديد ـ مبـدأ الانفراد بالعمل والاستئثار بالسلطة فقبضوا على أزمة الحـكم وتسلموا مقاليـده وحققوا معاني ذلك المبدأ الجديد وأغراضه تحقيقاً تاماً لا يقبل شكا ولا ريبـة ـ فاصبح الموظف الانكليزي مهما علت درجته مرؤوساً للوزير مرغماً أن يخضع لإرادته ويصدع بأمره وليس رئيساً مستبداً مطلق السلطة متحكما فى جميع من حوله يأمر وينهي لا ناقض لحـكمه ولا راد لـكلمته وربما استبد على الوزير نفسه واغتصب سلطته

وأخضعه لمشيئته ورغبته ـ كما شوهد كثيراً فى العهد السالف . فها نحن أولاء أصبحنا نرى بعين قريرة جذلى كبار رجالات الانكليز يتقلص ظل سلطانهم عن منصات الحكم داخل بلادنا ويطوى بساط نفوذهم عن دوائر حكومتنا وينملس شبح صولتهم المرهوبة ويزول عن أبصارنا ـ ويحل محل هذا كله سلطة وزرائنا ـ أهل جلدتنا وأبناء آبائنا واخواننا فى الله والوطنيـة وشركائنا في السراء والضراء ـ الواردين معنا حياض المناعم والمكاره والشاربين بالكاس التى بها نشرب ان علقماً وان شهداً ـ ورفاقنا فى قافلة الجهاد وزملائنا فى سفينة الاقدار ـ السائرين معنا الى الهلاك أو النجاة . الى الموت أو الحياة . المقرونة اسماؤهم الى اسمائنا في سجل القضاء الازلي. المخبوء لهم من القسم والحظوظ مثل ماخبىء لنا في خزانة الغيب ومستودع المجهول . الجارى لناولهم بالسعود والنحوس نجم واحد في فلك واحد . فليس من المعقول ولا من الجائز قياساً أو فرضاً ولا مما يسوغ في الضمائر أو يمر على الخواطر أن اخواننا الوزراء ـ من تجيش عروقهم بدمائنا وتنبض قلوبهم على دقات قلوبنا ـ ينزلون الا على ارادتنا ـ أو يتوخون سوى أغراضنا ومقاصدنا ولاسيما في هذا العهد المبارك وفي هذا الدور المتقدم من قضيتنا وبعـد ما أعلن الانكليز رسمياً الغاء الحماية

والاعتراف بسيادة مصر في الخارج وفي الداخل فكان في ذلك أوضح برهان على ما عدلت اليه وعولت عليه الحكومة الانكليزية من صحة العزم وصدق النية على عدم التعرض لادارة مصر الداخلية والحيلولة بينها وبين التمتع بحقوقها الكاملة فى حكومة أهلية.

أجل انّ الوزارة الحالية لا تألوا جهداً ولا تدخر وسعاً في استرضاء الامة والنزول عن حكمها ـ وان قامت العقبات والعثرات مؤقتاً دون قيامها بابلاغ الامة كل رغباتها وجميع مشتهياتها ولكن الوقت كفيل أن يبرهن للشعب على أن ما يؤجل الآن من أمانيه وبغياته بحكم الظروف القهرية الناشئة عن حالة الانتقال والتطور السياسى لن تلبث الوزارة أن تعمل على قضائه وتحقيقه في الحين المناسب متى تراخت الازمة وانفسح المجال وتيسرت الظروف المسعدة المؤاتية ـ وفى سبيل تيسير هذه الظروف وارخاء تلك الازمة واستعجال ذاك الحين المناسب تبذل الوزارة الآن أقصى الجهد وتخطو افسح الخطى.

فها هي قد تسلمت كما أسلفنا مقاليد العمل وقبضت على أعنة السلطة. فنحت المستشار المالي عن حضور جلسات مجلس الوزراء كما هو معروف وتخلصت من معظم وكلاء الوزارات

ومستشاريها الانكليز واستبدالت بهم وكلاء وطنيين . وهانحن أولاء لا يكاد يمر بنا برهة من الزمن الا رأينا بعض كبار الموظفين الانكليز يعتزل منصبه في الحكومة المصرية فيعين مكانه مصري من ابناء البلاد . وها نحن نرى الوزراء المصريين قد ملكوا نواصي الشؤون والاحوال . وامسكوا بدفه المسائل والاعمال في وزاراتهم المختلفة فأحاطوا علماً بكل دقيقة وخطيرة ولم يغادروا صغيرة ولا كبيرة . . ومن ذا الذي لم يطلع في الجرائد السيارة على قرار صاحب المعالي اسماعيل صدقي باشا بهذا الشأن وفي ذلك الصدد . ذلك القرار الحاسم الجازم . الذى أماط كل لثام وجلى كل شك وشبهة عن هذا الامر الخطير فلم يدع مجالا للنقد ولا موضعاً للاعتراض .

هذه كلها من فوائد العهد الجديد ومن ثمرات الفوز السياسى المبين الذى احرزته البلاد بمعونة الله عز وجل وبفضل جدها ومجهودها وهمتها وتضحيتها وعلى الاخص بما اظهرت من الاتحاد والتضامن (عقب اعلان المذكرة الايضاحيـة) والقيام فى وجه الخصم الالد المعاند متساندة متعاضدة كأنها روح واحدة في جسد واحد . وبفضل مجهودات وزيرها الاجل ومهارته وحنكته السياسية وكفاءته النادرة فهو الذى استطاع أن يتخذ من صدق

موقف الامة وقوة تضامنها أحسن وسيلة وأضمن ذريعة الى اقناع الخصم واستمالته والتأثير فى أعصابه حتى أمكنه أن يستخلص للبلاد من قبضته ما استخلصه من تلك الفوائد الجمة والغنائم العظيمة .

ولكن كيف كان موقف الامة ازاء هذا التغير السياسي العظيم وبماذا استقبلوا هذا العهد الجديد . وماذا كانت آراؤهم فيما قد تأتى للبلاد من تلك الفوائد والغنائم ؟

انقسمت الأمة بهذه المناسبة وفى هذا الموقف من حيث الظنون والآراء شيعاً بدداً . وطرائق قدداً . . فمنهم المستبشر المتفائل الفرح الجذلان بما نالته البلاد من ذلك الغنم العظيم وان وقع دون أقصي غاية البغية والمراد وتقاصر عن أبعد مرامي المقصود والمرغوب ولم يسم إلى ماتطمح إليه الأمة من الاستقلال التام بأكمل معانيه . وفى إسمي مراقيه . وأسنى مجاليه . فهذا الفريق من أهل البلاد يعتقد أن هذه المرحلة الأخيرة فوز صريح وربح حاصل وأنها بلا أدني جدال خطوة إلى الأمام ـ وخطوة واسعة قد قربتنا من الغاية المقصودة شوطاً بعيداً . وشأواً مديداً . وحسنت موقفنا وحصنت مركزنا ورفعتنا من وهدة ضعف وحضيض مهانة كنا فيه تحت مدفعية الخصم نصلى نيران سطوته

ولهيب صولته لا نستطيع له مطاولة ولا مصاولة ـ فرفعتنا هذه الخطوة إلى ربوة عزة ومنعة وهضبة حصانة وقوة أصبحنا بها أولي قدرة على مناهضة ذلك الخصم ومناجزته وأقدر على مواصلة سعينا إلى أمنيتنا المنشودة أعنى الاستقلال التام المطلق من كل قيد المجرد من كل شائبة ـ أولم يصبح هذا الغنم الذى استفدناه أخيراً أقوى سبب وأمتن وسيلة نستطيع أن نتذرع بها إلى أحراز الفوز الأتم والنجاح الأكمل أعنى تحديد الضمانات التى تطلبها بريطانيا العظمي ونقصها وتلطيفها بما لا يتعارض مع استقلالنا ولا يضيره إلى أن يحين الوقت للعدول عنها وإطراحها فتخلص مصر الخلاص التام من كل قيد من هذا القبيل وخلافه.

هذا فريق التفاؤل والتيمن الذى هو فى الحقيقة أقرب من غيره إلى الصواب والمعقول. لأن جميع ما يحيط بالمسأله من شواهد الظروف وقرائن الأحوال تصدق رأيهم وتؤيد حجتهم وثمت فريق آخر يناقض الفريق الأول فى رأيه ومذهبه. فهو لا يثق ببريطانيا على الاطلاق بل يفضل ترك الحاله معلقة ـ حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا ـ على قبول ما هو معروض الآن على مصر ـ محتجاً لمذهبه هذا بأن الانكليز ما برحوا منذ بدء احتلالهم هذا القطر يمنون أهله بأباطيل المواعيد وأضاليل الأماني

فاذا استسلمنا الى وعودهم هذه المرة أيضاً فقد تضعف العزائم وتتخدر الأعصاب ويتأخر سير القضية الى غرضها الاسمي ومرادها الاقصى وفى هذا البلاء والشر كله .

ونحن نعترض على هذا الفريق ومذهبه بأن انكلترة اليوم ليست بانكلترة الأمس . لقد علمتها الحوادث والخطوب أن أمم الشرق وشعوبه الواقعة تحت سيطرتها ليست بالرمم البالية المقبورة فى مدافن الدثور والعفاء ولا هي بالخشب المسندة الملقاة فى زوايا الاهمال والنسيان رهائن العجز والتبلد والخمود والجمود . لقد كانت انكلتره تحسب أن الامة المصرية وسائر أمم الشرق لم تشارك الشعوب الغربية المهضومة فيما أحدثته الحرب الكبرى فى صميم كيانها من تلك الثورة الفكرية والغليان السياسي الذى استحث حركتها العادية وسيرها المألوف فى سبيل الرقي الطبيعي التدريجي نحو الغاية المحتوم عليها بلوغها — (ولو ببطىء وتريث وبعد تعطيلات العقبات والعراقيل) — بحكم السنن الكونية والنواميس الطبيعية. فانكلتره بالرغم من اعترافها للشعوب الغربية الصغري بما أحدثته فيها الحرب الكبرى من الثورة الفكرية السياسية وبالرغم من اذعانها لحكم هذه الثورة — أعني لحكم السنن الكونية والنواميس الطبيعية تغافلت عن مصر في باديء الامر

وتعامت ولم تحسب لها حساباً فى باب النهوض والتحفز فلم تلق لمصر بدلو يوم القت الشعوب الغربية بدلائها فى مناهل المؤتمرات ولا أجالت لمصر قدحاً ولا سهماً يوم أجالت الشعوب الغربية سهامها وقداحها فى قرعة السياسة على موائد المقامرة الدولية لم تطرح انكلترا مسألة مصر — ولا سمحت لمصر أن تطرحها بنفسها — فى ميزان التسوية يوم طرحت مسائل الامم الغربية فى ذلك القسطاس المحكم .

فماذا كانت النتيجة والعاقبة ؟ نتيجة الغفلة والتفريط وعاقبة من لا يحسب للأمر حسابه ولا يتدبر عواقبه — كانت النتيجة — مفاجأة الغافل المغتر عما لا يتوقع من الخطب الجسيم والحادث الجلل الذي مابرح يختمر ويتكون — أيام غفلته وغروره — فى طي الخفاء حتى ظهر له حين انقشاع عمايته وانجلاء غمرته — بارزاً جهيراً شنيعاً بشعاً جهماً متنكراً يحملق اليه بعين الحقيقة المستعرة جمراً وشرراً .

كانت النتيجة استيقاظ بريطانيا من رقدتها الطويلة بلطمة قاسية من كف الحقيقة المرة الاليمة حين استوفت هذه الحقيقة نموها واستكملت نضجها ودرجت من منشئها ومرباها الى ميدان العالم ومعترك الحياة لتؤثر أثرها وتؤدي وظيفتها .

كانت النتيجة ان مصر المهضومة المستضعفة التى لم تحسب بريطانيا حسابها ولم تأخذ منها حذرها ثارت ثورتها المعروفة فى مارس ١٩١٩ وهبت فى وجه بريطانيا هبة الأسد المسلسل صدع قيوده وأغلاله ووثب يطالب المغتصب بحقوقه المهضومة المسلوبة .

عند ذلك أفاقت بريطانيا لاول مرة من غفلتها بالنسبة للمسألة المصرية وصحت من سكرتها . واقبلت على القضية المصرية تتأملها بعين الحذر والاهتمام المشوب بشئ من الخشية والرهبة . ولا جرم فلقد راعها من عجيب تطور الامة المصرية وعظيم نهضتها وطفرتها ماراع « أهل الكهف » اذ هبوا من رقادهم فهالهم ماهالهم من تغير حال الدنيا وتبدل الشؤون والمشاهد . وكان بعد ذلك ما كان من محاولة بريطانيا المرة بعد المرة تسوية القضية المصرية بوسائل شتى ـ احداها « لجنة ملنر » التى فشلت فى مهمتها بفضل اجماع المصريين قاطبة وتوحيد كلمتهم على مقاطعتها أشد مقاطعة وأقصاها حتى أوصدوا فى وجهها كل باب للمناقشة والمفاوضة بل قطعوا منها كل أمل فى ذلك . وكل هذا تأييداً للوفد المصرى الذى كان إذ ذاك وكيل الأمة المفوض ومندوبها الذى لم ترتض سواه مندوباً ووكيلا .

وهنا يجدر بنا أن ننوه بما كان من سلوك ثروت باشا فى تلك الآونة الدقيقة وكيف كان موقفه ازاء لجنة ملنر وبماذا أشار عليها : قابل ثروت باشا فى ذلك الحين اللجنة المذكورة منفرداً (كما قابلها عدلى باشا منفرداً) لا مقابلة راغب فى مفاوضتها ـ حاشا لوطنيته الشماء أن تفعل ذلك ـ ولكن مقابلة من أحب أن يبلغها جواب الشعب الصريح واعتقاده الصحيح معبراً عن جنانه . ناطقاً بلسانه . فانبأها بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن الشعب المصرى ان المصريين قاطبة قد أصروا على أن لايكون لهم مع اللجنة شأن ما وان لايدخلوا معها فى مناقشة أو مباحثة ـ ذلك لأن لهم وفداً يمثلهم أصدق تمثيل وأصحه . فهم لايرضون غيره محاميا عن القضية ولا يثقون بمفاوض سواه كائنا من كان .

هذه المأثرة الجليلة من مآثر ثروت باشا الدالة على ماينطوى عليه فؤاد الرجل الكبير من صدق الوطنية وروح التضحية أقل مايؤثر من عظيم مآثره . وجسيم مفاخره . وأدنى ما يذكر من مساعيه الجليلة فى سبيل خير البلاد وصالحها . ولكننا رأينا أن نوردها هنا تذكرة لمن نسى وتعريفاً لمن لم يعرف . فليعلم الناس ان وطنية ثروت باشا ليست وليدة اليوم ولا بنت الامس بل هي عريقه فيه متأصلة منذ ادلى به عالم الخفاء الى عالم

الوجود . ـ منذ

سله الله للخطوب من الغيـ ب كسل المهند المغمود

وكذلك كل رجل عظيم لاتكون فيه الوطنية مجرد عادة يعتادها أو خصلة يتحلى بها أو إداة يتذرع بها الى شئ من مقاصده وأغراضه ـ بل تكون فيـه غريزة غلابة وطبيعة مسيطرة على جميع مشاعره ومـداركه ونزعاته . وعواطفه وشهواته ـ تكون مزاج دمه وأساس كيانه والجوهر الذى صيغت منـه نفسه والعنصر الذى صورت منه روحه

قلنا ان بريطانيا لما أفاقت من سكرتها بالنسبة المسألة المصرية ولما قشعت يد القـدر عن بصرها ما كان ران عليه من غشاوة الغفلة والغرور وعن قلبها ما كان قد غشيه من حجب القسوة والجبروت فأصاخت الى صوت مصر المتصاعـد الى عرش الله واصغت الى نداء مصر المالئ ما بين الارض والسماء وقد ادركت ان مصر لا تقـل عن نظائرها من الشـعوب الاوربية شعوراً بعزتها وكرامتها . وعرفاناً بقدرها وقيمتها . وادلالا بسالف مجدها وعظمتها . وانها لاتنحط فى درج المدنية والحضارة عن مقام تلك الامم ولا تهبط فى سلم الرقى الادبى

والاجتماعي عن منزلة تلك الشعوب ـ لما ادركت بريطانيا كل هـذا وجبهتها الحقيقة صلبة خشنة كالصخر الصماء ـ أرادت استرضاء الامة المصرية وحاولت بلوغ ذلك بتسويةقضيتها المرة بعد المرة بوسائل شتى . منها « لجنة ملنر » التي ذكرنا ما كان من فشلها بفضل اجماع المصريين على مقاطعتها بأقصى الشدة وبتنفيذهم هذه النية بجد وجد وعزيمة وصرامة كانت ولا تزال موضع اعجاب العالم بأسره وكان من تلك الوسائل أيضاً دعوة بريطانيا الامة المصرية الى مفاوضتها أولا على لسان الوفد المصري (بصفة غير رسمية) وثانياً على لسان الوفد الرسمي (بصفة رسمية طبعاً)

ليس غرضنا ههنا ان نأتي على تاريخ تينك المفاوضتين ولا أن ندخل في تفاصيلهما ـ بل لم نذكرهما هنا بقصد تناولهما بالبحث والنقد وانما الجأنا الى التنويه بهما محاولتنا اقناع الفريق المتشائم المتطير المبالغ في اساءة الظن ببريطانيا ان انكلترة اليوم ـ التي تدعو بنفسها مصر وتمد يدها اليها للدخول معها في المفاوضة لاسترضائها وتسوية قضيتها هي خلاف انكلترة الامس العاتية المتغطرسة التي كانت لا تسمع النداء . ولا تسيخ لدعاء

فلهذا الفريق المتشائم المتطير الشديد الارتياب فى صحة مواعيد بريطانيا وفى حسن نيتها ألمصر على أن لايزال مدى الدهر يعتقد فيها مطل الوعود وختل العهود والسخرية من مطالبنا الوطنية. وأمانينا القومية. نقول ان بريطانيا اليوم بالنسبة لقضيتنا غيرها بالامس وانها تقف منا الساعة موقفاً لم تقفه من قبل. فلقد أيقظناها من رقادها ونبهناها الى تلك الحقيقة الكبرى وهي أن مصر أيضاً أمة كغيرها من الامم الغربية وانها تعرف مثلها معاني الحرية والاستقلال وتصبو الى أخذ مكانها بين دول العالم المجيدة وممالكه العظيمة وتتوق الى الصعود فى مراقي المدنية السامية لاعتلاء ذروة العز وتسنم غارب المجد والسؤدد. وانها كسائر الامم الغربية الناهضة لها قلب يجيش بأذكى جمرات الحمية. وأحمى مراجل الوطنية. ولها جانب صعب أبي ينفر بها عن مواطن الخسف والضيم. وانف حمى يأبى لها النزول على العسف والرغم. أجل لقد فتحنا عين بريطانيا بعد طول غموض الى ان مصر كمثيلاتها من أمم الغرب لاتصبر على اغتصاب حقوقها واستلاب تراث أسلافها وانها تقدر قيمة الحرية حق قدرها وتعرف انها الجوهرة الثمينة. والدرة اليتيمة. التي من أجلها تخوض غمرات الخطوب. وتغامس حومات المحن والكروب. فاما تهلك وتفنى

فى خضم الجهاد واما تظفر بتلك الدرة اليتيمة فتردها الى موضعها من اكاليل مجد البلاد وتعيدها الى نصابها من تاج حسبها المجيد. وعزها التليد. لقد علمنا بريطانيا أنه ليس للغرب أن يفخر على الشرق زاعماً أنه أوفر نصيباً منه فى مزايا النهوض والتقدم وانه أذكى منه قلباً وأنبل روحا وأصفى جوهراً وأكرم عنصراً — لقد علمنا بريطانيا أنه لاشرق ثمت ولا غرب اذ هبت الامة من سباتها تطالب بحقها المهضوم وتحاول استرداد الحرية والاستقلال — لاشرق ولا غرب اذ زخر عباب الحياة فى فؤاد مثل هذه الامة وثار موجه وجاش تياره فى أعماق روحها المضطربة ثم دفعتها رياح الوطنية العاتية الى الموت أو الحياة. أجل. فى مثل هذه الساعة الخطيرة تمحى من بين صفات الانسان الطبيعية تلك الصفة الاصطلاحية الصناعية أعنى « شرقيا » و « غربيا » وتسقط عن هيكل الانسان المقدس تلك « الماركة » المعلقة عليه تعليقا — غير المتأصلة فى جوهر الروح النقى الاصلى المستمد هو وسائر أرواح البشر من مادة الروح الكلى وينبوعه الابدي.

لقد فتحنا عين بريطانيا الى هذه الحقيقة الكبرى وهي ان الامة المصرية لم تكن فيما مضى من الزمن ميتة ولا جامدة ولا خامدة ولا نائمة — بل حية تذكو فى ضميرها جمرة الحياة

والشعور وان حجبت شعاعها حجب الفتور والتبلد منا وحجب الغفلة والغرور منهم. لقد علمنا بريطانيا هذه الحكمة البالغة وهى انه لاشيء في الحياة ميت أو هامد أو راكد. لقد ذكرناهم بما كان أوحى اليهم حكيمهم العظيم توماس كارليل في القرن السالف حيث قال فى كتابه « الثورة الفرنسية »

« لاشيء فى الكون ميت. وما نخاله ونسميه ميتاً انما هو فى الحقيقة فى حالة استحالة وتغير تعتمل قواه الكامنة وتفتعل على نظام معكوس. فالورقة الذابلة رهينة البلى والعفن لاتزال تكمن فيها القوة ـ والا فكيف كان يتأتى لها أن تتعفن ؟ ألا انما الكون بحذافيره ليس سوى مجموعة غير محدودة من القوى المختلطة الممتزجة ـ تعد بالآلاف والملايين ـ من الجاذبية الجمادية الى الفكر والشعور والارادة ـ حرية الذهن المطلقة تكتنفها وتحدق بها ضرورات الطبيعة المحتمة : وفى خليط هذه القوى الهائل العظيم لاشيء يهمد أو ينام لحظة. بل كلها لاتزال أبد الآبدين يقظة فعالة. فاما ذلك الشيء الجامد الهامد المنعزل عن دوامة هذه الحركة الابدية فذلك مالن تجدوان تراه فى أى أنحاء هذا الوجود البتة ـ مهما فتشت ونقبت فى سلسلة الكائنات من الجبل الصوان المستمر فى حركة البلى البطيء منذ بدء الخليقة ـ الى

السحابة السارية ، الى الانسان الحي ، الى أقل فعلة من أفعاله وأدنى كلمة من أقواله ـ أجل ان الكلمة اذا خرجت من فم القائل مضت كالسهم النافذ لاماحى لاثرها . وأشد منها وأقوى الفعلة الواقعة . أو لم يتغن لنا الشاعر « بندار » قديما بحكمته المأثورة «ان الآلهة أنفسها لتعجز أن تمحو أثر الفعلة المفعولة» لقد صدق « بندار » فان هذه متى فعلت بقيت على الابد الآبد مفعولة أى دائمة المفعول والاثر ـ بقيت مسترسلة فى فضاء الزمن اللانهائى ـ وسواء لبثت ظاهرة لنا بادية . أو مستترة خافية . فتبقى فعالة تزكو أبداً وتنمو عنصراً جديداً لايفنى ولا ينعدم فى غضون مزيج الكائنات اللانهائى . بل ماذا تحسب هذا المزيج اللانهائى ذاته الذى نسميه « الكون » ـ أتراه سوى فعلة أو مجموعة من الافعال أو القوى ؟ أتراه سوى مجموعة حية (يعجز الحساب عن جمعها وحصرها فى جداوله وان بدت لعينك مكتوبة على صفحة الزمن) ـ مجموعة حية لهذه الثلاثة الآتية : كل ما فعل ، وكل ما يفعل وكل ماسوف يفعل . فاعلم ـ عامت الخير ـ ان ذلك الكون الذى تراه انما هو فعلة ـ هو النتيجة والمظهر لقوة مبذولة . هو البحر العديم السواحل الذي من ينابيعه تنفجر القوة ـ والذي فى عباب حومته تجيش وتموج القوة زخارة منسقة منتظمة فسيحة

كاللانهاية عميقة كالابدية ـ جميلة مخوفة حسناء روعاء غير مدركة ولا مفهومة . ـ فهذا اللاج الزاخر الذي لم يبرح يجيش ويرغى ويزبد من وراء الافلاك ومن قبل بداية الزمن ولم يزل يموج من حولك ـ بل أنت نفسك جزء منه فى هذه النقطة من الفضاء وفى هذه الدقيقة من الزمن ـ هذا هو ما يسميه الانسان «الكون» و « الوجود »

«وكذلك الحياة البشرية وكل ما فيها لا يزال فى حركة دائمة وفى فعل وتفاعل متطوراً من حال الى حال ومن شكل الى شكل بتأثير نواميس نافذة محتومة ـ نحو غاية محدودة ونتيجة لازمة ونحن بنى البشر ـ ألا ترى كيف نظل منغمسين مغمورين فى أعماق سريرة الزمن وفى ظلمات لغزه العويص ـ ولا جرم فنحن أبناء الزمن وسلالته ـ ومن الزمن حيكت انسجتنا ودبغ اديمنا وصيغت صورنا وأشكالنا . ـ وعلينا وعلى كل ما نملك أو نبصر أو نفعل قد كتب الزمن شعاره وحكمه : لا قرار فى موضع ولا دوام على حال ـ سر الى غايتك . وامض قدماً الى قسمتك.»

أجل . لقد ألقت مصر على بريطانيا وقمياً وعملياً فى الثلاثة الاعوام الاخيرة ما كان ألقاه عليها كلاميا ونظرياً حكيمها الاعظم توماس كارليل فى الجيل السالف . لقد أعدنا عليها ذلك الدرس

العظيم بالاعمال الصارمة ذات الاثر والمفعول والنتائج الخطيرة لقد أيقظناها الى الحقيقة المرة بثلاث صدمات شديدة كبحت جماحها وكفكفت غربها وألانت عريكتها حتى هيأتها نهائياً الى التأثر بسياسة ثروت باشا فى مناوراته الاخيرة والى الاقتناع بناصع حججه ودامغ براهينه والى الانقياد نوعاما فى زمام مهارته السياسية وبراعته المنطقية . أما هذه الصدمات الثلاث التي مهدت طريق النجاح لثروت باشا فهي كما يعرف الجميع (١) قومة مصر فى وجه بريطانيا فى مارس ١٩١٩ (٢) مقاطعة لجنة ملنر (٣) قطع الوفد الرسمي الذى كان يرأسه دولة الوزير العظيم عدلى يكن باشا للمفاوضات المصرية ـ الانكليزية ، وما أعقب ذلك من التئام الصدع وائتلاف الشمل بين الاحزاب المصرية بعد طول تنابذ وتنازع ثم انضمام الصفوف وقيام الامة قومة سلمية باساليب الدفاع السلبية . ولا ينس أحد أن صاحب الفضل الاعظم فى هذه الوثبة الثالثة والصدمة الاخيرة ـ(أشد الثلاث وقعاً وأبلغها أثراً ومفعولا) وأعظم مسبب لها ـ بل أساسها ومصدرها هو ذلك الرجل الخطير والبطل الكبير صاحب الدولة عدلي يكن باشا

وما ذا عسانا نقول فى مدح ذلك البطل المجيد عدلي يكن

وأين تقع رائحات الحمد وغادياته . وسابحات الثناء وسارياته . من رفيع مقامه فى ذروة المجد الشامخ . وذؤابة الحسب الباسق الباذخ ! ما ذا عسانا نقول فى رجل حملته الامة امانتها فأحسن الحمل والاداء . وزجت به فى حومة النضال عن حقوقها فاجاد الذود وصدق البلاء . أولم يدفع عدلى بحر وجهه الكريم ماأرادت بريطانيا أن ترمي به وجه الامة المصرية من آيات الخسف والهوان . ممثلة فى ذلك المشروع الذى رفضه هذا الهمام فكفى بذلك أمته غضاضة مناقشة المشروع والنظر فيه ؟ أولم تبعث به مصر فى تلك المفاوضة نائباً عنها وممثلا فكان خير عنوان على ما لها من نبل وكرم . وأنفة وشمم . وشرف رفيع . وعز منيع ؟ أو لم تكن طلعته الوضاءة البلجاء . وغرته الوضاحة الزهراء . صفحة صدق تتألق بنور الامانة والاخلاص ويسطع فى جنباتها رونق اليقين والايمان ويترقرق ماء الحياة والعفة والنزاهة ؟ أولم يقرأ الانكليز أنفسهم في أسارير جبينه الأغر سطور الحزم . والعزم . والحلم والرفق والحكمة والحذق . والمضاء . والدهاء

ألم ينتشل عدلى باشا الشعب المصرى الكريم من وهدة الضعف والفتور التى كان القاه فيها دعاة التخاذل والتواكل وبغاة التفرقة والانقسام؟ ألم يستنقذ عدلى باشا أمته المجيدة من حضيض

التواني والاسترخاء الذى كان اهبطه فيه تجار الفشل والهزيمة ومروجو اشاعات السوء عن الوفد الرسمى الذي اثبتت مآثره وحسناته أنه كأكرم وانبل من انتدبت امة للمطالبة بحقوقها والدفاع عن قضيتها . والذى سجل له التاريخ أشرف سور الفضل واسنى آيات الوفاء فى المجد فصوله وانصع صحائفه؛ ألم يبيض عدلى باشا وجه أمته بما أحرز لها من النصر الباهر بموقف الشمم والاباء والعزة والكبرياء . الذى وقفه ازاء خصمها الالد وقرنها العنيد ؟ ألم يفهم الانكليز أن الذى يرفض مشروعهم بمنتهى الانفة والنخوة والاباء هو الامة المصرية باسرها ممثلة من شخصه الكريم فى مرآتها الحاكية مجموع نزعاتها ورغباتها واما نيها وعواطفها — وفى لسان حالها الناطق باخفى ما يجنه ضميرها وادق ما يكن فى خبايا سريرتها ؛ ألم يكن فى افهامه الانكليز هذه الحقيقة وتقريرها فى اذهانهم مارفع من مقام الامة المصرية فى عيونهم بعد ما اسقط منه ظهورها فى انكر مظاهر التفرقة والانقسام — ألم يكن فى مجيد عمله هذا ما اعاد الى قلوب الانكليز تلك الهيبة والخشية التى كانت اوجدتها ثمت الامة المصرية بفضل ما اظهرت فى بدء حركتها من روح التضامن والاتحاد والتضافر؛ أولم يشرف عدلى بموقفه العظيم وما ثرته الكبرى امته العزيزة ويعلى قدرها ويرفع

رأسها بين سائر شعوب العالم . ألم يقر عينها ويشرح صدرها ؟ ألم يبعث فيها نشوة العزة وحميا الزهو ويرنح اعطافها بهزة التيه والخيلاء ؟ ألم يزودها فى تلك الساعة العصيبة والازمة الكاربة والمحنة النكراء . — فى اظلم ادوار القضية واوعر مراحلها حين خبت كواكب الامل ودجت غياهب التشاؤم — فى تلك الآونة الصعبة التى بدأنا بذكرها هذا الكتاب وسميناها عقدة العقد وعقبة العقبات — نقول فى تلك الكربة الكاربة والشدة الحازبة — ألم يزود عدلى باشا امته من اسباب التأييد والتشجيع مما نفثه فيها من روح الحمية والنخوة والعزة والاباء — باجمل السلوى وأحسن العزاء عما رمتها به الاقدار من كوارث الظلم والاستبداد ؟ — وباقوى الوسائل لاستنهاض همتها واستثارة عزمتها . لاستئناف السعى فى سبيل الجهاد ومواصلة السير الى غاية المأمول والمراد !

وكذلك فى سبيل الحق والحرية نفر عدلى يكن تلك النفرة الشماء وصاح تلك الصيحة التى صدم بهولها مسامع بريطانيا صدمة ايقظتها ثالث مرة من غفلتها وفتحت عينها الى تلك الحقيقة الكبرى وهي ان مصر — بالرغم مما اصابها مؤقتا من تخاذل ابنائها وتنابذهم — لا تزال مصرة على نيل حقوقها المسلوبة مصممة جادة

معتزمة غير وانية ولا فاترة ـ وانها كغيرها من الشعوب الغربية مندفعة بحكم السنن الكونية والنظم الطبيعية فى سبيل النهوض والتقدم لاخذ المكان المقدر لها ازليا في مراقي الحياة ؟

كذلك فى سبيل الحق والحرية صاح عدلى يكن صيحته التى استرعى بها مسامع أمته وأيقظها من غمرة التشاحن والتطاحن الى تلك الحقيقة الكبرى : وهى ان كل نزاع بين أبناء الامة هو غرم عليها مغنم للخصم الذى يراه خير فرصة لاضعافها ونهك قواها بتوسيع الخرق بينها وهدم كيان وحدتها وتمزيق صفوفها ورد سهامها الموجهة الى شخصه فى نحرها هى . وتحويل مجهوداتها المبذولة ضده فى مصلحتها ضد نفسها بالضرر الجسيم عليها . أجل لقد نبه عدلى بصيحته الشديدة أمته العزيزة الى كل هذا وأكثر . فجمع بذلك كلمتها وألف شملها ورأب صدعها وشد أزرها . وراش لنهضتها جناحا من همته الحثيثة بعد ماهاض النزاع الحزبي جناحها . وخفزها بريح عزمته الشديدة بعد ما أركد الشقاق الداخلى رياحها . وآنسها بقوة روحه العظيمة في وحشة تلك الترهات السياسية الختالة بسراب الغرور والخديعة . وعزاها عن خيبة آمالها فى وفاء بريطانيا وحسن نيتها .

كل هذا صنعه لامته عدلى يكن ذلك البطل القوي الذي

لن يجد التاريخ بداً من أن يسجل له هذا الفضل على بلاده ـ ولا من وضعه فى مصاف الابطال منقذي شعوبهم ومحرري أوطانهم ـ أمثال شمشون الا انهم تغلبوا على دليلة « الختل والخديعة » فلم تستطع قهرهم واذلالهم .

كل هـذا صنعه عدلى لامته . ولا عجب فانه عظيم وبقوة الرجل العظيم وحوله تدعم أرض الله وتوطد أركانها . وبهمة الرجل العظيم ونجدته يثل عرش الظلم ويشاد صرح العـدالة وينجاب غيهب الباطل ويسطع نور الحق . وبمكارم خيمـه ومحامد شيمه ترق حاشية الزمان ويخضر عوده ويورق . ويخضل روضه بندى الخير ويترقرق . ويشرق صحوه بسنا الصفاء ويتألق . حياك الله عدلى يكن ! لقد طاب في كنفك العيش واحلولى . وافتر عنك مبسم الدهر وتلالا . وقد حسنت بك الدنيا وملحت . وتأرجت بعبير ذكرك ونفحت . وقد شربنا بك ماء الحياة كوثرا . ونشقنا نسيمها عنبرا . وانتجعنا غيثها ثجاجا . وتوسدنا جنابها أنيق الروض مبهاجا . فجزاك الله أحسن الجزاء عن أربعة عشر مليونا من عباده رفعت بالعز هامهم . وثبت في مدحضة المعترك العنيف أقدامهم . وطهرت صحيفة أعراضهم من كل شائبة ووصمة . ونقيت أديم أحسابهم من كل ريبة وتهمة . وبعد فان مأثرتك هذه الجلى التي

حاولنا عبثا توفيتها حقها من الحمد والشكر ليست لعمرك أخرى مآثرك . وان تكون بحال ما خاتمة مساعيك ومفاخرك . يأبى لك ذلك فرط حبك لبلادك وعطفك وحنانك على أبنائها الذين هم أبناؤك البررة وصدق وطنيتك العميقة . وحميتك العريقة . وشدة اخلاصك لوطنك وتفانيك فى خدمته والتذاذك بتضحية الاعز والانفس في سبيله . وارتياحك الى ركوب الصعاب . واقتحام العقاب . واعتساف الاوعار . ومغامسة الاهوال والاخطار من أجل الدفاع عنه وصيانة حوزته . وحماية بيضته . نقول لم تنته بعد مساعيك في صالح البلاد ولم تترك المسرح لغير رجعة معاذ الله أن يكون ذلك ومعاذ همتك البعيدة . وشيمتك المجيدة . وحاشا لعزتك الشماء . وحميتك الذكية الروعاء . أن ترى على سكونك هذا إلا خناق الجوانح على وطنك راجف الاحشاء . فما كانت روحك الكبيرة السامية . ونفسك الجياشة المتوقدة لتسكن في هذه الآونة الا تأهبا للحركة وتحفزاً للوثوب . وانكماشاً للكرة الى الميدان متى أهابت بك النوب والخطوب . بل أراك فى عزلتك الراهنة لا تزال ينبوع أمل وقوة لمواطنيك تنفث فيهم روح اليقين والثقة والرجاء . كانك زورق النجاة لا يبرح باعثاً برد الطمأنينة فى ركب السفينة مهما طغى الموج من حولهم

واصطخبت الانواء .

هذه كلمة حق . ونفثة صدق . ارفعها اليك ياصاحب الدولة في عزلتك السياسية أعبر بها عما يضمره لك ويعلنه من آيات الحب والولاء أهل وطنك أجمعين الذين لم يبق فيهم ـ بعد موقفك المشهور ومقام دفاعك المأثور . في قضيتهم المقدسة ـ غامط لحقك العظيم . منكر لفضلك العميم . ألا جاحد عريق في الجحود . يحمل مكان قلبه أصم جلمود . سقيم الطبع مريض الذوق ينكر من علة ضوء الصباح . ومن آفة حلاوة العذب القراح . وما أحسب أن مثل هذا المخلوق يوجد بين مجموع الشعب حماه الله من أمثاله . وصان أديمه النقي من وصمة خلاله . وما أراني بعد ياصاحب الدولة قادراً على الوفاء لك بواجب الشكر . وليس بقي لك بهذا إلا صلوات المليك في السور .

نرجع الي ماكنا فيه من أمر انقسام الامة في الرأى والمذهب الي قسمين أزاء تصريح انكلترا العظيم الشأن بالغاء الحماية والاعتراف لمصر باستقلالها التام وأن تكون ذات سيادة في الداخل وفي الخارج وذات برلمان ووزارة مسئولة أمام البرلمان . وحصر الخلاف بين المملكتين فى النقط الأربع المعروفة واعطاء الحق لمصر فى بدئها مفاوضات مستقبلة تدخل فيها مع انكلترا مزودة

بسلاح الاستقلال مطلقة من قيد الحماية لكى تسوي مع بريطانيا فى تلك المفاوضات المقبلة قضية بلادها التسوية التامة ـ وكل هذه المغانم والارباح والمزايا نالتها مصر دون أن تدفع فيها ثمنا من تقييد أو تعهد أيا كان .

نقول أزاء هذا الحادث الجليل انقسمت الامة من حيث الرأى والمذهب الى فريقين ـ فريق التيمن والتفاؤل وفريق التطير والتشاؤم وقد ذكرنا أن هذا الاخير قد بنى تشاؤمه على مازعمه من سوء عقيدته فى بريطانيا وجرأتها على خفر الذمم ونقض العهود واخلاف العهود وقد حاولنا فى الصفحات السابقة أن نثبت لهذا الفريق أن انكلترة اليوم هي غير انكلترة الأمس وأن تعدد الثورات والاضطرابات أثناء السنوات الاخيرة فى ولاياتها ومستعمراتها قد اثبت لها بأنصع البراهين والأدلة . ان الامم والشعوب ليست أشباحا ولا تماثيل تتصرف فيها كيفما شاءت وشاء لها روح الاستبداد والمطامع الاستعمارية ولكنها نفوس وأرواح كاخواتها سكنات البلدان الغربية والممالك الاوربية ـ مستمدة مثلها من روح الله وينبوع القوة الأزلية ـ وانها بذور الله قد غرسها فى أرضه منطوية على جوهر الحياة وعناصر النمو والتفرع والسمو فى جو الله الى حيث تنسم فى

الفضاء الرحب أنفاس الله اعنى نسمات الحرية والاستقلال وانها — كسائر البذور والاغراس — لا بد أن تزكو وتكبر وتبلغ غاية نضجها وتسمو الى درجة الارتفاع المقدرة لها ازلياً بسنة الطبيعة السارية وحكمها النافذ وبحكم ماانطوت عليه من عوامل الانبات والنمو والارتفاع وعلى حسب نصيبها من تلك العوامل — اجل لا بد لها باعتبارها بذوراً غرست فى أرض الله أن تنمو وتسموا أو تذبل وتعفن لتستأصل أو تنشر من اجداثها وتعود الى حياة ثانية وسيرة جديدة — على حسب مايكمن فيها من عناصر القوة أو الضعف ومن عوامل الرقي أو الانحطاط — هذا أو ذاك لابد أن تفعله تلك البذور والاغراس (أو تلك الامم والشعوب) بحكم النواميس الزمنية والقوانين الكونية سواء أرادت بريطانيا أو لم ترد . وسواء سرها ذلك أو ساءها — هذه ارادة الطبيعة التى تأبى الا تنفيذ ارادتها احبت بريطانيا أو كرهت ورضيت بريطانيا أو رفضت . كأنما بريطانيا — باساطيلها ومدافعها وورشها ومعاملها وولاياتها ومستعمراتها — شيء تافه حقير فى نظر الطبيعة أو كأنها ليست موجودة ولم توجد ولم تكن

حاولنا فى الصفحات السابقة أن نثبت لفريق التطير والتشاؤم المعدوم الثقة فى بريطانيا المملوء رعباً ووجلا من ألاعيبها

وخدعها ـ ان بريطانيا قد آمنت بحقيقة تطور الامم الشرقية وصدق نيتها على المضاء فى سبيل الجهاد لاحراز حقوقها المسلوبة مهما كلفها ذلك ـ حاولنا أن نثبت لهذ الفريق ان الحرب الكبرى قد خلقت في العالم جواً اجتماعياً جديداً مملوءاً بعوامل جديدة كان من شأنها أن أبرزت فى سطور من النور والنار تلك المبادىء التى حسبها العالم جديدة وانها لقديمة قدم الدهر والطبيعة ذاتها والتى كان قد حجب سطورها كثيراً أو قليلا ما كان قد ركبها من غبار الفتور والتوانى وحب الدعة والراحة والتراخي ـ أعنى تلك المبادىء التى راجت وسادت بعد الهدنة كالقول بتحرير الشعوب وتفويض الامم فى حكم ذاتها وتقرير مصيرها

حاولنا أن نثبت لهذا الفريق ان الحرب الكبرى خلقت هذا الجو الجديد المملوء بهذه المبادىء الجديدة القديمة .. وأن هذا الجو وهذه المبادىء قد نبهت من همم الامم والشعوب المظلومة وشحذت من عزماتها واستحثت ما يكمن فيها من حركة التطور الطبيعي والنمو الغريزى . فكان ما كان مما شاهده العالم وأربك بريطانيا وأزعج خاطرها من تلك الثورات والاضطرابات فى ولاياتها ومستعمراتها وتوابعها المختلفة

حاولنا أن نثبت لهـذا الفريق انا ـ كبعض تلك الشعوب التى هبت فى وجه بريطانيا تطالبها برد حقوقها المسلوبة ـ قد صدمنا بريطانيا ثلاث صدمات عنيفة : « حركة عام ١٩١٩ » و « مقاطعة لجنـة ملنر » و « قطع الوفد الرسمي المفاوضات » ايقظنا بها بريطانيا من غفلتها أو تغافلها وزعزعنا بها أساس طمأنينتها وهدوئها وارجفنا بها قلبهـا وبدلناها بالامن حذراً وبالاستهانة استعظاماً وبالوقار خفة وبالاطمئنان وجلا

وبذلك استطعنا أن نثبت لهذا الفريق ان انكلترة اليوم ليست انكلترة الامس . وانه باعتبارها أمة تفهم وتعقل وتعرف الخير من الشر والتمر من الجمر وتشارك سائر خلق الله حتى الاطفال والحيوانات فى الغريزة المشترك فيها كل الخلائق والتي عليها مدار الحياة ونظام الكون والتى لولاها ما حملت قدم جسما ولا احتوى جسم روحاً ـ أعنى غريزة النفور من الأذى والهروب منه الى الخير ـ نقول انه باعتبار بريطانيا هكذا وبالنظر اليها فى هـذه الصورة الطبيعية الحقيقيـة بالعين المجردة عن الاهواء المتتبعة مهابط الحق ومواقع آثاره أين كان وكيفما كان ـ لا يسعنا الا أن نراها قد غيرت من سياستها وبدلت من خطتها ـ وانها قد وقفت اليوم لنا موقفاً خـلاف موقفها بالامس (لا يمكن

أن يكون أسوأ من الموقف السالف بل أحسن بلا نزاع وأفضل) ـ ولما كنا نحن المصريين الذين استطعنا بقوتنا وحكمتنا أن نغير موقف بريطانيا معنا ونحوله عن حالة الى أحسن منها ـ ولو قليلا ـ فليس يستحيل علينا ولا يتعذر ولا يبعد بفضل اتحادنا وتضافرنا على الجهاد المستمر الدائب أن نزحزحها شيئاً فشيئاً الى مواقف أخرى أحسن لنا فأحسن ـ حتى نقفها أخيراً عند حدها ونقيمها فى مشعب الحق ومقطع السداد والصواب ومفصل الانصاف والعدالة. وحينئذ نبلغ المراد وننال الغاية

على أننا لو سلمنا جدلا بوجوب اساءة النية ببريطانيا فأي ضرر علينا فى قبول « اعلان الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال التام » ـ فى قبول منحة الله لنا ـ بل منحة كدنا واجتهادنا وثمرة ما بذرناه فى مزرعة الجهاد من بذور هي عرق جباهنا ودمع دمائنا وافلاذ اكبادنا ـ أي ضرر علينا فى قبول هذه الهبة الالهية والانتفاع بها جهد طاقتنا وبقدر ما فيها من خير وبركة ـ أي ضرر علينا فى اتخاذها عماداً لنا ودرعاً وسلاحاً نضيفه الى ما لدينا من الاسلحة ليكون ذلك أقوى لنا على مناهضة الخصم ومغالبته

أليس الأجدر بنا والأضمن لخيرنا وفلاحنا أن ننظر الى هذا الاستقلال فى أول ادواره كبا كورة أعمالنا المجيدة وبادرة مجهوداتنا الشديدة . وانه مولود نهضتنا العظيمة الذى ما برح يتكون فى احشائها أزمان الحمل العسيرة ـ وانه نتاج وطنيتنا المقدسة التى جعلت تتمخض عنه تمخض البحر عن دره ومرجانه والكنز عن تبره وعقيانه . حتى اذا القى به الحظ فى حجورنا ذخراً نفيساً وثمرة مباركة كان من اوجب الواجب علينا أن نبتهل لله شكراً ونرحب به ونهلل تحية لطلعته واستبشاراً بغرته قائلين مع الشاعر

يمن الله طلعة المولود وحبا أهله بطول السعود

ما لنا لا نطرب ونفرح بهذا المولود الجديد . ما لنا لا نحمد الله عليه ونحوطه بالنفوس والنفائس.ثم نعمل على تربيته وانمائه . وترقيته واعلائه . حتى يبلغ أشده .ويستكمل قوته وأيده

هذا الاستقلال الوليد انما هو جذوة مقدسة اقتدحتها يد الشعب بزناد الكد والجهاد . واستثارتها معاول الكفاح والجلاد من صخرة الجبروت والاستبداد . فما لنا لا نحوط هذه الجذوة المقدسة وما لنا لا نشبها ونذكيها بأنفاس هممنا الصادقة ورياح عزماتنا الثاقبة حتى يتلهب سناها ويسطع شعاعها فيخرج

البلاد واهلها من ظلمة الرق الى ضياء الحرية

ان استقلالنا فى هذا الدور الاول ليس سوى هلال الحرية فى اولى منازله . فمالنا لاننتظر به النمو والزيادة ومالنا لانرقب له الكمال والتمام . وما لنا لانقول مع الشاعر

مثل الهلال بدا فلم يبرح به
صوغ الليالى فيه حتى اقمرا

ومع الآخر

ان الهلال اذا رأيت نموه
ايقنت ان سيكون بدراً كاملا

وهبونا لم ندرك الغاية . افلم نضع اقدامنا على فاتحة السبيل المؤدية بالمثابرة والمصابرة الى الغاية ؟ألم نملك اليوم فوهة المسلك الواضح المستضىء بعد طول تخبط فى الاوعار والدياجى ؟ ألم يعثر الغريق بين طفوه فى غمرة الكرب ورسوبه على لوح النجاة — ولو ضعيفا — وعلى عود السلامة — ولو ضئيلا؟أولم تخرج السفينة من منطقة الخوف والخطر وان لم يزل بينها و بين الساحل عباب وغمار يحتاج خوضها واقتحامها الى احتمال المشاق والمتاعب؟

يقول الفريق المتشائم ان بريطانيا تضمر لنا فى سريرتها خفايا . وتكن لنا دفائن وخبايا. فهب ذلك من الجائز فلماذا

لا ننتفع بالثمرة الواقعة ثم نحذر المضرة المتوقعة ؟ وهل يجوز فى عقل ان ترفض الوردة من يد مهديها مخافة ان يهديك الشوكة يوم ما ؟ او ترد الكاس الروية الى كف مديرها وساقيها خشية ان يدير عليك فيما بعد حنظلا وعلقما ؟ اليس قياسا على هذا يحق لنا ان نرفض سواكب الغيث من السماء لما يتحمل من ارسالها الصواعق علينا يوما ما ؟ وان نغمض ابصارنا فى وجه الافق رافضين اشعة الشمس الضاحكة لما يتوقع يوماما من عبوسها لنا بظلمة الضباب والغيم ؟ فماذا تكون حال ابناء البشر اذا ساد فى الأرض هذا المذهب وتغلبت هذه الشريعة ؟ وأى حياة يحيون وكيف تدار دواليب الاعمال . وكيف يتقدم ركب الانسانية في سبل الرقي الي امد الكمال ؟

هبونا لم ندرك الغاية فأى الحالتين اشرف وامجد ؟ وأى المرقفين اقوى وامنع وأى المركزين ادنى من امل واكفل بنجاح دخولنا المفاوضات الآتية احرارا مستقلين أم دخولنا اياها تحت نير الحكم الاجنبي وفى قيود الحماية ؟ ـ أي الامرين افضل ؟ ذهابنا للتفاوض مطلقين من هذه الاغلال مزودين بسلاح الاستقلال (ولو مثلوما مفلولا) أم ذهابنا عزلا من السلاح كشفاً من الدروع مكتوفين باصفاد الحماية ؟ ثم ماذا غرمنا بعدوماذا خسرناه

وماذا اضعنا بقبولنا ما نزلت عنه انكلترا وما صرحت به من هذا الأماء وهذا الاعتراف ؟ هل بذلنا في سبيل ذلك شيئاً من حقوقنا أو تخلينا عن شيء من مطالبنا ؟ هل اعطينا بريطانيا في مقابل هذا العربون الجسيم ثمناً ؟ هل سمحنا لها ان تأخذ علينا ادنى تعهد أو تقييد ؟ كلنا يعرف الجواب على ذلك ـ كلا !

وبعد فهل نسيتم أو غاب عنكم ان ما تحقرونه اليوم بل تنقمون عليه من ذلك التصريح المتضمن الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال قد كان يوماما اقصى ما تطمح اليه انظاركم يوم كان الوفد المصري لا يتمنى على بريطانيا ـ عند بدء دخوله المفاوضات معها ـ امنية اجل واعظم من مجرد اعطائها اياه وعدا بان يكون الغاء الحماية ضمن ما تعترف به لمصر اثناء المفاوضة . في ذلك اليوم (وليس العهد ببعيد) لم يكن الوفد المصري ولا أي مصري كائنا من كان يحلم أن في استطاعة الاقدار ان تستخلص من بريطانيا العظمى غنيمة « الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال » مبدئيا وقبل التفاوض كعربون بلا ثمن وكأداة تمهيد وتوطئة للمفاوضات المقبلة .

انسيتم يوم كنا نشرئب باعناقنا التي قطعها الظمأ ونتطاول بابصارنا التي ارمدها السهاد اذ نحن في مضال الحيرة وقفار اليأس

— الى ذلك المنهل العذب ـ منهل الحرية ـ الذى كان ممنوعا منا باسوار الحماية المسلحة واسلاكها الشائكة ـ وقد اذبل العطش اسلات السنتنا ـ يوم كنا نتوق ونتلهف على رشفة من زلال ذاك المنهل الشبم ـ أم نسيتم ونحن فى دياجير القنوط كيف كنا نتشوف الى شعاع من ذلك السراج المنير ـ سراج الحرية الذى كان يطمس سناه ضباب الحماية وادجانها المتراكمة الكثيفة ـ فها نحن اولاء نسير فى وضح السراج المنير . وننقع الغليل بماء الحرية النمير . فما معنى هذا التسخط والتذمر . وماذا تريدون بهذا التأفف والتضجر ؟ وما هذا القال والقيل ؟ والصراخ والعويل ؟ والتغرير بابناء البلاد والتضليل ؟

نخبرونا ـ بعيشكم ـ ماذا كنتم فاعلين لو أن هذا التصريح العظيم « بالغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال » جاءكم فى ظروف أخري وعلى أيدي آخرين (يوم كنتم لا تحدثون به أنفسكم ولا في الاحلام ـ يوم كنتم تعدون ماهو دونه بكثير منة عظمي ونعمة جلى ـ يوم كانت أقصى أمانيكم أن يكون هذا الالغاء وعداً موعوداً لا ثمرة حاصلة) ـ ماذا كنتم فاعلين اذ ذاك ؟ أهناك أدني شك فى أنكم كنتم تملأون الارض والسماء تكبيراً وتهليلا ونشيداً وترتيلا . وتحرقون البخور فى المجامر اقامة لشعائر

التقديس الذين ساقوا اليكم المغنم المعظم . وتأدية لمناسك العبادة للآلهة الذين غمروكم بالفيض العميم . أما كنتم تقيمون الصلوات في المحراب . لاولئك الارباب . أما كنتم تهزون أعواد المنابر اعلاناً لمفاخر اولئك الاكابر . اما كنتم تنحرون النحائر وتدقون البشائر . وتوقدون الشموع . وتزينون الربوع . أما كنتم تقطعون الحناجر وتمزقون الرئات بالهتهاف حتى تصبحون خرساً . لاتطيقون الكلام الا همساً ونبساً . أما كنتم تمثلون فى عرصات القاهرة رواية البعث والنشور اذ تحشرون قبائل وشعوباً فى صعيد واحد متزاحمين متدافعين متكدسين اكداساً مشتبكة متلاحمة ـ جبلا هائلا من الانسانية الهائجة المائجة وصرحا ممردا من الجماجم ليس فيه أدنى ثلمة ولا فرجة

فلو حصبتكم بالسماء سحابة

لظل عليكم حصبها يتدحرج

ثم تخلعون كل عذار وتندفعون فى كل تيار مطلقى طوفان الغرائز الحيوانية من محابس التؤدة والرزانة . مرسلى سيول النزعات الشهوانية من قيود الورع والرصانة . سامحين لعنصر التراب والحمأ المسنون فيكم أن يتغلب على عنصر الروح الآلهى والنور السماوى — كأنكم كتلة جسيمة من الفوضي يظل من

يبصر فرط اضطرابها وتشوشها واختلاطها لايكاد يصدق أن في استطاعة القدرة التي خلقت نظام العالم العجيب من عالم السديم المشوش أن ترد هذا البركان المتطاير الحمم والشظايا وهذه الزوبعة المستطيرة الشرر والصواعق وهذا الزلزال البادي في أشنع صور التخريب الذهني والتدمير الروحاني — الى سيرته الاولى من الحياة الهادئة المنظمة وصورته المعهودة من مظاهر الانسانية المهذبة .

وبالاختصار اما كنتم تجددون عهد ذلك اليوم المعروف ٥ ابريل ١٩٢١ الذي يسجل على ترمومتر الحياة الاجتماعية أعلى درجة لحيوانية الانسان وأخفض درجة لروحانيته ويقدم أصدق مثل تاريخي على تأصل طباع آباء البشر ساكني الكهوف وقانصي الوحش في نفوس ابنائهم مهما قدم العهد وتطاول الأمد .

اجل لقد كنتم تفعلون ذلك وفوق ذلك لو أن غنيمة هذا التصريح بالغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال التام جاتكم في ظروف أخرى وعلى أيدي آخرين . فما بالكم اليوم لا تصنعون عشر معشار ما كنتم صانعيه اذ ذاك ؟ بل ما بالكم لا تكتفون بمجرد اظهار الارتياح والانشراح . بل بمجرد السكينة والثبات . بل بلزوم سنة الصبر الجميل حتى تروا عواقب هذه البوادر ونتائج هذه

البشائر . فان لم يكن هذا ولا ذاك فامامكم مجال المعارضة الشريفة في صفاء جو الهدوء والحلم اللذين تقتضيهما سنن الجدال وقوانين المناقشة ـ رابئين بنفوسكم عن مواقف التغرير بالشعب والتضليل وعن خبث مواطن الارجاف والتهويل وعن سفال مساف التشنيع بالوزارة الدستورية الساعية الى خير الامة الممثلة لأمانيها الباذلة اقصى الجهد في تنفيذ رغاباتها ـ وعن خسة مها بط الانتقاص منها والنيل من كرامتها وتوجيه كاذب التهم نحوها وترويج سوء الظن بها مما يفسد اذهان الشعب الذي تدعون انكم قادته وابطاله الذائدون عن حياضه ويسمم عقيدته ويضل رأيه ويطمس على نور بصيرته . ما بالكم تحاولون باخماد جذوات الأمل في النفوس وابدالها ظلمة اليأس تثبيط الهمم وفل العزائم واقعاد الامة عن مواصلة السعي في سبيل الجهاد أو تحويل ذلك السعي في شر السبل واشدها وبالا ـ اعني سبيل المشاحنات الحزبية والمطاحنات الفرقية وتقاطع الارحام والصلات . وتدابر الخلان والثقات ـ ذلك السبيل الذى طالما اغريتم الناس بسلوكه فلم تجدوه يؤدي بقضية البلاد الا الى شر غايات الفشل واحرج مضايق الكرب وأوخم مراتع الخيبة كما قد شاهدتم أن نذير الخطر كلما كان يصيح بالشعب محذراً الاسترسال في ذلك

السبيل سبيل التنابذ الممقوت والامعان في شعابه داعياً الى الرجعة لسبيل التضامن والاتحاد فيطيعه الشعب جامعاً كلمته حاشداً صفوفه ـ ادبر الشر والطلاح . واقبل الخير والفلاح . وابرمت روح الاتحاد من أسباب القضية ما كانت آفة التفرقة قد نكثت ونقضت . ووثقت عزة التضافر من أركانها ما كانت ذلة التخاذل قد هدمت وقوضت . فأشرق نجمها بعد افول . وأورق عودها بعد ذبول . نقول لقد جربتم هذا وذاك ولقيتم من الخطتين النعمة والمصاب . وذقتم من الكاسين الشهد والصاب . فهل انتفعتم بتجارب الزمن . وحنكتكم تقلبات الدهر بين نعم ومحن . وهل فقهتكم الصروف . وفطنتكم تلونات الظروف . وهل سبكتكم نيران الكوارث في بوتقة التمحيص والتهذيب . وقومتكم أيدي الحوادث بثقاف الاصلاح والتأديب . أم وجدتكم هذه القوى والعوامل بمعزل عن ندائها وبمنقطع عن صوت دعائها . فكانت انما تحاول في هدايتكم تحريك الجبال . وتسكين الزلزال . . وضبط هوجاء الرياح . . واسكات العارض السحاح . وكأن موقع وحيها وتعاليمها من قلوبكم موقع الرقم على صفحة الماء . والنقش في أديم الهواء . وكذلك لم تجد هذه المؤدبات الالهية . والمهذبات الطبيعية . من بينكم الا

كل نافر شرود

جامع فى العنان لا يسمع الزجـ ـر ولا يرعوى الى الرواض

فلأى قوة فى الكون يرضخ من أبى الرضوخ لاستاذ التجربة ولأى ارشاد ينصت من لم يصغ الى وحى العواقب . وأى درس يحفظ من أهمل درس الاسباب والنتائج . ولأى صوت يأذن من أغلق سمعه دون صوت الطبيعة . وبأى مصباح يسترشد من أغمض طرفه عن سراج الحق . وبأى شئ فى هذا الوجود يصدق ويؤمن من خادع نفسه وغالط ذهنه فى الواقع المحسوس والحقائق الملموسة ؟

وأى انكار للحاصل والواقع أشد من انكاره لتلك الحقيقة الكبرى التى أصبح يبصرها الضرير ويسمع وقع آثاها الاصم ويكاد يتحرك لهـا رفات الاموات فى قبورها ـ تلك الحقيقة التى بتنا نتقلب فى مضاجع راحتها وبين اعطاف نعمائها ونجنى باكورة ثمارها يانعة جنية : من تحكم فى امورنا وتصرف فى ادارة شؤوننا وقبض على ازمـة السلطة فى حكومة بلادنا وتأسيس برلمان كأرقى برلمانات العالم دستورية واحسنها نظاما ووزارة مسؤولة أمام ذلك البرلمان قد قام رئيسها الجليل ثروت باشا يبرهن للناس على حسن نيتها ويقدم لهم أمثلة صادقة من مبدأ مسؤوليتها عما

قد جعل يلقيه على الملأ مرة بعد أخرى من خطبه الرائعة المملوءة بروح الديموقراطية مما لم تعهده البلاد قبل اليوم من أى وزارة قامت بين ربوعها أو رئيس تقلد زمام الحكم فيها . ثم بتنفيذ نصوص هذه الخطب بالاعمال الجليلة والنتائج العملية .

أى انكار للواقع الملموس أشد من انكاركم الغاء الحماية بعد ما أعلنت ذلك بريطانيا وصادق عليه برلمانها وكساه الصورة الشرعية والصيغة الرسمية وبعد ما أمنت عليه دول العالم وهللت له وصاحت وتواردت به التهانىء تطير بأجنحة البريد وتهفو على ساريات البرق . بل كادت تشترك فى اعلانه الطبيعة ذاتها فتتهامس بنجواه الرياح . ويفضى ببشراه المساء للصباح . فتقولون بعد كل هذا انه ماحدث حادث ولا تغيرت حال . وانه

تخرص وأحاديث ملفقة ليست بنبع اذ عدت ولا غرب

تقولون ان هي الا اسماء سميتموها . ورنين الفاظ زينتموها كلام فى كلام . وأضغاث أحلام . ورماد يذر فى الاجفان . وتخدير أعصاب وأبدان . فبحقكم هل كنتم قائلين ذلك لو سيق اليكم هذا الربح العظيم على أيدى آخرين أم أنتم لا تعترفون بالفضل ومقداره الا اذا انحدر اليكم من طريق مخصوص محبب اليكم ولا تتحدثون بالنعمة الا اذا جاءتكم فى غلاف معين مبصومة

بماركة معينة لفابريقة معينة لاتعرفون غيرها ولا تعترفون بسواها ولا تؤمنون الا بها ولا تأخذون الا مصنوعاتها ـ ثم المقاطعة التامة والويل والعفاء على البضاعة بعينها اذا صدرت عن فابريقة أخرى تحمل ماركة أخرى ـ فأنتم انما تعنون بالواسطة لا بالنتيجة وكل مايهمكم هو الزى لا الكائن الحى المشتمل به واوعاء لا المتاع المنطوى تحته ومن كان هذا شأنه متعلقاً بالاعراض دون الجواهر. منصرفاً عن مادة الحقائق الى هباء المظاهر . كان يعيش فى عالم من الخيالات والاحلام . ويتقلب فى جو من الاكاذيب والاوهام . وان تشأ فقل عنه ولا حرج انه لايحي ولا يعيش ولا يكون ولم يكن.

ليت شعرى ماذا نقول للذين يستقبلون نعمة الله بالسخط والنقمة ويتلقون فضله العظيم بالاستياء والاسف . ليت شعرى ماذا نقول للذين يلقون وجوه اليمن الضاحكة بوجوه مربدة عابسة . وينفرون من عرائس النعم المزفوفة عليهم باعطاف شامسة . أفلا نقول ان الطبائع البشرية قد انعكست فيهم فدواعى السرور تشجوهم . وبشائر الصفو تشجيهم . وانبساط الامل يورثهم انقباض الياس . وأسباب الطمأنينة تثير فيهم هواجس الوسواس . فأى فائدة ترجى من أمثال هؤلاء لصالح العالم عامة ولمنفعة أوطانهم خاصة . أى فائدة ترجى منكم يامن هذا

دأبهم ودبدنهم سوى انكم تعملون على اماتة الامل ونقض العزائم ونكث الهمم . تكدرون الصفو . وتعكرون الصحو . وتجعدون السلس . وتخشنون الاملس . وتوعرون السهل . وتعقدون المنحل . وتثيرون على رونق الاماني المشرقة غبار الضجر والتبرم . وتعقدون دون كواكب الرجاء غيوم التطير والتشاؤم . لا تنفكون تقيمون مناحة جديدة . على مصائب وهمية . ثم تجعلون تشاؤمكم هذا دليلا قاطعاً على صدق وطنيتكم . وتسمون انكاركم للواقع المحسوس واقامتكم العقبات في سبيل تقدم البلاد الى غايتها المنشودة عنوانا على فرط اخلاصكم وشدة تفانيكم في خدمة القضية

فخبروني بربكم أهو الاخلاص والتفاني الباعث الحقيقي الذي يدفعكم الى اتيان ما تأتون من المعارضة في الواضح المستنير . والمكابرة في انكار ما يراه الاكمه والبصير . وهل حقاً تعتقدون في صميم افئدتكم انكم أنتم وحدكم المخلصون وان فريق التيمن والاستبشار هم المنافقون ؟ وهل حقا في صدوركم وحدها يتأجج لهيب الوطنية وعلى قلوبكم دون غيرها يتنزل وحي الوطنية وهل الوطنية لم تضرب في غير ضمائركم قبابها . ولم تتخذ في سوى جوانحكم منسكها ومحرابها . ولم تقم خلافكم مداره يدافعون عن قضيتها . ولم تجند غيركم عسكراً يذودون عن حوزتها . وهل هي لم تتعشق سواكم

ولم يهم قلبها الابكم . وهل كل من عداكم خونة غدرة وفجرة كفرة
وهل انساكم حب الوطنية اغراضكم الذاتية ومآربكم الشخصية واذهلكم عن طلب الجاه والمنصب والرياسة والهاكم عن الولوع بمظاهر الابهة والفخامة والزعامة وهل صرفكم الشغف بالوطنية عن الشغف بهتاف الناس لكم فى كل شبر من الأرض والمناداة بأحيائكم وبتخليد ذواتكم السامية العلية . فى هذه الدنيا الفانية الدنية وباسقاط اضدادكم وبموتهم وتكفينهم ودفنهم

واذا كان ذلك كذلك فهل من حق الوطنية عليكم ان تخذلوها فى ادق ساعاتها واشد ازماتها بمحاولتكم صدع الشمل وهدم البناء وتمزيق الوحدة وتفريق الكلمة بطمس معالم الحق الابلج . وترويج الباطل الاجلج . واقعاد الهمم والعزائم عن مواصلة السعي الى الغاية المقصودة وصرف الامة عن الاخذ بالعروة الوثقى وانتهاج الخطة المثلى والانتفاع بما ساقه اليها الحظ من الارباح والمغانم واستثمار ماتنازل عنه الخصم لمصلحتها من الفوائد والمزايا وعن مضاعفة حولها وقوتها باستخدام ذلك السلاح القوى الذى استفادته أخيراً بفضل مساعي الوزير الكبير ثروت باشا

ـ سلاح الاستقلال الشرعي التام ـ الذي أصبحنا اليوم نجتني باكورة ثماره؟ امن حق الوطنية عليكم ان تصنعوا هذه الهنات وما هي الاسهام تصمون بها كبد القضية المقدسة ومدى تمزقون بها اديمها ومعاول تهدمون بها كيانها. أم هل نسيتم ـ وليس العهد ببعيد ـ يوم خذلتموها وهي ملقاة في قسطاس المفاوضات الرسمية اذ كانت تبتهل اليكم أن تلتفوا حولها وتشدوا أزرها ليكون من جماعتكم محتشدة ومن كتلتكم مندمجة خير قوة ترجح بكفتها في الميزان فتشيل كفة الخصوم وتنال هي الظفر والنصر بهممكم وعلى أيديكم. فهل أعنتموها ونصرتموها وأجبتم دعاءها ولبيتم نداءها؟

أفبعد هذا كله تدعون انكم أنتم وحدكم الوطنيون ومن سواكم غدرة منافقون. وان الوطنية قد خصت بكم وحبست عليكم ووقفت حيث أنتم فما لها عنكم متقدم ولا متأخر؟

هذا صنف جديد من الوطنية ونوع غريب لا عهد للناس به قبل ظهوره منكم قد سبقتم اليه العالم المتمدين وامتزتم به على أهل البدو والحضر فلكم وحدكم فخر ابتداعه. وامتياز اختراعه. ولكم أن تتخذوا له « ماركة مسجلة » تحتكرون بها مزية الانتفاع بارباحه واستثمار فوائده وتمنعونه بها من أن يكون لغيركم من مخلوقات الله حلا مباحاً يستمتعون به كما يشاؤون ولبئس ما يستمتعون وبئس.

ما يستثمرون . فاحتكروه وحدكم واستأثروا به وامنعوا منه خلق الله فلن تستطيعوا أن تحسنوا الى الناس اكثر من احسانكم عليهم بمنع مثل هذه « الوطنية السامة » من السريان في كيانهم الصحيح المعافى . ولا ارى كفارة لجريمة اختراع مثل هذا الصنف من الوطنية أفضل من قيام مخترعه بتسجيله واحتكار امتيازه لنفسه دون غيره وما يستدعيه ذلك الاحتكار من صيانة خلق الله الآمنين وعباده الصالحين من شروره وآفاته

الوطنية المحضة الصريحة الخالصة الصادقة لا توحى بأمثال هذه الفعال ولا تغرى بانتهاج تلك المسالك . انها أنبل مقصداً واكرم نزعة من أن تأمر بغرس بذور الاحقاد والضغائن وتأريث نار الشر والعداوة بين ابناء الوطن الواحد وتفريق الكلمة وتبديد الصفوف وفرط العقد وفصم العرى . هي قد تأمر بالمعارضة ولكن بالمعارضة الشريفة النزيهة الواقعة في حدود الرفق واللين والأدب والحكمة والعقل والمنطق المبنية على أفضل أساس من حسن النية وشرف المبدأ ونصرة العدل والتنقيب عن مواطن الصدق ومكامن الحق ولزوم محجة الحجة الناهضة . والتمسك بأسباب البراهين الدامغة . والتجرد عن شوائب الاغراض والتنزه عن عوامل الاهواء والتخلى بمناقب الكرم

والعفة والحياء ودماثة الطبع ورقة الجانب ولين العريكة وسجاحة الخلق ـ أعنى كل ما ينحصر فى مدلول تلك اللفظة المفردة الانكليزية التى اصطلح على تعريبها بلفظة « الرجل المهذب » .
فالمعارضة ـ تلك القوة الهائلة التى تعد بحق من أقوى عوامل تنظيم الهيئات الاجتماعية والسياسية وأفعل الوسائل المؤدية الى حسن التوازن فى كيان الامم والشعوب ـ يجب أن يكون القائمون بها من أفاضل القوم أعنى المهذبين الذين حاولنا وصف محامدهم ومناقبهم لا أن تكون سلاحاً فى أيدى الطائشين الخرق المتهورين .
ولا المتفاخرين بما آتاهم الله من قوة السواعد وجهارة الاصوات وصواعق الصيحات المنتشين من خمرة الزهو والتيه والادلال بشدة البأس وقوة الفتك ونخوة الفروسية والحماسة الذين يهزون اقلامهم كما يهز بعض الرجال النبابيت والشوم ـ أو بالاختصار ـ لا يصح أن يسلم سلاح المعارضة الشريف الى «فتوات» السياسة
لا يصح أن تستخدم المعارضة فى تضليل السذج البسطاء من الجماهير والتغرير بهم بترويج الاباطيل والاكاذيب ونشر اشاعات السوء والاراجيف وتسميم الاذهان باكاذيب التهم والظنون مما لا يساعد مثقال ذرة على خدمة القضيه ولا يتقدم بها شبراً واحداً نحو النجاح بل يعمل بالعكس على تعريضنا للخطر

الجسيم . لا يصح أن يتولى المعارضة من لا يهمهم منها الا اتخاذها ذريعة لخدمة الاغراض والاهواء وهم يعرفون الحقائق ولكنهم يتعامون عنها تعامي البصير فى الليلة القمراء . ولا أن يتولاها القصار النظر الذين لا يبصرون الحقيقة لما يحول دونها من سحب الاكاذيب والاضاليل . ولا أن يتولاها القوم البطاشون باسنة الاقلام، وحراب المطاعن وهجر الكلام. الذين لا يلذهم ولا يقر عينهم الا أن يروا ميدان المعارضة حومة وغى وساحة قتال يضرجونها بدماء المناظرين والمناقشين تسيل على ظبات اقلامهم وأسلات يراعاتهم من جراح الكرامات الدامية ومن كلوم الاعراض المثلومة . فهذا وحده الذي يسرهم ويشفيهم وبدونه لا يرضون ولا يقنعون . اما طريق المنطق والقياس والمعقول فليس مما يألفونه أو يميلون كثيراً الى سلوكه. وليس للحجة عندهم راجح وزن أو كبير قيمة. وبدل ما هو اساسي ضروري للمناقشة الحرة والمعارضة النزيهة من صفاء جو الهدوء والحلم والرزانة الضروري لوضوح نور الصدق وسطوع نجم الحقيقة تراهم يكدرون الجو بما لا يزالون يثيرون فيه من غبار الشغب والشر ويعقدون في ارجائه من دخان الاساءات والاعتداءات باليم المقال ومضاضه . . وهذه الخلال لعمر الحق ليست مما يحبب المناقشة الى اربابها وذوى البراعة فيها والافتنان

في اساليبها ولا مما يجعل ميدان المناظرة ذلك الندى المأنوس الذى يشتاقه ويهرع اليه اولو الفطن والالباب بل هذه الخلال السيئة اجدر ان تبغض المناظرة والمناقشة الى من يرجون لحل مشكلاتها وانارة شبهاتها من ذوى الفضل والحجى — اذ يرونها الى الصراع والملاكمة اقرب منها الى المحاجة . وبالجلاد والطعان اشكل منها بالمباحثة . ويرون مجالها احق أن يسمى مأسدة ومسبعة تجول فيه الضاريات بالبراثن وتصول بالانياب و لمخالب . فليس يجرأ على ولوج بابها . ودخول غابها . الا من تحصن في الجنن الواقية وتسربل الدروع الضافية . وليس يخفى ما يكون لابعاد اهل الفضل والنهى عن مجال المناقشة من الخطر الجسيم على سلامة الحقائق والمبادىء بمنع اشعة القرائح الوقادة من النفاذ اليها والاشراق عليها وابرازها للعيان فى ضياء الحجج المنيرة والبراهين الساطعة . وذلك من شر ما يبتلى به أمة ناهضة تقتحم اوعر سبيل الى غايتها المأمولة من الحرية والاستقلال فى ظروف عصيبة وازمات شديدة وجو مغيم مظلم تظل فيه احوج ما تكون الى الاستنارة بشهب الافكار ومصابيح الفطن من عقول الصفوة المختارة من نخبة ابنائها المخلصين النوابغ.

نحن لا نقصد بهذا الكلام الى الطعن في وطنية مصرى

كائنا من كان. لأنا ننظر الى الوطنية نظرة اوسع واعمق مما اعتاد أن يلحظها بها أولئك الذين يعدونها ضربا من الحرف وصنفا من الصناعات والمهن يحترفونها فيقال فلان وطني كما يقال فلان مهندس أو طبيب أو اولئك الذين يعدونها حلية وزينة يتملح بها المتبرج المتأنق فيقال فلان قد برع في الوطنية وحذقها كما يقال قد تفوق فلان في البلياردو او الرقص او الناي . ولكنا نرى الوطنية شيئاً اعرق من كل ذلك في كيان الانسان وتركيبه وأشد امتزاجا بنفسه وارسخ جذورا في طينته وارسب اصولا بل لا نعدو الحقيقة اذا قلنا انها هي بالفعل مادة حياته وعنصر كيانه . فهي ليست حرفة الا اذ كان التنفس ذاته حرفة وليست حلية الا اذا كان الشعور والوجدان ذاته حلية . ولا هي ما يفتخر به ويباهي ويتيه به صاحبه عجبا وادلالا الا اذا صح ان يفتخر انسان على آخر ويتيه ويزهى لغير ما سبب سوى انه حي يرزق وموجود تحت الشمس يستطيع أن يتحرك ويهضم . والواقع أن الانسان وطني بالطبع مثلما هو مدني بالطبع واناني بالطبع وخرافي بالطبع الى غير ذلك من الغرائز والفطر المكون من مجموعها ذلك المخلوق المدهش المسمى انسانا . بل أني لأذهب الى ابعد من ذلك فاقول أن الوطنية اعني فرط تشبث الانسان وتعلقه بالارض التي منها نشأ ونجم ليست

مقصورة على النوع البشرى بل مشتركة مشاعة بينه و بين كافة ضروب الحيوان من النملة الى الفيل ومن الاسفنجة الى النسر ـ كل لايقر ولا يطمئن الا فى وطنه وبيئته . بل ان النبات ذاته وطني اذا نقلته الى غير وطنه وغرسته فى غير مألفه ذوى فذبل فمات .

اكثر من ذلك ان الوطنية لكونها غريزة وجبلة هي كسائر الغرائز تفعل فعلها وتجرى شوطها مستقلة عن العقل لانقول ان استقلالها عن العقل فرض لازم وشيء دائم فانها قد تتفق معه احيانا وتسترشد بوحيه ولكن ذلك شيء عرضي وهو من محاسن الصدف وحينذاك تكون وطنيه راشدة مبصرة . ولكن ذلك ليس من وظيفتها ولا من طبعها بصفتها غريزة كسائر الغرائز التي لا بد أن تنهج منهاجها وتحدث حدثها بقانون نافذ ازلي غير خاضع لسلطان العقل ولكن لسلطانه هو . فلا عجب ان ترى الوطنية مندفعة فى مجراها فى غير صحبة العقل . بل لقد تسلك الوطنية مسلكها فى غير صحبة الشعور فيأتى الرجل الفعلة الوطنية من حيث لا يشعر انه صنع شيئاً البتة . ولكن من حسن عناية الله وتوفيقه أن يلهم الوطنية الانضمام الى العقل والانضواء تحت لوائه لأن العقل وحده هو المبصر الثاقب النظر وسط

ظلمات الكون والدليل المهتدي بين مضاله ومجاهله وكل شيء سار في صحبة العقل فقد ضمنت له السلامة وقدر له النجاح . وكل مالم يكن كذلك فقد تعرض للمتالف واستهدف للمهالك .

على أن العقل حينما يصحب الغريزة المسماة الوطنية لامشاحة في انه يكسر من حدتها ويفل من سورتها لما يتحتم عليه من مراقبتها وتدبيرها بالكبح من جماحها وصدها في الاحايين الكثيرة وقدعها وقمع طغيانها وتوقيفها عند حد الامان وفي دائرة السلامة . فتصبح بلا شك ـ من حيث مبلغ قوتها وشدتها — أضعف بكثير من الوطنية المستقلة عن العقل الراكبة رأسها الهائمة على وجهها . وهنا يتهمها الناس بالفتور والتراخي بل ربما غالوا فاتهموها بالمروق والخيانة . ومن ثم كانت الوطنية المستبدة العمياء في نظر الجماهير أغلى قيمة وأعظم قدراً واوجب الاجلال والتقديس من الوطنية المتبصرة السارية في ضياء العقل ومن ثم نشأت نظرية القائلين بأن الوطنية أعظم ماتكون واقوي واشد اخلاصاً وحرارة في الجماهير والمجاميع ـ وانها تتناقص قوة وحمية ولهيباً كلما ازداد نصيب صاحبها من العلم والفلسفة حتى اصبح الكثير من نوابغ العلماء والفلاسفة وفي مقدمتهم « جيتا » أعظم فحول الالمان يتهمون في وطنيتهم . والحقيقة خلاف ذلك فان

الوطنية فى كلا الفريقين جوهر لايقبل التجزئة والتقسيم ولا النقص والزيادة وانما يختلف مظهراً فى الفئتين تبعاً لشدة اندفاعه وطغيانه بلا رقيب ولا مدبر فى الواحـدة أو انطلاقه فى زمام العقل وعنان الحكمة ومسراه في ضياء الرأي والبصيرة فى الثانية.

وبعد كل هذا الـكلام ارجوا ان اكون اقنعت من عساه يكون قد اساء فهم مرامى فظن انى طعنت فى وطنية فرد ما من افراد شعبنا الـكريم — بأنى ماقصدت البتة الى ادنى شىء من ذلك . بل الذى أقوله هو عكس ذلك كما حاولت اثباته بالبراهين الآنفة من ان الوطنية تظهر فى فئة المعارضين على اشد مابدت فيه الوطنية منذ خلق العالم من اسطع الصور واعنف المظاهر فان كان فيها علة فانما هي الافراط والطغيان لا الفتور والضعف وان كان بها آفة فهاتيك هي العنف والبطش لا اللين والهوادة . فان كنت آخذ عليها شيئاً فذلك هو الزيادة لا النقصان .

وهنا اقول ان الذين يذهبون الى فصل الوطنية عن مظاهر التعقل من الاناة والتؤدة والرفق والهوادة بحجة ان هذه العوامل من شأنها أن تضعف من قوة الوطنية وتكسر من حدتها فتعوق كثيراً او قليلا من فرط اندفاعها وشدة انصبابها الى ما ترمى اليه من شريف غايتها ـ قد فطنوا الى شىء وغابت عنهم أشياء.

لأنهم نظروا الى الامر من وجهة واحدة ولم يستوعبوا سائر جهاته . وكذلك النظر الجزئى الى عظام المسائل جدير ان يضل صاحبه ويعمى عليه الشيء الكثير من الصواب .

لقد فات هذا الفريق ان الغرائز والعواطف مهما شرفت ونبلت ومهما كرم غرضها وحسن مقصدها فانها اذا لم تجعل تحت رقابة العقل (الذىّ هو وحده منبع النظام وأساس سلامة الكون) تصبح عرضة للوقوع تحت تأثير آفة الآفات ومصيبة المصائب وادوى ادواء المجتمع والد اعداء الانسانية — اعنى داء « الانانية » وليس هذا محل الخوض فى هذه المسألة الكبرى وما اظن المجال ينفسح أو يسمح باستقصاء البحث والدخول فى فى الجزئيات والتفاصيل وضرب الامثال ـ على ان القارىء اذا القى هذا الكتاب برهة وراض الذهن على فحص هذه النظرية جهد طاقته لم يبخل عليه بالجم العديد من الشواهد والأمثلة المؤيدة لهذه القاعدة العامة — خذ مثلا بسيطاً : عاطفة الحب التى هي انزه العواطف في أصلها وطبيعتها وأشدها تضحية وابعدها من الانانية بل اقتلها للانانية اذا تسربت اليها آفة الانانية فقدت تلك المزايا الكريمة والمناقب الحميدة ـ فقدت روح التضحية والنزاهة وروح التفانى في شخص المحبوب فاصبح صاحبها اكثر اهتماماً بنفسه

منه بمحبوبه واشد عشقاً لذاته السخيفة السمجة منه لذات معشوقة واشغف واهيم بملاحات جماله ومحاسن دلاله منه بمفاتن الحبيب فكل عنايته واكتراثه لنفسه وكل عواطفه وشهواته تدور حول محور نفسه . ومن ثم تصبح نفسه « السخيفه السمجة الممقوتة » هي الصنم الذي ينصبه ويخر له ساجداً ويريد معشوقته المسكينة على أن تسجد له أيضاً . ثم بدلا مما يكون في حالة عاطفة الحب النزيه الطاهر من تلك الفضيلة الاخلاقية الاجتماعية الكبرى أعني روح التضحية السامية القاضية بنسيان العاشق ذاته الضئيلة واتجاه كل ملكاته وقواه وجهوده نحو خدمة النوع البشري ممثلا في شخص حبيبه وتقديس المجتمع الانساني مصوراً في هيكل معشوقه — ترى جميع قواه وملكاته قد انعكست نحو ذاته الممقوته فيظل يحسب أن نفسه هي الجوهر الوحيد في الوجود وان سائر الكائنات اعراض خسيسة وان كل ما في الكون من خلائق لم توجد ولم تكن الا لتسره وتلذه وتسعى في خدمته وتسبح بحمده . لا يحسبن القارئ أن في كلامي هذا شيئا من المبالغة فلقد رأيت بعيني رأسي كثيراً من هذا الصنف من العشاق ولا أراني مغالياً اذا قلت أن مثل هذا العاشق لا يعير محبوبته من الاهتمام عشر معشار ما يبذله في سبيل انتقاء « دبوس »

أو « ببلغ » أو « حمالة » أو في سبيل المقارنة والمفاضلة عند اختياره لون ثيابه بين « الكحلى » و« الكريم » و «الكاكى » ورأيت أن مثل هذا العاشق ينتهى به الامر الى خسران محبوبه وخسران الصحب والصديق والخلان . وكلما ازداد جمالا فى عين نفسه ازداد قبحاً فى عيون الغير وكبر مقتاً عند الخلق والخالق .

نقول لقد فات ذلك الفريق أن العواطف والغرائز مهما شرفت ونبلت فانها عرضة للاصابة بداء الانانية مالم تحصن برادع العقل والرأى . ولما كانت الوطنية كما بينا آنفاً عاطفة وغريزة فهى بهذا الاعتبار والحكم عرضة لداء الأنانية - لا يقيها من شره سوى العقل الذى هو الدواء القتال للانانية ولغيرها من العواطف الخبيثة والشهوات الشريرة . لأن العقل هو القوة المدبرة المسيطرة على الكون . هو اس النظام ووسيلة الصلاح وعامل الرقي وهو الدواء المستأصل لجراثيم الفساد والشر والفوضى . وهو سلاح الحق الذى لايزال ينتصر به في كل مظهر من مظاهر الحياة وفى كل ذرة من ذرات الوجود على جيوش الباطل . ولما كان الباطل والغي والشر والفساد والفوضى لاتزال تتخذ من العواطف والشهوات أثوابا تلبسها وتظهر فيها وأدوات تستعملها فى اغراضها ومطايا تركبها الى غاياتها المرذولة فلسنا نخطيء اذا قلنا

ان وظيفة العقل فى هذا الوجود هى محاربة الشهوات والعواطف.

لذلك نقول ان الوطنية باعتبارها غريزة وعاطفة اذا نحيت عن مسقط اشعة العقل قام حولها من ظلمات الاهواء شر بيئة تتكون فيها جراثيم الانانية المنكرة وتظهر بمظاهر شتى من التعصب والتشيع والتحزب وما يستدعيه ذلك من التباغض والتشاحن والتحاقد والتضاغن وحب الانتقام والثأر ولذة التشفى والشماتة .

هذه الحال بالدقة هي التى تسود اليوم فى فريق المعارضين المتشائمين ـ وطنية قوية شديدة لاشك فيها ولكنها وطنية مرتدية ثياب التعصب والتشيع مدفوعة بعوامل التحاقد والتضاغن ساطية بسيف الانتقام والثأر ـ أعنى وطنية مسلحة بكامل عدة الانانية وأسلحتها ـ أو بعبارة أبين وأقرب الى الحقيقة ـ أنانية مسلحة بسلاح الوطنية .

الآن أحسب القارىء قد أدرك مغزى كلمتى (المتناقضة في ظاهرها المتناسقة فى حقيقتها) حيث أقول للمعارضين ان الوطنية فيكم بالغة أقصى حدها عقب قولى لهم ان أعمالكم لا تتفق مع الوطنية .

الوطنية كغيرها من الغرائز والعواطف لاتنهج المنهج

القويم المؤدى الى الغاية المقصودة الا اذا تسيطر عليها العقل لأنه يعصمها بذلك من أن تنقاد في عنان الانانية أو تجرى وراء الاغراض الشخصية . لأن العقل لايولع الا بالصدق ولا يهيم الا وراء الحقيقة ـ فهو يهيم أثر الحق متعطشاً اليه متلهفاً عليه

كالعين منهومة بالحسن تتبعه

والانف يطلب أقصى منتهى الطيب

صبا به مستهاما ـ أقول كذلك يهيم صاحب العقل في طلب الحق معرضاً نفسه لشفار السن المعارضين تنهش عرضه وتفرى أديمه ولكنه يمضى رغم ذلك كالسهم المرسل والسيل الجارف

أو كما انقض كوكب أو كما طا

رت من البرق شقة في غمام

والناس يعجبون له كيف لم تستثر هذه العوامل المهيجة عواطفه التي تخال كأنها الصخور الصم . أو الهضاب الشم . بل يكاد يخيل اليهم ان مثل هذا الانسان ربما كان بلا عواطف والواقع انه مادام يهيم في أثر الحق فهو عديم العواطف الا عاطفة الهيام بشخص الحقيقة فأما عواطف الاستياء والغيظ والتألم من المطاعن والمقاذف ومضيض الهجاء والقذع وعواطف الاحقاد والاضغان والتعصب والتشيع فهذا ماليس له محل في صدر ذلك

الرجل الذى افعم قلبه حب الحقيقة افعاما لم يدع مجالا لأى عاطفة أخرى . فاذا كانت العواطف والشهوات الانانيـة هي مقياس انسانية الرجل ومسبار بشريته فانه يصح لنا أن نخرج مثل هذا الرجل من عداد البشر ونجرده من الانسانية فنسميه أى شيء الا انساناً. والواقع انه أشبه ببعض الآلات والمكينات (كآلة الاحصاء مثلا التى تمر خلال جملة عمليات حسابية بغاية الضبط والدقة وبلا ادنى شعور أو تأثر بما يحيط بها من المؤثرات الجوية والعوامل الـكونية ـ الى نتيجة مضبوطة لا تقبل تغييرا ولا تبديلا) منه بابناء البشر .

نقول أن الوطنية في مثل هذا الرجل لا يخشى عليها من بوادر الاهواء والشهوات وآفات التحيز والتعصب اعنى من مظاهر الانانية . فوطنية هـذا الانسان خايقة ان تعد وطنية محضة صريحة نزيهة نقية ـ منطوية على عناصر الخير وعوامل النجاح مضموناً لها ادراك البغية وبلوغ الغاية .

فهل وطنية اخواننا المعارضين هي من صنف تلك الوطنية المحايدة المجردة من المادة البشرية والعناصر الانسانية اعنى من العواطف والشهوات ـ هل وطنية المعارضين هي من قبيل

تلك الآلة الحسابية المركبة على مكينة العقل المجرد وديناموالفكر المحض ـ هل وطنية المعارضين هي تلك الآلة العقلية المتحركة الفعالة في صفاء الفكر البحت وأثير الرأى الخالص ـ في جو صاف نقي الأديم من كل شائبة للشخصيات والميول الذاتية ـ هل وطنية المعارضين كذلك أم هي أشبه الاشياء « بالفانوس السحرى » يجلو على ناظرك وسط الظلام معرضاً مستمراً من الصور والاشباح يحاول مديره أن يدهشك بصورة هذا البطل وشكل هذا الهمام ـ أم هي (أعني وطنية المعارضين) أشبه شيء بداخل المعبد أو الكنيسة كل جدرانها مزدانة بالتصاوير والتهاويل والدمى والتماثيل ـ وأنت بين هذه الانصاب والاصنام لا يسمح لك أن تبدى رأياً أو تجهر بفكرة وما كان لك أن تحاول قط ذلك ولا أن تظن أن لك فكراً أو عقلا بل كل ما يجب عليك اعتقاده انك لم تقم ولم توجد بين هذا الجمع المحتشد من القديسين والشهداء والملائكة والعذارى الا لتسبح وتحمد وتبتهل وتتضرع وتخر ساجداً لهاتيك الآلهة على عروشها

لو كانت وطنية المعارضين هي من صنف وطنية العقل الهادئة المحايدة المحضة المجردة من نزعات العواطف ونزعات الشهوات

الذاتية والميل الى الشخصيات والتشيع للاشخاص لما كانت ـ كما شاهدنا مراراً وتكراراً ـ عرضة في كل آن ولحظة لان تغتاظ وتغضب بتأثير الاهواء والغايات وتثور وتهيج بعوامل الحب والبغض والحقد والضغينة مما صير اهتمامها بالهنات الشخصية أشد منه بالمسائل السياسية واكترائها الذاتيات الخصوصية أعظم منه لأمهات المسائل العمومية . ولقد اثبت العلم والفلسفة انه اذا ضعف سلطان العقل على العواطف أصبح تأثر الانسان بالمسائل الشخصية مما يمس شعوره الذاتى وما يتصل مباشرة بشهواته وأغراضه أشد الف مرة من تأثره بالمسائل القومية والشؤون السياسية ومن ثم ترى الرجل الذى لا بأس فى وطنيته واخلاصه لبلاده ربما اغضى عن الكلمة يكون فيها مساس عظيم بحقوق وطنه ولكنه لا يغضى على اللفظة يكون فيها أدنى مساس بشعوره الذاتى واحساسه الشخصى . وترى عين هذا الرجل ربما سمع الطعن فى مذهب حزبه وشيعته فيحتمله هادئاً وادعاً مبتسماً فاذا ما وجه الى شخصه أقل مسبة ثار ثائره فارغى وأزبد . ثم أبرق وارعد . وانطلق لسانه بالسب واللعن يصب على رأس شاتمه صواعق غضبه وحنقه . وربما سبقت يده الى ذلك المعتدى باللطمة أو اللكمة بل بالخنجر او المسدس

اشتد اختلاف الناس فى أى الاشياء اندر وأعز وجوداً فى هذا الكون العظيم . وأنا اقول وأؤكد ان أعز الاشياء واندرها فى هذا الوجود هو العقل القوى المتغلب على سلطة العواطف. واعتقادى ويقينى ان مقابل كل الف فرد ممن تتغلب فيهم العاطفة على العقل فى هذا العالم يوجد فرد واحد يغلب العقل على العاطفة ويحكم الملكة المنطقية فى نزعات الشعور ونزواته . وليس هذا مجال الاطالة والافاضة فى ذلك البحث العميق الذى عقدت له الفصول المسهبة فى كتب الفلسفة وعلم النفس ولكننا نورد النظرية عارية عن الشروح والحواشى احتجاجاً لقولنا ليس الا . نقول لا عجب فيما نراه من ندرة العقل القوى ازاء تفشي العواطف فى العالم واستفاضة الاحساسات والشهوات فى كل ذرة منه فتلك حكمة الخالق وسنة الطبيعة والقاعدة المشيد عليها نظام هذه الحياة الارضية التى لا أظنها فى جوهرها وعنصرها غاية فى الرقي والسمو ولا آية فى التهذيب والنقاء والطهر والتى أنا أميل الى موافقة «شوبنهور» فى وصفها بأنها شر ما يمكن أن يكون من أصناف الحياة منى الى مطابقة «ليبنز» فى نعتها بأنها أحسن ما يمكن وجوده من العوالم والدنا ــ وسواء كان الحق فى جانب «شوبنهور» او فى جانب «ليبنيك» فلا مقال

الاول ولا تصريح الثاني بغير مثقال ذرة من نظام الدنيا ولا بمبدل من شيمة هذه الحياة الارضية وخلقها ـ ولا بناف هذه الحقيقة المرة الاليمة وهي ان العقل ما زال ولن يزال بحكم ناموس الحياة وتركيبها وفطرتها اندر الاشياء فيها كما ان العواطف والشهوات ما زالت ولن تزال اكثر الاشياء كمية وأشدها تفشياً وانتشاراً وان هذا الناموس الازلي (وليس لنا معشر البشر العجزة الضعاف أن نعارض فيه ونطاعن ـ وما ذا تجدى المطاعنة والمعارضة ـ بل كل ما علينا هو أن نتقبله على علاته ونستثمره جهد طاقتنا) هو مصدر ما تنطوى عليه الدنيا من الظلم والطغيان والشرور والمصائب والشقاء والبؤس ـ بالدليل الواضح البين وهو ان العواطف والشهوات هي بطبيعتها سفلية جهنمية ومنها تتكون الجزء الدنس القذر الخبيث من هيكل الحياة (وهو الجزء الاعظم) ـ كما ان العقل هو بطبيعته سماوى الهي ومنه يتكون الجزء الطاهر النقي من هيكل الحياة (وهو الجزء الاصغر) وهو توزيع قد رأته القدرة الالهية مناسباً لنظام هذه الحياة الارضية التى لم يرد الله سبحانه وتعالى أن تكون فردوساً أو ملكوتاً أعلى أو مقام قديسين وابرار ـ بل أرادها أن تكون (كما أنبأتنا الكتب السماوية) دار توبة وندامة وتكفير عن جناية ابوينا الخاطئين

فى دار الخلد ـ أو بالاختصار ارادها الله أن تكون سجنا أو ـ بعبارة أخف وألطف ـ اصلاحية أو مستشفى . فاما الجنة ـ دار المكافأة والجزاء ومقام الابرار والشهداء والقديسين ـ فما اظن أن الخالق سيبنى نظامها على قاعدة هذا التوزيع المحزن ـ ندرة العقل وغلبة العواطف المتسلطة بجيوش الاحقاد والضغائن ـ بدليل قوله سبحانه وتعالى فى وصف أهل الجنة « اخوانا على سرر متقابلين ونزعنا ما فى صدورهم من غل »

نقول كذلك مذهب القدرة الالهية فى خلقة هذا الوجود ـ بينما تراها كأبخل البخلاء فى هبة العقل كأنها تجود به من خرت ابرة اذا بها كأسخى الاسخياء فى هبة الشهوات والعواصف تسح بها سحا وتهطل هطلا . فهي كلما جادت على هذا الكوكب الارضى بمثقال ذرة من العقل جادت مقابل ذلك بمليون قنطار من العواطف ـ عطية مشتركة بين الانسان وسائر ضروب الوحش والبهيم والحيوان من أعلى درجات سلم الحياة الى ادناها . على حين أن العقل القوى المسيطر على العواطف لاتهبه الطبيعة الا لاسمى طبقات الانسان ـ اعنى الانسان المفكر . هذا المخلوق البديع السامي نادر جداً بالنسبة الى ما يملأ فضاء الله ويتشاحن فيه ويتطاحن ويتنافر ويتناحر ويتصايح ويتعاوى

من مختلف ضروب الوحش والحيوان وفى مقدمتها (أو فى مؤخرتها وهو الاصدق) ذلك الوحش الساعي على قدمين المسمى انسانا ـ اعنى الانسان الاعتيادى الخاضع لسلطان الشهوات والعواطف الذى منه تتكون المجاميع والجماهير والعامة والسواد الاعظم من بنى البشر

وليس يخفى على ذى لب أن المسائل السياسية والاجتماعية حتى ابينها وابسطها هي ـ وأن خيل للبسطاء السذج أنها سهلة الفهم والادراك قريبة المأخذ والاستيعاب لايحتاج بحثها وفحصها لكبير عقل أو ثاقب فطنة ـ لهى فى الحقيقة والواقع صعبة عويصة وعرة المسالك لايستطيع أن يحيط بها ويستجلى غوامضها الا اولو الفطن والالباب . وانما هو الغرور والتبجح والدعوى التى توهم السذج البسطاء من الجماهير والعامة انهم قادرون على فحص وتمحيص هذه المسائل الصعبة وانهم هم ايضاً لهم الحق فى مشاركة أولى الالباب فى تناول تلك المسائل وابداء الرأى عنهـا والبت فيها . واذا كان هذا هو موقف الانسان العادى من المسائل السياسية والاجتماعية وهذا هو مبلغ ضعف عقله وقصور ذهنه عن فهم ماهيتها وادراك دقائقها وغوامضها فى حالته الطبيعية أى فى حالة هدوء عواطفه وعدم اهتياج احساساته وشهواته ـ فمابالك بمقدار

عجز ذلك الذهن وقصوره اذا زدته ضعفا باستثارتك عواطف الرجل وشهواته وتسليطها على ذلك الذهن الضعيف من اصله .

ومن ثم ترى أن العامة والصبيان والنساء فى كل أمة يكونون لتغلب العواطف فيهم على العقل وامتلائهم بالشهوات النارية أشبه شيء بمخازن البارود ومعامل الذخيرة . وهذه المزية العظيمة لاتخفى بالطبع على عشاق المعارضة فى كل أمة فهم كالصياد يعرف مسارح الظباء ومسارحها وكالمنتجع يهتدى الى مساقط الغيث ومنابت الكلأ . أقول أن زعماء المعارضة يعرفون مواضع تلك العناصر الملتهبة والمواد المفرقعة من قلوب العامة والصبيان والنساء فما هو الا أن يرسلون عليها شرارات مما تجيش به صدورهم حتى تشتعل فتتأجج .

فالى زعماء المعارضين اللاعبين بألباب الصبية والنساء والعامة نقول : اتقوا الله فى عقول اضعفتها الطبيعة لاتزيدوها ضعفا واتقوا الله فى احلام خففتها الطبيعة لا تزيدوها خفة وطيشا وراقبوا الله فى عواطف واحساسات قابلة للالتهاب بفطرتها لاتضرموها على اربابها وعلى البلاد نارا حامية . واخشوا الله أن يراكم تسلون من قلوب أولئك البسطاء سيوف عواطفهم وشهواتهم

فتجهزوا بها على ذرة العقل الضئيلة التى تفضلت عليهم به الطبيعة مما بقي لديها من مادة العقل بعد ان كالت منها كيلا للفضلاء النوابغ . اتقوا الله ان يراكم تطلقون سيول تلك العوطف الجارفة تسلطون طوفانها على تلك الشرارة الكليلة التى منت بها الطبيعة على ادمغة اولئك البسطاء بعد ما اشعلت مصابيح الفطنة الوقادة فى سماء اذهان الاذكياء الالباء . رفقا باولئك الضعاف لاتعينو ا عليهم الطبيعة القاسية الظالمة بافسادكم ما جادت به عليهم من النزر الطفيف من مادة الفهم يوم قسمة العقول والبصائر

وهنا يجدر بنا القول بأن مايقوم اليوم بين ظهرانينا من تغلب العواطف الثائرة فى مجال تبادل الاراء الهادئة وسيطرة الشهوات الفائرة فى مقام أعمال الفكرة الثاقبة والعقل المجرد عن شوائب الاهواء ـ انما هو مظهر من مظاهر آبائنا الاول فى العصور الغابرة ونزعة رجعية الى عصبية ذوى الثارات والعداوات من أجدادنا أهل البيد والفلوات

ان أهم ميزات الطبقات العليا على السفلى والخاصة على العامة هى ان الفئة الاولى لحدة ذهنها وقوة الملكة المنطقية فيها تستطيع التفكير والكلام فى المعنويات كالنظريات والكليات والقواعد والقوانين بينما الفئة الثانية لضعف ذهنها وقصور الملكة المنطقية

فيها ازاء قوة الحواس والاحساسات لاتفهم المعنويات ولاتقوى على ولوج أبوابها وخوض غمارها فهى لاتلتذ ولا تعنى الا بما قد كاد يقصر عليه إدراكها من المرئيات والمحسوسات كالاشباح والذوات والاشخاص ولذلك اذا غشيت مجامع العامة ومجالس الصبيان والنساء الفيت حديثهم قد كاد يقتصر على الاشياء المحسوسة كوصف المراقص والملاهى وأماكن الفرجة كالمعارض وحدائق الحيوانات والمطاعم وحوانيت الفواكه والحلوى الى الفصول المسهبة الشرح والتفصيل فى مسائل الملابس والتفصيل وأصناف الاقمشة والمنسوجات وآلات الزخرف والزينة الى ما يماثل ذلك ويجرى مجراه من المباحث الاقتصادية فى تاريخ المطبخ والكيلار والتاريخ الطبيعي لشتى أصناف الطيور والدواجن الى المحاضرات الفلسفية فى فنون « الغيات » المختلفة الحمام والخيل وورق البريد والعملة القديمة والسجاجيد والجعارين وما لا يحصى ولا يعد من أمثال ذلك واشباهه ـ ولكن هناك شيئا آخر هو اعلق بأذهان هذه الطبقات واروح على قلوبهم وذلك هو التعرض للاشخاص أنفسهم (لا فى متعلقاتهم من مأكل وملبس) والخوض فى شخصياتهم وتناول سيرهم قدحاً أو مدحاً .

أما الكلام فى المعنويات وارسال الذهن الصافى البلورى يسبح فى عالم الافكار والروحانيات ويغمس أجنحته فى ضياء الحقائق ويقلب المعانى محضة بحتة عارية عن ثياب الاشخاص والمادة والزمان والمكان فذلك مالا تستطيعه ولا تعرفه هذه الطبقات من العامة والنساء والصبيان وانما هو شأن العلية الفضلاء اولى الفطن والالباب

ولا يخفى ان هذه الخصلة أعنى تعلق النفس وجولان الذهن فى عالم الحس وضعفهما عن خوض عالم المعانى والنظريات هو من مظاهر الامم والشعوب غير المتمدينة التى تكاد تنحصر أعمالها ومساعيها فى التكافح والتقاتل وشن الغارات بعضهم على بعض لاتزال هذه القبيلة تغزو أختها وهذه الفصيلة تكتسح جارتها. ثم ترى أفراد كل قبيلة لاهم لهم اذا ضمتهم محافلهم وانديتهم الا وصف مواقف أبطالهم فى ساحة الوغى ونعت ما أتوه من آيات النجدة والبطولة ثم تمجيد الزعيم الاكبر وتقديس ذاته. فأحاديثهم وأفكارهم مقصورة على الاشخاص ومظاهر المادة لاتتعداها الى عالم المعنويات والمبادىء والقوانين العامة.

ولا تنس مالا بد أن يصحب هذه الحالة (اقتصار الافكار والحديث على عالم الحس) من تعرض العواطف والاحساسات

بسبب سرعة الانفعال والثورة والهياج لما هو مفروض فى تلك الحالة من ضعف سلطان العقل وضؤولته امام جيش العواطف .

ونحن لانزال فى غدواتنا وروحاتنا نبصر أثر هـذه الخصلة العتيقة أعنى الولوع بالاشخاص لمجرد أسباب مادية لاعقلية ولا روحانية وتقديس اولئك الاشخاص لمجرد تأثيرهم على عواطف مفتونيهم من العامة لا على ملكاتهم العقلية والروحانية – باديًا فى كل شبر من أراضى بلادنا وفى كل آن ولحظة من خضوع العامة لرجل قوى البطش فيهم مرهوب السطوة يسمونه «فتوة» فمن شاء أن يرى أصدق صورة تمثل تاريخ العصور الوسطى – عهد الاقطاعيات او عهد الفروسية فى أوروبا المظلمة ووقائع « قلب الاسد » و « اورلندو » و « اماديس دي جول » فليطلع على ما يجرى من مظاهر العواطف العمياء والانانية الخبيثة فى طبقات العامة مما يدعوهم الى تمجيد زعمائهم من « الصبوات » و « الفتوات »

وان تشأ مثالا آخر على هـذه المظاهر الممقوتة فتفقد ليلا محافل العامة فى قهواتهم حيث تتلى عليهم قصة عنترة وأبى زيد وانظر فى وجوه القوم وحركاتهم مظاهر تلك النزعة الرجعية – نزعة تقديس الزعيم لمجرد قوته العضلية ومزاياه العدوانية وفرط تأثيره على عواطف شيعته وانصاره . بل أنظر اليهم

كيف ينقسمون شيعاً واحزاباً حسب ميولهم الغريزية للاشخاص الخرافية المسرودة عليهم اقاصيصها ـ كل فريق يتعصب لزعيم دون الآخرين . وكيف فى سبيل انتصار كل لزعيمه الخرافي وتشيعه له يتهيج ويثور وربما وثب على مناظريه من انصار الزعماء الآخرين واستطال عليهم بالسب وأحياناً بالضرب . فهكذا يبلغ من حدة العواطف البشريه وغلواء سورتها حتى فى حين تأثرها بالعوامل الخيالية الوهمية المستمدة من عالم القصص والخرافة ـ فما بالك بفرط سطوة هذه العواطف وطغيانها اذ تسلطت عليها عوامل فعلية واقعية من عالم الحس والحقيقة

هـذا هو الحاصل بيننا اليوم وذلك هو شأن المعارضين ومن شايعهم وتابعهم ـ والا فكيف كان يمكن ويتأتى ان ينكروا المحسوس والملموس ويماروا فى الحق الصراح ويلوموا غير ملوم . ويذموا غير مذموم . ويرتعوا ساعة الهجاء في غير مرتع . ويشرعوا صادية القدح فى غير مشرع . وكيف — لولا هذه الحال التى شرحناها ـ كان يهون عليهم مايحاولون اتيانه من تفريق ذات البين وتبديد الصفوف وتمزيق الوحدة وفك الاواصر .

حقاً ان المعارضة اذا خلت من عوامل العواطف الشخصية والشهوات الحزبية وصحت من سكرة الأثرة والانانية عز عليها

أن تأتي كل مامن شأنه عرقلة المساعى وأضعاف المجهودات وايذاء القضية . ولكن ماذا تصنع المعارضة وماذا تفعل الوطنية اذا أصابتها الانانية ؛ اليست الأنانية جديرة ان تصم أذن العقل وتخرس صوت الضمير وتغشي ناظر الرأى والبصيرة . وتطارح فى زوايا الاهمال كل مسألة وقضية الا مسألة شكايتها الوهمية وظلامتها الخيالية

وفى هذه الحالة تتوق وتصبو الى فكرة الانتقام . وقدما قيل ان الانتقام حلو لذيذ عند الانسان الاعتيادى الحاد العواطف وكم رأينا وسمعنا عن التضحيات العظيمة تبذل فى سبيل الانتقام ومن أجل تذوق حلاوته واستمراء لذاذته . ولا جرم فالانتقام هو كما وصفه الروائى الاشهر « السير والتر سكوت » « اشهى لقمة طبخت فى نار جهنم »

ولا عجب اذا رأينا المعارضة رغبة فى الانتقام تشن الغارة أثر الغارة وتصول بجيوش المظاهرات وتقيم مسرحاً عظيماً للشغب واللجب والصياح تلعب عليه أو تتفرج جماهير العامة والنساء والصبيان مدفوعة بما جبلت عليه تلك الطبقات من حب الهياج والصخب والضوضاء وبما فطرت عليه من الشغف بمشاهدة ملاعب الصراع والملاكمة مما يثير الشعور ويولد تلك اللذة الحاصلة

من التهاب العواطف واشتعال الشهوات ـ فضلاً عن اللذة المتولدة في المظاهرات من احتكاك الانسان بالآلاف المؤلفة من الاجسام البشرية ومن تفرج الانسان على مثل ذلك المدد من الوجوه الآدمية المختلفة السحن والملامح .

كذلك تحاول المعارضة الانانية قلب الحقائق ومسخها وتشويهها وانكار الواقع الملموس والمشاهد وطمس ماثر الذين ساقوا لبلادهم الخير والغنيمة وجحودا لما طوقوا به جيد الوطن من بيض الأيادى ـ تحاول بذلك شفاء غلة جهنمية . وانتقاماً لاساءات وهمية . وقد تفلح وقتاً ما في ترويج مذهبها بخلقها جواً من الهياج الوجداني والانفعال النفساني تلتهب فيه العواطف وتحتدم الشهوات ـ تبذر في ارجائه بذور اراجيفها وتذرو في انحائه لقاح اباطيلها واضاليلها . ولكن هذه الحال لن تدوم وماهى الا مؤقته ـ شأن غيرها من الاكاذيب التى مهما يمتد اجلها فآلها حتما الى الزوال والفناء .

وكذلك تلك الاراجيف والاباطيل وتلك الظنون السيئة بالحكومة الحاضرة والتهم الكاذبة مما لا تفتأ المعارضة تصوغه وتخترعه ـ مهما صادفت من الرواج في هذا الدور الاول من العهد الجديد بسبب مايسود في اذهان بعض الطبقات من عوامل الحيرة

والارتباك المثيرة للريب والشكوك من تأثير صدمة هـذا الانقلاب السياسي الخطير - فهي لابد أن تأخذ في التناقص والهبوط والكساد ثم يؤول أمرها الى الاضمحلال والزوال على مر الايام متى تتابع على ابصار تلك الطبقات من مزيد الشواهد والآيات وتوالى على بصائرها من جديد الحجج والبينات مايمحو من اذهانهم ذلك الخلط والارتباك والحيرة - ويبرز لابصارهم الموقف الجديد ومعالمه وحدوده وخصائصه ومزاياه في اجلى مظهر من الحق الصراح .

ولكن حركة القضية نحو النجاح وسير البلاد الى الغاية المنشودة من الرقي والفلاح دائبة مستمرة لا ننتظر ذلك اليوم الذي يسطع فيه نور الحقيقة على ابصار المضللين من مفتوني المعارضة . لقد نهضت الطبيعة بنفسها فقبضت على زمام القضية بيدها القوية تدفعها في سبيل التقدم - فمن ذا الذي يقوم في وجه الطبيعة يردها عن قصدها وغايتها ؟ وأي قوة بشرية تستطيع للطبيعة دفعاً أو مقاومة أو ليس اذا هبت على شيء ما ريح المدد والمعونة من جانب عرش الله اصبحت أقوال المعارضين في هذه الريح الشديدة هباء . وذهبت اراجيف المعاكسين في نفحاتها جفاء هذا بحر السياسة العجاج قد لان جانبه . وسكنت غواربه .

وسلس قياده . واطمأن مهاده . وقد سربت فيه الفلك وانسابت تمخر الى الامام عبابه . وتشق الى مرادها جلبابه . تزجيها ريح السلام ويهديها كوكب اليمن والتوفيق . فلترعد المعارضة ولتبرق . فما شيء من ذلك الصخب والضجيج بضائر الفلك في مجراها . أو صارفها عن قصدها ومبتغاها .

لقد ولجت البلاد باب الحرية سواء اعترفت بذلك المعارضة أم لم تعترف . وقد ملكت البلاد فوهة سبيل الاستقلال سواء شاءت المعارضة أن تصدق ذلك أم لم تشأ . وقد انبرت البلاد تجتاز تلك السبيل آمنت بذلك المعارضة أم لم تؤمن

لقد اعترف بالغاء الحماية وباستقلال البلاد في الداخل والخارج وأمنت على ذلك دول العالم وتواردت به التهاني من ملوك الارض وقد زال العهد القديم واندثر وطواه الدهر فيما لا يزال يطويه كل لحظة من هالكات هذا العالم وفانياته . فلن يرجع هذا العهد حتى يرجع أمس الدابر

وحتى يئوب القارظان كلاهما

وينشر في الموتى كليب بن وائل

وقد اطلق مدفع الاستقلال ـ ناقوس جنازة العهد القديم المندثر وبوق البشارة بميلاد العهد الجديد المبارك وكأن دويه

المستفيض يحمل صوت البشير مدمناً فى ظلمات الغيب الى ذرية المصريين من أهل المستقبل البعيد فى عالم الذرات متغلغلا الى الى أعماق الأبد :

الفصل الثالث

الحالة الحاضرة

واجب الامة فى موقفها الحالى

«من كان يسره التشبث بأهداب الامانى البعيدة والهيام وراء اشباح الخيالات فالعاقل من اغتبط بالشيء الواقع وان قصر عن مدى أمله ووقع دون غاية مبتغاه . وحسبه أن يكون ذلك الواقع منطوياً على عنصر الخير وجرثومة الفلاح

ألا ما أعظم الواقع المدرك الحاصل فى حوزة الامة وما أجل خطره وقيمته : أليس هو الدرة المستخلصة من أعماق بحر الخيال والجوهرة المستصفاة من غمار لج النظريات والاحتمالات . أليس هو ذلك الشيء الماثل أمامك حقيقة ثابتة مؤكدة لاريب فيها ولا شك ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؟ أليس هو الاساس الوطيد الذى تبنى عليه الامة نظام الحياة والعمل — والسلم المتين الذى عليه تسمو فى معارج الرقي والرفعة الى حيث يبلغ بها ما تبذله من المجهودات والمساعي ؟ لذلك كان من الحزم والحكمة أن تتشبث الامة بما يسوقه اليها الحظ من الخير الواقع

اشد تشبث وتندفع به جهدها وتستثمره وتتخذه وسيلة وسبباً الى غيره من الثمرات والفوائد بفضل الجد والعزم والمثابرة .

نحن لا ندعى أننا قد نلنا اقصى أمانينا القومية أو بلغنا غاية مطالبنا الوطنية . ولكننا نقول ونصرح أننا ادركنا شيئاً كثيرا ادركنا الاساس المتين الذى نستطيع أن نشيد عليه صرح الاستقلال التام بفضل الجد والمواظبة وملكنا فوهة السبيل الذى اذا تضافرنا على اجتياز اوعاره واقتحام عقباته ادانا بلا شك الى اقصى غايتنا المنشودة .

لذلك ترانا نعجب كل العجب وتمتلىء قلوبنا دهشة من الذين لا ينفكون ازاء هذه المغانم العظيمة والفوائد الجمة يصيحون أن حالتنا السياسية باقية على ماكانت عليه من قبل لم يطرأ عليها أدنى تغير . فهل يقول مثل هذا الا غافل عن الحقائق الناصعة والشواهد الملموسة او متغافل ؟

هل يشك مخلوق كائناً من كان ان بريطانيا بتصريحها الخطير (الذى اعترفت فيه بالغاء الحماية وباستقلال البلاد) قد محت من سجلات السياسة والتاريخ تلك الصحيفة السوداء التى كانت سجلت بها على مصر الحماية المشؤومة ـ فاصبحت مصر بفضل ذلك بلاداً مستقلة ذات سيادة فى نظر القانون الدولى وفى اعتبار الدول

جمعاء وأصبح من المفروض على الدول قانونًا أن تعامل مصر على هذه الصفة كما تعامل سائر البلدان المتمتعة بالاستقلال التام. ولمصر الآن كامل الحق فى طلب الانضمام الى عصبة الامم متى شاءت وفى صيرورتها ضمن أعضاء هذه العصبة. وأصبح غير محظور على الدول أن تعاملنا معاملة النظير للنظير وأن تراعى معنا كل ماهو متقرر بين بعض الدول والبعض الآخر من الحقوق والحرمات والواجبات فليس فى استطاعة الدول الآن أن تنكر وجودنا تماما فعلت حينما أوصدت فى وجهنا أبواب مؤتمر فرساى واعتبرتنا أمة عديمة الشخصية قاصرة لم تخرج بعد من طوق الحماية والوصاية بل لا تملك حق الكلام والتعبير عن ذات صدرها.

كل هذه المزايا العظيمة كانت الحماية تحول بيننا وبين التمتع بها. فقد زال هذا الحائل بزوال الحماية وأصبحنا فى حل من التمتع بها واجتناء عظيم ثمراتها.

هذه خطوة كبرى خطوناها فى سبيل الاستقلال التام. وبلغنا بها الشيء الكثير الذى لا يستطيع نكرانه الا غافل عن الحقيقة الناصعة أو متغافل. أما بقية أمانينا وتكملة مطالبنا والشيء الذى ينقص استقلالنا فهذا منطو فى المسائل التى احتفظت

بها بريطانيا معلق على تسويتها تسوية نهائية في المفاوضات المقبلة التي سيكون لبرلماننا الحق في تحديد موعد افتتاحها وانتخاب المفاوضين فيها والاشراف عليهم .

هـذه المسائل التي احتفظت بها بريطانيا لم يقل قائل ولا خطر على بال انسان انها قضاء محتوم لا دافع له او ضربة لازب باقية على الابد او أن بريطانيا قد احتفظت بها بصفة نهائية لا تقبل تحويلا ولا تغييرا . وانما هي شيء عارض لمدة مؤقتة اقتضته ظروف ذلك التطور السياسي العظيم كما ورد ذلك صراحة في تصريحها الخطير .

فاستقلالنا في الحالة الراهنة وحتى تتم التسوية النهائية بشأن هذه التحفظات في المفاوضات المقبلة التي سيشرف عليها البرلمان انما هو استقلال حكمي اكثر منه استقلالا فعليا وان كان قد انتج بعد نتائج فعلية عظيمة الشأن كالتي ألمعنا اليها آنفاً من ارتفاع الرقابة الانكليزية عن أعمال الحكومة في كافة أركان الحكم والادارة وكالذي يسري الآن في البلاد من مبدأ مسؤولية الوزارة أمام الشعب ممثلا في برلمانه المشروع في انشائه .

لذلك لا ندعي أننا قد نلنا أقصى أمانينا وانا قد بلغنا الغاية ولم يدع ذلك رجالنا العاملون المخلصون ولا أدعاه بطل النهضة

الحالية وفارس حلبتها دولة الرئيس العظيم ثروت باشا فقد أورد دولته فى غضون رده على تهنئة الحكومة البريطانية بمناسبة اعلان استقلال مصر هذه العبارة الآتية التى جمعت بين ادب الكاتب النحرير ودهاء السياسي القدير والتى يتألق فى ديباجتها المصقولة مع طلاوة ورقة الخطاب ولينه شعاع الوطنية الحارة ووهج الغيرة الملتهبة على مصلحة البلاد ومستقبل الاوطان فذكر دولته المركيز كرزون صاحب التلغراف الآنف الذكر (مع حسن رده على التهنئة بارق منها عبارة والطف اشارة) بذلك الأمر الجليل. وهو أن مصر لم تقنع بالحالة الراهنة وانها أشد ما كانت يقظة وانتباها ومطالبة بباقى حقوقها ـ فذلك حيث يقول دولة الرئيس فى ذلك الرد

« وأنا لنعرب لفخامتكم عن تقديرنا الجميل ما اظهرته حكومة صاحب الجلالة البريطانية واظهره البرلمان البريطانى من الميول الحسنة ونعتمد على هذه الميول فى الحصول على تسوية تامة المسألة المصرية تقع على أحسن وجه وادعاه للمحافظة على صلات الود والثقة بين البلدين واتنمية هذه الصلات»

نحن لا نقول لامتنا الكريمة قد ادركنا الغاية ونلنا المدى وبلغنا أقصى منتهى المنى والآمال فاحبسوا اعنة السعي واريحوا

مطايا الجهاد. وارخوا قسى النضال واغمدوا سيوف الجلاد. وافترشوا مهاد الراحة وتوسدوا وثار الدعة وتمرغوا فى حجور الصفو وتقلبوا بين اعطاف النعيم. ولو قلنا لهم ذلك لكنا لهم خادعين وبهم مغررين ولحق لهم اذذاك أن يتهمونا بما به يصموننا الآن زورا وبهتانا من التعمية والتضايل. ولكنا من وجهة اخرى لانقول مع جماعة المعارضين اننا على حالنا الأولى لم نتقدم قيد فتر ولم نتأخر ولا نجارى المغالين منهم فى زعمهم ماهوا كثر من ذلك اذ يقولون ما نلنا خيراً بل شراً ولم نتقدم خطوة نحو البغية بل تأخرنا خطوات وان الوزارة ـ معاذ الله ـ لاتناصر الأمة بل هي الى خذلانها اميل وان القادة الامجاد (الذين سخرهم الله لخدمة الشعب واظهار حجته وتأييد قضيته) لاينهضون بالوطن إلى ذروة المجد والعلاء بل يهبطون به ـ لاقدر الله ـ الى الوهدة. نحن لا نقول ذلك لانا لا نعتقده ولأنه غير الحق ولأن شفاهنا لاتطاوعنا على قوله وتنقطع من دون النطق به السنتنا ولو فعلت لكذبتها الدلائل الساطعة والشواهد الناصعة التى قد ابانت للملأ باوضح الادلة واثبتت للعالم بأظهر الآيات البينات أن حكومة اليوم هي غير حكومة الامس وان دولة رئيس الوزارة واصحاب المعالى زملاءه لم يتربعوا فى كراسى الحكم الاعلى شروط استمدوها

من الرأى العام وارادة الامة . وانه لو لم تعترف انكلترا بالغاء الحماية وباستقلال مصر لما قبلوا الوزارة ولما تسنى لجلالة الملك أن يكل اليهم العناية بأمر النظام الاساسي فهم من هذه الوجهة ومن وجهة مشاركة الامة فى كفاحها وجهادها لا يمكن فصلهم عن مجموع الامة واعتبارهم حكاما بالمعنى العتيق المنقرض يتحكمون فى الشعب تحكم العاسف المستبد الذى لا يحترم ارادة الامة ولا يعترف بسلطتها المقدسة . كما كانت الحال فى العهد السالف

ذلك عهد قد انقرض وباد . وقد اصبحنا اليوم فى عهد جديد . ميمون تتضافر فيه الامة والحكومة معاً على تقويض صرح الاستبداد ونسف دعائمه واستئصال جرثومته لنغرس شجرة الحرية المباركة اعنى شجرة سلطة الامة التى تزرعانها فى تربة الوطن العزيز بين رفات الاباء والاجداد وتسقيانها دماء الشهداء من ابناء الامة لتزكو على ضفاف النيل المبارك وتنفح ببرد ظلالها عظام العرب والفراعنة فى اجداثهم وتغدق على الابناء والذرية ثمارها اليانعة الجنية .

فالوزارة اليوم من الامة والامة من الوزارة . وهما فى الحقيقة كتلة لا تنقسم ووحدة لا تقبل التجزئة وحلقة مفرغة لا يعرف اين طرفاها — هذا من حيث الاخلاص فى الوطنية وصدق

الحمية وفرط الغيرة والتضحية والتفانى فى خدمة القضية وان اختلفت منهما الوسائل والذرائع ـ كل يؤدي فى خدمة الوطن وظيفته . فالحكومة ترسم الخطط والبرامج . وتمهد السبل والمناهج . كفرقة الكشافة فى الجيش العرمرم والامة من ورائها كالجند تتقدم وتزحف محتلة من المواقع الحصينة والاماكن الخطيرة مايذلله لها فرسان الطليعة .

بيد أنه لايفوت الامة ان هذه الطليعة أو الكشافة (أعنى الحكومة) قد لاتستطيع ـ ولا سيما فى مثل ظروفنا الاستثنائية المترتبة على تطورنا الفجائى ـ أن تنجز كل هذه الاعمال التمهيدية في بضعة أيام أو أشهر (مهما تاقت القلوب واولعت النفوس بسرعة هذا الانجاز) وانه لابد للجيش (أى الامة) أن يمهل طليعته الكشافة ويعطيها الكفاية من الوقت ملتمساً لها وجه العذر مقدراً حرج مركزها وصعوبة موقفها معاوناً لها بما قدره عليه الله من حسن المؤاتاة والمسامحة والملاينة والصبر الجميل والتأييد والتشجيع ـ ذاكراً تلك الكلمة المأثورة لرجل الدهر نابليون بونابرت « الدنيا بحذافيرها تنساق فى النهاية لمن يعرف كيف يصبر »

وجدير بالناس ان يذكروا هذه القاعدة الخطيرة وهي ان

الانقلابات السياسية لاتستلزم الغاء النواميس الجارية والدساتير السائدة ولا تستدعى هدم الكائن من نظم وتقاليدوايقاف سير ماهو نافذ من أحكام ولوائح فتصبح البلاد فوضى لانظام ولا قانون الى أن يتم انشاء البرلمان الجديد ويبنى عليه أساس الحكم في البلاد . فهذا مناقض لسنة العمران فى العالم ناقض لاسباب النظام والأمن والسلام . وهو مالا يكون ولا يمكن أن يكون أو يتأتى بحال من الاحوال : وهاهى الشواهد التاريخية تدلنا على أن الامم التى هبت من قبلنا تطالب بحريتها قد أصدرت يوم استقلالها أوامر بابقاء أحكامها العسكرية نافذة توثيقاً لاسباب الامن وتوطيداً لدعائم السلام وتوخياً لتنسيق أركان الحكم الجديد تحت لواء النظام .

جدير بكل فرد من أفراد الشعب أن يفطن تمام الفطنة الى حقيقة موقف الامة ودقة مركز الحكومة وضيق مأزقها ووعورة مسلكها وما يعترضها فى كل خطوة من المصاعب والمشاكل فيعطف عليها بكل ما أوتى من عواطف البر والكرم والمروءة . ويسلك معها سبيل المصابرة والتمهل لينظر ماسوف تصنع وما عساها أن تأتى وتذر وتحل وتعقد — حتى لايرمي بالتعجل فى الحكم وابراز الرأى فجاً غير ناضج .

نحن اليوم ازاء مشكلة من أعوص المشاكل لايتأتى حلها بسوى التعقل والروية والتبصر وذلك مالايتسنى الا فى جو صاف من الهدوء والسكينة تسود فيه الاناة والتؤدة ويشرق فى افقه سراج العقل المتبصر المتدبر ـ وأساس كل ذلك هو كما المعنا فى موضع سالف هدوء الخواطر وسكون الجوانح وثبات الجأش والجنوح الى الرفق واللين والهوادة والحسنى وتوخى أسباب الحلم والمجاملة والرقة فى الخطاب وأساليب الادب والملاطفة والدماثة فى مجال المناقشة والمناظرة ـ شأن أفراد الامم المهذبة الراقية التى يحق لها أن تفخر بسمو مكانها فى درج المدنية والحضارة

ان المشاغبات والمشاحنات واستثارة العداوات وبذر الشقاق ما كانت قط لتؤدى الى خير ولا لتتقدم بأمة خطوة نحو غايتها المنشودة ولا سيما اذا كانت أمة فى مثل مركزنا السياسى قد وضعت قدمها على فاتحة سبيل الاعمال والمجهودات العظيمة للوصول الى ماتبتغية من أقصى غايات الاستقلال التام.

نحن الآن أحوج مانكون الى العمل ـ الى العمل المنتج المثمر ـ الى عمل البناء والتعمير أو التشييد والتجديد. نحن الان أحوج مانكون الى تنظيم حركتنا وتنسيق نهضتنا بضم

شواردها وجمع شتاتها ولم شعثها وتسييرها فى منهج قاصد قويم يسود فى جوه العقل والنظام والحكمة والتدبير .

لقد انتهت حركتنا من دورها العاصف المنيف وجرت شأوها المحتدم المضطرم وأدت ماعليها من مهمة الهدم والنسف والتقويض ـ هدم الحماية ونسف دعائم الحكم المطاق وتقويض أركان التدخل الاجنبي . أجل . لقد انتهت حركتنا من دور الهدم والتدمير . وآن لها أن تدخل فى دور البناء والتعمير لقد هدمت برج الحكم الاجنبي ووضعت على انقاضه أساس الاستقلال ـ وقد آن لها أن تبذل أقصى الجهد فى أن تشيد على هذا الاساس صرح الاستقلال التام .

فكأن حركتنا كانت فى دورها الاول العنيف التأثر أشبه شيء بالسيل الجارف المنهمر المصطدم بالصخور والجلاميد المتوثب بين العقباب والاوعار ـ وهى في دورها الحالى الهادئ المطمئن يجب أن تكون مثل هذا السيل حيث ينتهى من الصخور والاوعار ويفضى الى أرض سهلة مستوية لكنها قفرة جرداء فعلى هذا السيل أن ينسكب فى فضائها متسلسلا منسجما هيناً ليناً ولكنه يكون مع ذلك قوياً شديداً جائشاً زخارا يؤدى ماعليه من واجب الرى والسقيا ووظيفة الاخصاب والانتاج فيحول

الجدب خصبا . والصخر عشبا . ويترك الفلاة الجرداء . جنة غناء .

وهذا ما لا يكون ويتم الا بالالفة والاتحاد وهما لا يتوافران الا بحصول الثقة المتبادلة بين عناصر الشعب وأحزابه ثم بين فئات الشعب كافة وحكومته . والثقة المتبادلة لا تتأتى ما دام سوء الظن متسربا الى النفوس . ومعلوم أن سوء الظن هو آفة الشعوب ولا سيما فى أدوار انقلاباتها السياسية وتطوراتها النظامية اذ في مثل هذه الظروف العصيبة تكون النفوس هائجة ثائرة والخواطر مضطربة قلقة ومتي كانت النفوس والخواطر كذلك أصبحت بيئة صالحة لجراثيم الريبة والتهمة تعشش فيها وتبيض وتفرخ منتجة الضغائن والاحقاد المؤدية الى اعظم الشرور والمضار

لا جدال فى أن ما ادركناه من الفوز السياسي الأخير وما اكتسبته القضية من النجاح والتأييد بما صارت اليه من المركز الحصين الجديد لجدير أن يعد من أعظم دواعى الابتهاج والاستبشار ولا جدال أيضاً فى أن هذا الابتهاج والاستبشار الذى نراه متفشياً في جانب عظيم من الامة ممن عصمهم الله من تأثير ما يروجه المتشائمون من باطل الاشاعات والاراجيف اذا ازداد تفشياً فى مجموع الامة وسرايانا فى أفئدتها وجوانحها كان

من اكبر أسباب النجاح وأعظم وسائل اليسر والتوفيق وأغزر مصادر الخير والبركة والفلاح ـ فانه لا خلاف فى أن روح الابتهاج والاستبشار من أقوي بواعث الهمم ومرهفات العزائم مما نحن بامس حاجة اليه فى موقفنا الحالى لاقتحام ما لا يزال يواجهنا من المصاعب والعقبات كما انه ليس أضر بنا فى الحالة الراهنة ولا افسد لقضيتنا من بث روح التشاؤم المثبطة للهمم والعزائم الموهنة للمجهودات والمساعى

وأي شىء ـ هداك الله ـ أجلب للخسارة والبوار وأدعى الى الفشل والخيبة من هبوط العزيمة وثبوط الهمة وأى شيء أشد اضاعة للحقوق وافساداً للامور واذهاباً للدولة والسلطان وابادة المجد والحسب مما تحدثه روح التشاؤم والسخط والضجر فى الامم والشعوب من خور القوى ووهن الارادة الداعيان الى داء التخاذل والتواكل والفتور والتواني ؟

وعلى العكس من ذلك أى شىء اجلب للغنم والفائدة وادعى الى النجح والفلاح وأجمع لشمل الامور وأحوط للسلطان والدولة واكسب المجد والحسب مما يورثه روح التفاؤل والاستبشار من تنبيه الهمم ونهضة العزائم الداعيان الى التناصر والتضافر ؟

بل أى شىء لا تستطيعه قوة العزيمة وبعد الهمة ؟ ان قوة

العزيمة لتوجد لكل باب موصد مفتاحا . ولكل شبهة مظلمة مصباحا . وتبرز كل شيء فى صورة جديدة وشكل مستحدث .

وقد رأينا الرجل القوي العزم المصمم المضاء يستطيع بشكل وقفته ازاء الحادث الجلل وبنبرة صوته وسط ملتطم الخطوب . ومصطدم الكروب . أن يأمر الداهية الدهياء المنهمر سيلها المتدفق تيارها . فتجمد وتقف . ويزجر الكارثة النكراء المنتشر شرها المتسيطر شررها فتخمد وتكف . وقد جاء فى المثل القديم «ينال الظفر من يرى نفسه قادراً على نيله»

أولم نر مثال هذا الرجل الماضى العزيمة فى شخص بطل النهضة الحالية عبد الخالق ثروت باشا ؛ ألم يقف هذا الرجل العظيم فى وجه الحادث الجلل وقفة من يشعر أنه يحمل بين جنبيه من روح الله ومدده ما هو أجل من الحادث الجلل ومن ردعه . وكفه وقمعه .

وحينما رفع ثروت باشا صوته المهيب يؤيد قضية وطنه ويطالب برد حقوقه المغتصبة ألم يسمع الملأ فى نبرات ذلك الصوت العميق تلك الرنة العاصفة القوية النافذة الى اعماق قلب الاستبداد القارعة حبة فؤاد السطوة والجبروت — ألم يسمع العالم فى نبرات ذلك الصوت المرهوب ذلك الدوى القاصف القاهر الغلاب الذي

ترتعد من هوله فرائص الظلم وينزوي من هيبته شبح الباطل المتسلط على الامم بسلاح الطغيان والعدوان ؟ — ألم يسمع العالم فى نبرات ذلك الصوت الجهير تلك الرنة المؤثرة العميقة التى اعتاد أن يسمعها فى صوت الطبيعة القاهر الغالب على كل قوة انسانية — فى صوت الرياح العاصفة . والرعود القاصفة . والموج الطامح . والسيل الجائح . ألم يلق هذا الصوت الهول فى نفوس الانكليز حتى ثار له ثائرة وقامت من أجله قيامتهم يوم نفرت أحزابهم ووثبت طوائفهم تفرق من صدى ما نادى به ذلك الصوت وتستكثر ما طلبه وما اشترطه — وضج برلمانهم من هول تلك الشروط والمطالب وصاحت جرائدهم وضجت تحذر القوم من الرضوخ لتلك المطالب وتعلن ان فى قبولها ما يؤذن بتهديد عظمة الامبراطورية وسلطانها واضعاف شأنها وكيانها ؟

ألم يملأ هذا الصوت قلوب المصريين فرحة وطربا ؟ ألم يستثر هممهم ويحفز عزائمهم ويفعم صدورهم بروح القوة والتأييد والتشجيع ؟ ألم يبن لنا هذا الصوت مبلغ تأثير روح الرجل العظيم فى أرواح الملايين من البشر ؟ وقوة سلطان شخصيته على شعورهم ووجدانهم ؟ ألم يثبت لنا هذا الصوت ان الرجل الفرد الذى يستطيع ببصره الناقب أن يلمح نتائج الشؤون وعواقب الامور من وراء حجب

الغيب ويستطيع أن يتبين اقصد الطارق وأسد المسالك الى تلك النتائج والعواقب خلال العقبات والقحم والمآزق ـ لهو فى الحقيقة خير من الف رجل بل هو المسيطر والمسير للامم والشعوب ممن لايستطيعون استبانة النتائج والعواقب ولا الاهتداء الى مايؤدى اليها من الاسباب والوسائل ؟

وماذا ترى يكون الاساس الذى يقوم عليه صدق النظر ونفاذ البصيرة فى عظماء الرجال أمثال ثروت باشا ؟ هو بلاشك رباطة الجأش وهدوء النفس فى الزعازع والزلازل . وذلك مايؤثر عن وزيرنا الجليل ثروت . لقد روى عن اكابر قواد العالم أن أحدهم كان يزداد سكينة وهدوءاً كلما ازدادت زوبعة القتال من حوله ثورة وهياجاً وأن القائد العظيم « مالبرا » كان ذهنه يظل اصفى مايكون وادق حساباً فى اشد ادوار الموقعة اضطراباً وارتباكا . وان بعضهم كان اذا انهزم جيشه وولي الادبار ووقع فيه من الهرج والمرج والتخبط والفوضي مايعترى الجيوش المدبرة ساعة الهزيمة بلغ من صفاء ذهنه فى تلك الساعة العصوف الهوجاء ودقة تفكيره وهدوء باله انه كان يستطيع رد تلك الفلول المنهزمة وضم شواردها وجمع شتاتها وتنظيم صفوفها والكر بها

فى ساحة الوغى على جيش العدو فى اتم نظام وادقه فربما تمكن
بعد ذلك من القبض على ناصية الحال ثم من هزيمة الاعداء.
ويروى عن نابليون الأول انه كان آية معجزة فى رباطة الجأش
وفرط الجلد والرزانة وذلك أنه خسر الدنيا بحذافيرها فلم يأبه لذلك
ولم يبل وكأنه لم يخسر الا دوراً فى لعبة النرد أو الشطرنج .

كل هذه الامثال ضربناها للقراء لنظهر بها فضل تلك الخلة
العظيمة أعنى رباطة الجأش وهدوء الدماغ فى الزوابع والزعازع
وانها أساس كل نجاح وسبب كل فلاح وأن عليها مدار نهضة
الامم والشعوب وتشييد مجدها ورفعتها وانقارن بها (اعنى بهذه
الامثال المضروبة) وافر نصيب ثروت باشا من هذه الخلة المجيدة
وجسيم حظه منها . ولنبين بها أن شر ماتبتلى به الأمم والافراد
فى أوقاتها العصيبة هو فقدان رباطة الجأش وهدوء الدماغ
الناشيء من خور القوى ووهن العزائم المتسبب عن بث روح
التشاؤم والسخط والقنوط فى أفراد الشعب وما أصدق ما قاله
أحد قواد الفرنس فى هذا الصدد « اذا فقد الرجل رباطة الجأش
وتملكه الذعر فغرب عنه عقله — كما هو شأن المروع المذعور —
أصبح لايدرى مايأتي ومايذر . فاذا ماسألت الله شيئاً فسله أن
يفر عليك عقلك كاملا . فانه مادام لك ذلك فما من خطر يهددك

أو كرب يحزبك الا كنت بفضل ذهنك جديراً أن تصيب منه مخرجاً بوجه ما . فاما اذا استحوذ عليك الروع وذهبت نفسك من الجزع شعاعاً فقد كتب لك الفشل والخيبة وسد فى وجهك باب النجاة والسلامة والفيت البر بحراً والبحر براً وحسبت الحبل ثعباناً والقطرة طوفاناً

كأن فجاج الأرض وهى عريضة
على الخائف المذعور كفة حابل
يؤتى اليه أن كل ثنية
تيممها ترمى اليه بنابل

واذا بصر بفرد من اعدائه خيل اليه انه يرى خميساً عرمرما مثله فى ذلك كالسكران ينظر الى الشمعة الواحدة فيخالها ألف شمعة .

هذه آفات الخبل الناجم من فقدان هدوء الدماغ ورباطة الجأش المتسبب عما يبثه جماعة المتطيرين فى بعض طبقات الشعب من روح التشاؤم والسخط والقنوط

فاين هذه الحال مما يجب أن يستشعره الشعب الناهض المطالب بحقوقه من روح التفاؤل والاستبشار والا بتهاج الموقظ للهمم والعزائم . الباعث على الخفة والنشاط وبارك الله فى العزم

والنشاط . ألم يقل الحكماء ان الدنيا تنساق للنشط المعتزم .والمنجرد المصمم ؟ الا ترى أن قوة الارادة ومضاء العزيمة تخلق له عينين جديدتين يرى بهما من ضروب الحيل والتدابير وصنوف الذرائع والوسائط مالم يكن يراه من قبل؟ هلا نظرت الى الرجل المتشائم الواهن العزم الفاتر الهمة كيف يجد نفسه مقروراً ويظل يرتعد ويرتعش وعليه مثـل جلد الفيل وفروة الدب من دافىء الثياب والملابس . ثم نظرت الى « الاسكيمو » ساكن القطب ـ ذلك المتفائل المبتهج المملوء مرحاً ونشاطاً كيف يصنع لنفسه ثياباً دفئة من البرد والبلل والثلج ذاته . افلا تعلم ـ علمت الخير ـ ان من المصاعب والاخطار ذاتها ومن الاهوال والمحن والمصائب يعرف الرجل المتفائل المرح العزوم كيف يخلق الاسباب والحيل لتذليل هـذه المصاعب وازالة هذه الاخطار وابادة تلك المحن والمصائب ؟ اليست الطبيعة ذاتها تلقى علينا هـذا الدرس حينما تراها تحفظ على البحيرات دفأها وحرارتها بتغطيتها بملاءة من الثلج وتصنع مثل ذلك باديم الأرض بتغشيته لحافاً من الجليد ؟

ان المتشائم يسكن الجنة فيصيرها من جراء سخطه وضجره وفتور عزمه وقلة حيله جهنما . ويسكن المتفائل النار فيصيرها بفضل انشراحه وارتياحه وبحدة نشاطه وقوة عزيمته وسعة تدبيره

وحيلته فردوساً .

ان الانسان بفطرته متفائل مجبول على الميل الى الاستبشار والانشراح والنشاط والعزم . وان هذا التفاؤل هو الذى يجعله صالحا لسكنى هذا الكوكب الأرضى الذى لايهب الانسان شيئًا على لزومه خطة التسخط والضجر وفتور الهمم والعزائم ولكنه يسخو له بكل شيء على التزام سنة التفاؤل والابتهاج ومايورثانه من سعة التدبير والحيلة . فابناء البشر باعتبارهم متفائلين نشطين ترى كل فرد منهم كأنه مجموعة قوى وجمهرة كفاءآت – فتخاله قضيب مغناطيس فوق كرة من حديد . فكل انسان فى هذا الوجود كأنه مبدع ومخترع قد ابحر فى سياحة استكشافية . يسترشد بخريطة ذهنه الخاصة التى لايوجد لها نظير مع غيره من سائر البشر . وهذا العالم الأرضى يظل فى نظر المتفائل وكله ابواب ومنافذ ومسالك – وكله فرص ونهز ومغانم – وكله حساس وكأن فى كل موضع منه وترا مشدودا يجاوب بالنغمة المطربة كل عزفة عازف . وهذه الأرض الصخرية الصلدة هي فى الحقيقة جوهر حي حساس يفيض روحا وشعورا يتأثر بكل لمسة . ويحاوب على كل مسة وجسة . وسواء سبرت غوره بمحراث آدم أو سيف قيصر أو قارب كولومبو أو مرصد غاليلو أو

منطاد زبلين فلابد أن يجاوبك على كل واحدة من هذه التجارب باعظم جواب واروعه .

كذلك جبل ابناء البشر على التفاؤل وعلى أن يستثمروا بفضله وبفضل مايورثه من القوة والمقدرة صخرة الأرض الصلدة ويسخروا الطبيعة الهائلة في قضاء اوطارهم ومآربهم وعلى أن يغتبطوا ويفرحوا برؤيتهم انتصار الانسان على الطبيعة وسيطرته على العناصر وبرؤيتهم أن كل رجل متفائل سليم الفطرة قوي الارادة يظل مصلحا منظما ويكون كأنه قانون افضى الى تشويش وفوضى فاستخلص منه نظاما وصلاحا .

وجبل الناس أيضاً باعتبارهم متفائلين نشطين على الاغتباط والفرح باستعراض ثروة الطبيعة العظمى وكنوزها العديدة وبرؤية هذه الذخائر الجمة يتناول من كل متفائل مستبشر من سكان هذا العالم . ولاجرم فذلك يفجر في قلوب الناس ينابيع الامل ويستحثهم الى المباراة والمساجلة في سبل النشاط والهمة

وعلى ضد ذلك التشاؤم فانه داعية الفتور والتبلد ومجلبة العجز والتقاعد . وقدما قيل ان انقباض التشاؤم يفقأ الاعين ويشل الذهن فهو خليق أن يعد انتحارا تدريجيا

وأي خير ـ اصلحك الله ـ في بث روح التشاؤم والاكتئاب

فى افراد الشعب وأي بركة في تشويه جمال الحياة فى اعينهم وفى تغشية ابصارهم ذلك المنظار الأسود الذى يبرز لهم كل شيء فى رداء قاتم ويكسو عروس الطبيعة الحسناء ثوب حداد . ويحيل عرسها الدائم المتجدد مأتما ويرد بشيرها نعيا. ويحدث فى السلسل الزلال اقذاء وفى مذاق الشهد الجنى مرارة وفي انسجام النغمة الرخيمة تنافرا ويطلع فى وجنة الشمس الصقيلة نكتة سوداء ويجرى نجوم السعود بالشؤم ويريك المشترى ضمن كواكب النحس !

ولكن الخير كله والنعيم والسعادة فى مذهب التفاؤل القائل بأن هذا العالم ملك للمؤمل المجتهد وان لكل بغية وسيلة ولكل غاية سبيلا وان كل امرىء يحمل في يده مفتاحا لاغلاق خزائن الطبيعة وفخا لاحتبال صيدها .

فقل للمتشائمين من ابناء هذه الامة وغيرها من شعوب العالم ـ لا تشاؤم ولا اكتئاب ولا تسخط ولا تبرم. فهذا العالم الذى تعيشون عليه وتسعون في مناكبه انما هو مصنع هائل مفعم بالقوة بافلاكه الدائرة وفصوله وازمانه ومده وجزره ومكينة العالم الضخمة لهائلة تملأ الفضاء عرضها السموات والارض وهى محكمة البناء دقيقة التركيب لا يعتريها الفساد ولا يتطارق

اليها والوهن والخلل ـ وهي لا تزال تصلح نفسها بنفسها بقدرة كامنة فى كل ذرة من ذراتها ـ وهي تصنع كل شيء وتقدر على كل شيء ـ فهذا عنصر الماء اتراه يعجز عن حمل أي ثقل مهما عظم ؟ وهب ان هناك ثقلا يعي الماء حمله فهذا البخار امامك فجربه أو دعك من هذا وجرب الكهرباء مثلا . فهل ترى بعد ذلك لذخائر الطبيعة نفادا . وهل حاولت مرة ان تزن بالقناطير مقدار ما تسكب القناة الصغيرة الجارية فى مزرعتك من كميات المياه ؟ اجل انه لا نفاد لثروة العالم وانه لاشيء فى الحقيقة عظيم هائل العظم الا كنوز الطبيعة . هذا على ان الطبيعة لاتبدى لنا سوى قشورها وسطوحها وهي من تحت ذلك بعيدة الاغوار يقدر عمقها بملايين الفراسخ .

الا أن الحزم والحكمة فى التفاؤل والانشراح وان التشاؤم دليل الحمق والجمود . ولقد يكون من السهل على جماعة المتشائمين أن يحقروا مذهب التفاؤل وارباه ويلاحظوهم بعين الازدراء ادعاء للفطنة والكياسة وتظاهراً بالارب والدهاء ولكنى أرى أن آمال المتفائلين المشرقة وأمانيهم البراقة وما يزخرفه خيالهم من قصور الهواء المونقة أحسن الف مرة واعود بالخير والنفع واجلب للرخاء والدعة مما لايزال المتشائم يحفره من جحور السخط

والضجر وسجون الهم والشقاء .

ماذا يستفيد العالم من أولئك المتشائمين الذين لايبرحون يبصرون فى كبد السماء فوق رؤوسهم كوكباً أسود يتخلل لألاء الضياء بالسحب البهيجة الالوان . وربما احتجب آونة وراء مايمر دونه من أمواج النور ولكنه لايلبث أن يعود ظاهراً أقبح ما كان وأشد سوادا .

وعلى خلاف ذلك التفاؤل فانه منبع الحول والقوة والباعث المحرض على السعي والعمل . وعندى ان الرجل الذى لايجعل همه تحبيب الحياة والطبيعة الى الناس باظهارها لانظارهم في أحسن صورة وأجمل مظهر كان موته خيراً من بقائه . وعدمه أنفع من وجوده

التشاؤم مرض والتفاؤل صحة . والصحة شريطة العقل وأساس الحكمة . والابتهاج آية ذلك وامارته . والبر الكريم والاريب اللبيب هو من حرك فيك نسيم الامل واشعر قلبك روح الثقة وبرد اليقين وعتقك من رق الهم . لامن أذاقك مرارة الجزع وجرعك غصة الكرب واشعر فؤادك ذل الخوف ومضاضة اليأس .

وانما كان الابتهاج والانشراح وسيلة النجح وسبب الفوز

فى هذه الحياة لأنه سنة الطبيعة ومنهجها ويخيل الى أن الفرح والسرور هو روح الطبيعة ومنبع حياة الكون ولعلك اذا استطعت أن تنفذ ببصرك الى صميم قلب الوجود ألفيت ذلك القلب يدفع لدى كل نبضة من نبضاته تيار السرور الزاخر فى كل وريد وشريان من اوعية جثمان الكون حتى يظل نظام الكائنات بجذافيره مغموراً بفيوض الفرح وسيول الحبور يدفق بأمواجها الطامية ويفهق . فلن ترى فى نواحى الكون موضعاً مهما خلته جديبا الا ما كان فى الحقيقة مفعما بالخير والبركة . فأفقر مكان يحتوى من الثراء مالا يكاد يحصى مقداره . وأجدب محل لا تستنفد حاصلاته ولا يفرغ من اجتناء ريعه وثمرته .

وكل صوت من أصوات الطبيعة ينتهى بلحن ويختم بنغمة . وكل صفحة من صفحاتها تزخرف حافاتها وتدبج حواشيها الصبغ الجميلة والالوان البهجة

لا تعلق على جدارك الصور الكئيبة المحزنة ولا تلوث أحاديثك بسواد الشكوى وظلمة التشاؤم . ولا تكثرن من الضجيج والانين والتأفف والتلهف والتحسر والتضجر . وكن على أن تظل صناجة تطرب الملأ بموسيقى الولائم . أحرص منك على أن تبيت نواحة تبكى الجماهير بمراثى المأتم . ولا يصدرن عنك

من المقال والفعال الا ماجدد من أمل . أو خفز الى عمل . أو استنهض همة . أو استثار عزمة .

من كل ماتقدم يستنتج اننا فى موقفنا الحالى ازاء مايعترضنا من العقبات وما يكتنفنا من المصاعب نظل أحوج مانكون الى من يبعث فينا روح التفاؤل ويضىء قلوبنا بشعاع البشر والانشراح ويذكى فى صدورنا جذوة الامل ويطلع علينافى أفق السياسة كواكب الرجاء هداية لنا فى مسالكها الوعرة ومجاهلها المضلة فيملأ نفوسنا بذلك ثقة وايمانا ويشعرها قوة الثبات وعزة اليقين والاعتماد على النفس والاعتداد بالذات مما ينبه الهمم ويوقظ العزائم ويحفز الى جسيم الاعمال وجليل المساعى .

أما خطة التشاؤم والتطير فلاأرى لها البتة مسوغاً ولا مبرراً ولا سيما فى حالتنا الراهنة التى ليس فيها ما يدعو الى التشاؤم أو يبعث على الخوف والفزع كما بينا وأوضحنا فيما سلف فقد اتضح انه ليس لفريق المعارضة المتشائمة من علة أو حجة على مالا يألون جهدهم فى نشره وترويجه من الاشاعات والاراجيف والريب والتهم وسيئات الظنون بالمخلصين الغيورين من جلة رجال هذا البلد وخوله وصفوة ثقاته ودهاته الا آفة الغرض والهوى . وقد ما ادرك الناس أن المرء اذا اسلم زمام ارادته لقائد الغرض والقى عنان

مشيئته فى قبضة الهوى فقد نبذ طاعة الحق وخرج عليه فليس تغنى معه محاجة ولا مناظرة ولا يفلح فى اقناعه وافحامه الحجة الناصعة والبرهان القاطع

لذلك تراه اذا أراد نشر أباطيله وترويج أضاليله انصرف عن مجالات أهل الرأى والحجى ودوائر ذوى اللب والنهى من النافذى البصر الثاقبي الفطنة والذكاء الذين يصولون بأمضى سلاح من المنطق والقياس . ويكشفون دياجير الاشكال والالباس . باسطع سراج من الدليل المشرق وابهر نبراس . فتحول عن هؤلاء الى جماهير العامة والنساء والصبيان الذين قد يسهل عليه اقناعهم لا باسالب المنطق والقياس ولكن بقوة التأثير على العواطف والاحساسات (كما اوضحنا ذلك باسهاب فيما سبق من فصول هذا السفر) بل بقوة التكرار والالحاح وشدة الاصرار والعناد حتى يخبل أذهان من يتسلط عليه من البسطاء الذين يصبحون لفرط تأثير هذا التسلط يتهمون عقولهم بل يتهمون حواسهم ويغالطون أنفسهم عن الحقائق الناصعة الساطعة ويخدعونها عن الشاهد الناطق والواقع الملموس

وهنا يجدر بى أن أورد فكاهة قصصية أراها أصدق مثل يضرب لتمثيل هذه الحالة الاليمة

جاء فى الاساطير القديمة ان برهميا تقياً نذر للالهة نذراً أن يضحى بشاة فى يوم محدود ثم خرج فى ذلك اليوم ليشترى شاة وفاء بنذره . وكان فى جواره ثلاثة رجال قد عرفوا شأن هـذا الناسك وما كان قد نذر للالهة فرأوا فى ذلك فرصة انتفاع لم يحبوا أن تفلت من أيديهم فانبرى له أحدهم نخاطبه قائلا « أيها البرهمى اذاهب أنت لابتياع شاة تضحيها » ؟

قال البرهمى « أى وربي ما خرجت اليوم الا لهذا الغرض » فحينذاك فتح الرجل جراباً كان يتأبطه واستخرج منـه حيوانا مشوهاً ـ كلباً ضريراً أعرج . فصاح به البرهمى « ويلك ياخبيث يا من يدنس كفه بلمس القاذر ولسانه بافتراء الا كاذيب ! أتسمي هذا الكلب النجس شاة ؟ فأجابه الرجل بمنتهى الجرأة والثبات « أى والله ومن اكرم صنوف الغنم ـ من انعمها صوفاً وأطيبها لحماً . ايها البرهمي اغتنم ماساقه اليك الحظ من هـذه الهدية النفسية وأسرع بتضحيتها تكسب بها أحسن الاجر والثواب من الالهة » فقال البرهمي « هدانا الله واياك يا رجل . لا بد أن يكون أحدنا قد أصيب بالعمى » .

في هـذه اللحظة قدم عليهما ثاني الثلاثة المتآمرين فصاح كالفرح الجذلان « لله مزيد الحمد والشكر . هـذه شاة من

اكرم الغنم . لقد كفيت مؤونة الذهاب الى السوق ومشقة مزاحمة الناس هنالك . بكم تبيع هذه الشاة يا رجل ؟ » فاما سمع البرهمي ذلك الكلام أخذه دوار فى رأسه وهفا ذهنه على ارجوحة الشك يعلو ويهبط ولعبت به موجة قلقة من الحيرة تطفو به وترسب . فخاطب القادم الجديد قائلا « مهلا يا هذا وتدبر ماتقول وما تزعم . هذه ليست بشاة ولكن كلباً دنسا مشوها » فاجاب القادم الجديد بقوله « ويحك ايها البرهمى ما أحسبك الاسكران أو مجنونا »

فى هذه الآونة دلف اليهم ثالث المتآمرين فقال البرهمى « اذن فلنحكم هذا القادم فى الامر . وقد عاهدت الله أن أقبل حكمه » فوافقه الرجلان على ذلك . ونادى البرهمى الرجل القادم « خبرنا يا أخي ما ذا تسمى هذا الحيوان ؟ فأجابه الرجل بقوله « أيها البرهمى هـذه بلا أدنى شك شاة مليحة » فقال البرهمى « لا ريب ان الالهة قد سلبتنى حواسى » . ثم اعتذر الى صاحب الكلب واستسمحه واشترى منه الحيوان القذر بثمن جيد وضحاه للالهة فاستغضبها فرمته بداء خبيث فى مفاصله

هذه فكاهة واضحة الغرض بينة المغزى تشير الى مبلغ تساط ذوى الغايات في كل زمان ومكان على عقول البسطاء بمحض

الكلام والاغراء والمغالطة . ولعلها أصدق مثل ينعت ما نكابده الآن من تأثير المعارضة المتشائمة على العامة والنساء والصبيان وزجهم في متاهة التضليل والتغرير بما يروجون بينهم من الاشاعات والاراجيف مع شدة ظهور بطلانها وفرط وضوح زورها ومنافاتها للواقع الملموس. ولكن ذوى الغايات والاغراض لن يعدموا في كل آن ومكان من جمهور الناس من يستطيعون خدعه عن الحقائق المدهشة المحسوسة حتى يحملوه على الاعتقاد بعكس ما تعرضه عليه عينه وأذنه وبضد ما يكيفه له ذوقه ولمسه تكذيبا لوحي شعوره وشاهد حسه. حتى تراه يسمى التمر جمراً . والفجر عصراً . ويحلف لك أن العسل مر بالرغم من حلاوته فى فمه . وان الطيب نتنا مع عبق اريجه فى شمه وان الغزال فيلا على الرغم من غيده وحوره. وان الكلب شاة وان عرف نفسه للابله بنباحه وضموره

ولكن الحق ابلج والباطل لجلج . والا كاذيب فى هذه الحياة محكوم عليها بالفشل فى النهاية مهما نجحت مؤقتا وبالكساد مهما راجت حينا . وهي كما نوهنا سابقا مكتوب عليها الحكم بالاعدام فى صحيفة الاقدار وسجل الازل ـ مهما تراخت مدتها وطال أجلها

وما دامت وزارة ثروت باشا لاتبرح - كما نراها الآن - تقدم للامـة فى كل يوم وليلة دليـلا صادقاً على تنفيذ خططها وبرامجها وعلى المسير بالبـلاد نحو بغيتها وغايتها . وما دمنا نرى رئيسها الجليل ثروت لايزال يسوق من ناصع الادلة على شدة اخلاصه للوطن وفرط غيرته على مجده وحسن عطفه على أهليه وادمانه السعى الحثيث فى تقريبه من أمله وادنائه من أمانيه يقطع بذلك النهار جهاداً . والليل سهاداً . - أقول مادمنا نرى بطل النهضة الحالية ثروت باشا لاينفك يزاف الى ابناء وطنه من بينات الآيات على بعد همته ومضاء عزمته وعظم بطولته مايجعله خليقاً بقول الطائى

كل يوم تبـدى صروف الليالى
خلقاً من ابى سعيد عجيبا
طاب فيـه المديح والتذ حتى
فاق وصف الديار والتشبيبا

اقول ما دامت هـذه حال الوزارة الحاضرة من صدق الاخلاص للوطن وحرارة الغيرة على مصلحته وشدة التفانى فى سبيل خدمته كما تشهد بذلك الادلة المتوالية والشواهد المتواترة المتتالية فلن يبعد ذلك اليوم الذي تصبح فيه آيات الحق الساطعة

قد محقت أشباح الترهات البسابس . وعقائد اليقين والايمان قد بددت هواجس الريب والوساوس . فيهتدي ضلول ويرشد غوى ويؤمن مشكك ويذعن مكابر وتنقشع عن أعين غشاواتها فتبصر وعن آذان سداداتها فتسمع..

لقد المعنا فيما يسبق من فصول هـذا السفر أن من أقطع الادلة على مضي الوزارة فى تنفيذ برنامجها توليها الامر بنفسها فى حكم البـلاد وادارتها بشكل ظاهر ملموس لا يقبل ارتيابا ولا تشككا على الرغم مما لاتنفك تدعيه المعارضة المتشائمة (فى وجه البراهين الساطعة) من أن الوزارة لم تصنع شيئاً من هذا القبيل ولم تزل مسيرة يتصرف فيها الموظفون الانجليز آلة في أيديهم يحركونها كما شاؤا وشاءت أهواؤهم .

تحتج المعارضة على زعمها هذا بحجة واهنة مفندة وهى بقاء عـدد مذكور من الموظفين الاجانب فى الدوائر الاميرية . فهل هذا يدل على تحكم العنصر الاجنبي فى ارادة الوزراء بسحب السلطة من أيديهم واتخاذهم لعبا وآلات لاحول لها ولا قوة ؟ ان الوزارة لاترى من الحكمة ولا من المعقول الاستغناء عن كل موظفيها الاجانب فى يوم أو بعض يوم . فان لهؤلاء الاجانب اطلاعا على

أسرار حركة الادارة ووقوفاً على خفاياها ومعرفة عميقة بدقائق تركيب مكينة الحكومة وتصاريف حركاتها . فمن الخرق والحماقة أن تتخلص الوزارة منهم دفعة واحدة بين عشية وضحاها لما هو محتم أن يسببه مثل هذا التسرع والتهور من اضطراب أسباب الادارة وارتباك دولاب العمل .

وماذا علينا من بقاء أولئك الموظفين الاجانب مادام ذلك مؤقتاً الى حين ومادام زمام الادارة العامة فى قبضة الرؤساء الوطنيين تحت اشراف الوزير الواضع الخطط والبرامج المنفذ لها المسؤول عنها . وماذا يهمنا بقاء هذا العنصر الاجنبي مادام لاحول له ولا قوة ولا يملك ضراً ولا نفعاً وليس له أن يتصرف فى الادارة العامة حلا وعقداً وابراماً ونقضاً .

وما أحسب أن هناك شيئاً أدل على حقيقة هذه الحال الذى نصفها ونشرحها من ذلك المنشور الذى وزعه وزير المالية على رؤساء المصالح مقرراً فيه مسؤولية الوزارة وتوليها العمل بنفسها بطريقة واضحة لاغبار عليها للشك ولا ظل للشبهة والريبة وهذا نصه

« ان وزير المالية هو الذى يلي ويراقب السياسة المالية العامة وهو المسئول نهائياً عن اعمال جميع المصالح التابعة له . لذلك يطلب

الى رؤساء المصالح .

أولا ـ أن لا يتخطوا السلطة المخولة لهم الى ماهو من اختصاص الوزير ووكلائه فيما يتعلق بتعهدات تربط الحكومة أو باتخاذ قرارات أو ابداء آراء قاطعة فى مسائل خطيرة

ثانياً ـ أن لا يستعملوا السلطة المخولة لهم ضمن دائرة اختصاصهم فيما قد يكون فيه مساس بالسياسة العامة .

ولما كان يصعب تحديد هذه المسائل بتفاصيلها منذ الآن فانه يحسن برؤساء المصالح أن يكونوا على اتصال بوزير المالية اما شخصياً واما كتابة ليأخذوا رأيه فى المسائل الهامة التي تعرض لهم »

أتريد المعارضة بعد هذا دليلا على أن الوزارة قد تولت الامر بنفسها وقبضت على أزمة الشؤون ودفة الاعمال ؟ أم تطلب المعارضة برهاناً بعد ماعرفه الملأ أجمع من قيام معالى وزير المالية اسماعيل صدقي باشا عقب تأليف الوزارة الحالية بفحص ميزانية هذا العام قبل اصدارها ببضعة أسابيع وبحثها وتمحيصها ودرس أصولها . وفروعها وفصولها . على ضيق وقته وفادح اعباء واجباته الاخرى . مما لم يعهد فى وزير مصرى قبله

وعلى هذا النحو يسير سائر الوزراء فى وزاراتهم اذ يأخذون

فى فحص أعمال تلك الوزارات ودرس شؤون مايتبعهامن المصالح بجد وحدوهمة لاتعرف الكلل . ولايعرفها السأم والملل . ليضعوا من خطط العمل وبرامجه مايمكنهم من الاستقلال التام باعباء العمل دون أدنى احتياج الى معونة الموظف الاجنبي مهما علا قدره وسمت رتبته .

أجل لقد سار الوزراء شوطاً بعيداً . وجروا شأواً واسعاً مديداً في تولى الأمور بانفسهم وادارة دولاب الاعمال وتدبير دفته كل في مجاله وميدانه ـ ادارة الناهض بالثقل . المستقل بفادح العبء والحمل . المحتمل كل ماعسى أن تسوقه اليه عواقب أعماله من التبعات والمسؤولية .

ومالنا لانعلن الحق ونعترف بالواقع وذلك أن الشعب عامة وموظفي الحكومة الوطنيين خاصة قد أخذوا يشعرون فى عهد الوزارة الحالية بأن يداً حديدية بطاشة كانت تأخذ بخنقهم قد انسحبت من حول أعناقهم ووطأة ثقيلة باهظة كانت تضغط على متنفسهم قد رفعت عن صدورهم وان كابوساً فادحاً كان يجثم على قلوبهم قد رنق جناحيه للمطير ثم حلق . وجذوة حامية كانت تأجج فوق اكبادهم قد خمدت فاطفئت . كيف لاوقد كان الموظف البريطانى مهما صغر قدره وانحطت رتبته في العهد السالف

المندثر ربما غلب رأيه على رأى الوزير فنفذ برغم ارادة الوزير مشيئته . لقد كنا فى ذلك العهد نجزع من امثال هذه البلايا ونأسف ونطأطىء ذلة وانكسارا فنسيغ الشجى . ونغضى على القذى . ونتقلب على جمر الغضا . اترانا اليوم لا نزال على هذه الحال أم ترانا نتيه ادلالا . ونشمخ عزة وجلالا . ونرنح الاعطاف فرحا ونمشى فى الأرض مرحا . وكيف تجوز المقارنة بين حال كنا نختنق فيها اختناقا مكبلين باغلال الرق فى أضيق سجون الاستبداد الاجنبى وبين حال اصبحنا ننشق فيها نسيم الحرية فى فضاء الاستقلال الرحيب ؟ وأين الضعف من القوة والمهانة من العزة والوثبة من الركود . والنهضة من الجمود .

شتان مايومى على كورها ويوم حيان اخى جابر
فى مجدل شيد بنيانه يزل عنه ظفر الطائر
لايجعل الجد الظنون الذى جنب صوب اللجب الماطر
مثل الفراتى اذا ما طما يقذف بالبوصى والماهر

فما بال اقوام لايحمدون الله على هذا الفضل العظيم والمنة المضاعفة وما بالهم لايعترفون بالفضل لذويه ممن ساق الله بواسطتهم وعلى أيديهم هذا الفوز العظيم والنجاح الباهر . أو قد خلت قلوب من عواطف الشكر واقفرت نفوس من غريزة الاقرار

بالفضل والاعتراف بالجميل ؟ أم هي برودة الحقد والكراهية قد جمدت ينابيع الاريحة والشعور فى قلوب الناس وعصفات الضغينة والبغضاء القارة القارسة قد ثلجت انهار الاحساس فى نفوسهم . فوقف تيارها وانحبس فيضها .

ان أس الفضل والكرم والنبل والشرف والبر والمروءة فى هذه الحياة هي شكر النعمة والاعتراف بالجميل وان أصل الرذائل ومصدر الخبائث وينبوع المنكرات والمفاسد وعنوان الضعة والخسة وشعار اللؤم والنذالة وعلامة الغدر والفجور هو كفران النعمة ونكران الجميل . ومن ثم ما نراه يملأ الكتب المقدسة من كثرة الحض على شكر الاء الله ونعمائه والنهي عن جحودها ونكرانها مع شدة غنائه عز وجل عن ثناء العباد وعدم تأذيه او تأثره ــ سبحانه وتعالى ــ بنكرانهم وجحودهم ولكنه علم ــ عز شأنه ــ ان الشكر مصدر الخير كله فحث عليه . وان الكفران منبع الشر أجمع فنهى عنه

وقد قال الحكماء : الأصل فى الدنيا انها هيكل ومعبد يقوم فيه الناس بتقديس شيء واحد ألا وهو « حضرة الرجل الفاضل المخلص الهمام » وشكر ما يسدي اليهم من غر آلائه . وجزيل نعمائه . اجل ان هذه الدنيا لتنطوي على شيء واحد ــ هو الجدير

بحق أن يسمى الالهي المقدس ـ اذ هو عنصر كل ظاهرة الهيـة مقدسة في هـذا الوجود ـ وأعنى بذلك الشيء هو ما يشعر به الناس فى أعماق قلوبهم من عاطفة الاجلال والاعظام نحو الابطال الاماجد فى كل زمان ومكان . فهذه الخلة القدسية الالهيـة هي الدليل الباهر على سريان روح الله ورضوانه بين ظهرانينا وعلى وجود ملكوته الاعلى فوق أديم هذه الارض المستضعفة المنكوبة.

فحيثما خلت الارض من هـذه العاطفة الشريفة ـ لاجلال الفضل والكرم والمروءة فى أهلها من عظماء العالم وأبطاله ـ فقد احتجب نور الله عن هذه البقعة وقد حيل ما بينها وبين ملكوت السموات . وقد حلت عليها نقمة الجبار ولعنته . بما قد أقفرت من أس المكارم وينبوع الفضائل . وايما بقعة من أرض الله كان هذا شأنها وتلك حالها فأى خير فيها وفى أهلها وأى غبطة في معاشرتهم ومجاورتهم أو ثمرة في مخالطتهم ومعاملتهم . فقد وجب على البر الكريم أن يغادرها لتوه وساعته واهبا للشيطان الرجيم نصيبه منها ومن أهلها وعليها وعليهم العفاء ما بقوا وما بقيت كذلك !

جبل الانسان على الطرب الى رؤية الجمال والجلال حيث كانا . والفرح بمشاهدة الرائع المليح والتلذذ باكبار البارع الفائق ـ غريزة في نفوس البشر . بل ان الاعجاب الصادق الحق لجدير أن

يحرر الروح البشرية ـ ولو برهة ـ من اغلال سخافات الحياة ويصفيها من شوائب خباثها ودناياها . ولذلك قيل ان الناس يولدن من بطون أمهاتهم عبادا ـ فهم لا مندوحة لهم عن العبادة حيثما أصابوا اليها موضعاً . ولقد يطيق الانسان أن يعبد الشيء الصغير اذا كان حقاً . فأما الباطل فذلك ما لا يطيق اجلاله وعبادته مهما أصم الآذان بطنينه الاجوف واستطار الابصار بزبرجه المموه . وأي منظر ـ أصلحك الله ـ ادعى للرحمة والرثاء من منظر الجماهير والجماعات يزدحمون لالقاء نظرات الاعجاب والاجلال الى مواكب الملوك واحتفالات الزعماء وامثال ذلك من مظاهر الفخامة المزورة والابهة الكاذبة ـ وليس في هذه الجماهير المحتشدة والجموع المتكاثفة الا من تتوق نفسه الى بذل عواطف الاحترام والاعظام واداء فرائض الاجلال والتقديس . ولكن كم منهم يعود ادراجه مطرقاً كئيباً يشكو إلى الله خيبة آماله فيما كان قد حسب وقدر . وشدة هبوط ما يبصره من الحقيقة دون ما كان قد تخيل وتوهم . « وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الافلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هـذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن

من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون »

ان مذهب الناس فى اجلال العظماء هو فى الواقع قطب رحى حياتهم وعنصر كيانها وعليه تترتب سائر فروعها وأركانها وعلى حسبه تتكيف جميع فصولها وادوارها ـ سواء فى محافلهم العامة وسوامرهم الخاصة ـ بين مساجدهم وكنائسهم واسواقهم .
فليكن مذهبك فى اجلال العظماء أن تحرص الحرص كله على الاهتداء الى العظيم بحق الصادق البطولة ذى الفضل الخالص لا المزيف فانك ان اهتديت الى ذلك كان اجلالك حرا صادقا فادركت الخير كله والبر بحذافيره وكان النجاح مسعاك . وان كان اجلالك كاذبا حداك إلى البطل الكاذب فاوسعته اكبارا واعظاما فذهبت مع الشيطان كل مذهب . وركبت من الضلال كل مركب . واستحقيت الاثم كله والشر أجمع وبؤت بالخيبة والخذلان والخسارة . الا فويل للناس إذا عميت منهم قلوب وبصائر فجازت عليهم أكاذيب أدعياء البطولة ثم خفيت عليهم مواطن العظمة الحقيقية فتهافتوا على مظاهرها الكاذبة ! إذن لساد الباطل وفسد الجم الكثير من مصالح هذه الحياة ومرافقها وحل به الدمار والتلف وظلت تعبث به أيدى البلى برأى من الناس من حيث

لا يشعرون بذلك ولا يفطنون اليه . ذلك لان هذه الحياة الدنيا انما هى دار جد واخلاص وليست بألعوبة ولا أخدوعة ولكن حقيقة من أخطر الحقائق .

قال توماس كارليل : « ان الابطال مابرحوا موضع اجلال الناس حتى فى هذه العصور الفاسدة الاخيرة . ولعل الانسان لم تتحرك فى روحه عاطفة هى أطهر وأنقى . وأبر وأتقى . من اجلاله لمن هو أعظم منه قدرا . وأجل خطرا . وما أرانى مغاليا اذ قلت ان هذه العاطفة هى الأثر الفعال فى حياة البشر أو انها الأساس الذى تقوم عليه الاديان سواء الوثنيات وما هو أرقى وأفضل من الديانات الاخرى . فهذه الديانة النصرانية هل ترونها فى عنصرها وجوهرها سوى اجلال واعجاب وضراعة وخشوع لذات انسانية سامية الهيبة ـ ذات أعظم أبطال العالم قاطبة ـ ذات من لا أسميه ههنا بلساني بل أترك ذلك الغرض المقدس لتأملات الصمت المقدس !

واذا انتقلنا من الدين الى غيره من مناحي الحياة وشؤونها ألفينا فى جميعها من آيات احترام الصغير للعظيم والدقيق للجليل ومن مظاهر ولاء الوضيع للشريف مايماثل عقيدة الايمان ومناسك العبادة فى أمر الدين . وماذا ترى الايمان الدينى سوى عاطفة الاحترام

والولاء لنبي أو قديس . وماذا عسي تكون عاطفة احترام الوضيع للشريف وولاء الصغير للكبير - تلك العاطفة التي هي في الحقيقة روح المجتمع الانساني وعماده وقوامه الا صنفاً من عبادة الابطال . وعلى هذا فعبادة الابطال هي أساس المجتمع وسلك نظام الرتب والدرجات في سلم الانسانية - ذاك الاساس الذي يقوم عليه صرح العمران وذلك المحور الذي يدور عليـه دولاب التعاشر والتعامل - حتى ليصح لنا أن نسمي مذهب « عبادة الابطال » « هيروأركي » أي « حكومة الابطال » - فالعظماء والابطال وذوو الرتب والمقامات في الامة يكونون لهـا بمثابة الاوراق المالية تمثل الذهب وتقوم مقامه وان اتفق أحياناً لسوء الحظ أن يجيء الكثير من هـذه الاوراق المالية مزيفاً مزورا . فنحن قد نحتمل الاوراق الماليـة ونعيش بها وان وجـد بينها المزيف المزور . فاما أن يكون كلها مزيفاً فذلك مالا يطاق ولا يحتمل ولا يستقيم به عيش ولا حياة وإذ ذاك تهيج الفتن وتقوم الثورات ويهب الناس يصيحون « المساواة المساواة ! » إذ تزول ثقتهم في الاوراق المالية الصحيحة أو الذهب أعني تزول ثقتهم في الابطال فيظنون أن البطل المرتفع عن منزلة الاعتياديين من الناس مفقود لاوجود له وان عبادة البطل ضرب من الخرافة والخيال والحقيقة ان صنف البطل

وعباد الابطال موجـودة في كل زمان ومكان فهى من العناصر المـكونة منها الانسانية ولن تزول حتى يزول الانسان من الوجود .

لقد فشا في هـذا العصر الفاسد رأى فاسد ـ ذلك هو انكار وجـود الابطال بل كراهية وجودهم . اذا ذكرت للمرء بطلا من أبطال العالم الذين انقذ الله بهـم الدول والعصور من وهدة الخراب والدمار أخذوا يعيبونه ويتنقصونه وأوسعوه ذماً وقدحاً ثم زعموا ان ما يعزى اليه باطلا من البطولة انما هو في الحقيقة مستعار مما أحاط به من الظروف الخاصة والاحوال النادرة يقولون ، الوقت هو الذى خلق ذلك البطل فهو سليل تلك الآونة وابن هاتيك الساعة ولولا ظرفه الخاص لكان كأي امرىء عادى ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذباً : يزعمون أن الوقت هو الذى اعاره ثوب البطولة الوهمي وافاض عليه نور العظمة السرابي ـ وانه في الحقيقة لا بطل ولا عظيم . وان كل ما جرى عليه من عظيم المآثر وجليل الفعال ليس من صنعه بل من صنع الوقت . فمتى كان الوقت هو الذى يصنع الخوارق ويأتي بالمعجزات . لقد طالما رأينا الوقت يصيح أين البطل العظيم وينادى هل من فتى همام وفارس ضرغام يقيم

اودى ويصلح مفاسدي وينقذنى مما أنا منحدر اليـه من وهدة التلف وهاوية البوار فلا يجد من يجيب دعاءه ويلبي نداءه ـ ويدور بعينيه فى فضاء الله فلا يري بطلا ولا عظيما

انى أغمض عينى ثم أفتحها

على كثير ولـكن لا أري رجلا

وبعد أن يبح النداء صوت الوقت ويقطع الدعاء حنجرته تخور قوته وتبيد منته ثم تنهار اركانه ويتقوض بنيانه ويعمه الفساد ويشمله التلف والخراب وما ذاك الا لأن البطل لم يدركه فى ساعة محنته وبلائه ولان العظيم لم يكن اذ ذاك موجوداً ولم تكن القدرة الالهية قد خلقته وأرسلته هدي ورحمة للعالم

والواقع أن غوائل التلف والفساد ما كانت قط لتصيب عصراً من العصور لو أنه أتيح له رجـل عظيم يجمع بين العقل والعزيمة ـ بين عقل يعرفه حاجة العصر وعزيمة يستعين بها على قضاء هذه الحاجة ـ فيبلغ بعصره غاية الامل والمنى ويصل به الى مدى الفوز والسعادة . فاما العصور الفاسدة الخربة المصابة بداء الشك والحيرة والـكفر والجحود فهي في مذهبي أشبه شيء باكداس الحطب اليابس الميت تنتظر من السماء شهاباً يسقط عليها فيذكيها ويشعلها حريقاً وما الرجل العظيم يتاح من جانب

الله لمثل هـذه الاكداس الذابلة الميتة يحييها ويوقظها الا ذلكم الشهاب الساطع - يؤدى إلى العصر رسالته وينطق كلمته . فاذا فيها شفاء الغلة . وبرء العـله واتحاد الآراء . واتفاق الاهواء . والتئام العقائد والمذاهب . وائتلاف المقاصد والمشارب . فما هو الاأن يقع ذلكم الشهاب على تلكم الاكداس المكدسة من الحطب اليابس الميت حتى يتأجج سعيراً . وبعـد ذلك يجيئك الجاهل السخيف الغبي الجامد الطبع المظلم الروح الذى لا يفهم معنى العظمة ولا يفقه سر البطولة فيهزأ ويسخر من ذلك الشهاب الذى أشعل اكداس الحطب الذابلة بشعلة ذكائه الوقاد وجذوة عزمه المتسعر فيزعم أن اكوام الحطب الميتة هى التى خلقت ذلك الشهاب واوجدته من العدم . ياللسخف ويالالحماقة ! »

الا انما يفهم الفضل ذووه ويفقه المروءة أهلها . والبطولة سر لايدركه الا من تعرف معناه فى صميم قلبه وتسمع نجواه فى ثنايا ضميره . وقدما قيل : ان البطل لايمكن أن يكون بطلا فى عين خادمه . وليس اللوم فى ذلك على البطل بل الخادم . ولو نظر الخادم الى البطل بعين تستمد شعاعها من روح بطل لعرف بطولته ولكنه ينظر اليـه بروح خادم سوقى عامى من طائفة الطغام والغوغاء . ولهولاء مذهب آخر فى البطولة يتفق مـع

نذالتهم ولؤمهم ودقتهم ومع سفالهم وضعتهم وخستهم - ولهؤلاء ايضاً ابطالهم وعظماؤهم الذين يأتون من الاعمال والوقائع مايعجب نفوسهم الخبيثة وارواحهم القذرة - فاولئك فى نظرهم هم الابطال والعظماء حتماً ولا بطولة الا بطولتهم . ولا جرم فمن ذا الذى قال ان الحشرات تطربها نغمات موسيقى الطبيعة أو يروعها سنا بهجة النيرات فى ابراجها والكواكب فى افلاكها - بل الله وعلماء الحشرات اعلم بالذى يطرب تلك المخلوقات من دقيق الأشياء وحقيرها مما لا تراه العين الا بالمجهر لفرط ضؤلته وخسته

اما انه ما بلى جيل من الاجيال ولا نكب عصر من العصور بآفة هي انكر وانكى . وامر وادهى . من آفة التكذيب بعظمة الابطال وجلالهم . والكفر بحسناتهم وآلائهم

اما انه ليس شيء أدل على سفالة الافراد والمجاميع ولا اشهد على لؤم غرائزهم ودقة اخلاقهم وخسة طباعهم ولا انم على غباوتهم وجهالتهم وسخفهم وخرقهم من انكارهم قوة البطل ومقدرته واقرارهم للجماهير والجماعات الاعتياديين بالفضل العظيم والعقبرية! من كفرهم بالبطل الفذ النادرة وايمانهم بالعامة والدهماء ! من عماهم عن نور الله المقدس . عن الشهاب الساطع واعتقادهم فى اكداس الحطب اليابس الميت !

هذا وايم الله الغفلة التامة والجهل المطبق والخسة والدناءة ومنتهى الحمق والبلادة واقصى غاية الكفر والجحود . فهلا علم امثال هؤلاء ان الرجال العظام مازال منذ بدء الخليقة كوكب الهداية في الظلمات . وزورق النجاة في الغمرات . وسهم الرشد مسددا الى كبد الغواية . وسيف الحق مجردا على هامة الضلال والعماية . وانه الشهاب الذى لولاه ماشبت النار فى الهشيم ولا تأجج الحطب ضراما ؟ أليس الابطال هو مصدر النور تنعكس اشعته على الاجرام المعتمة . وينبوع الحياة تفيض انفاسه فى الاشباح الخاوية المعدمة . وهل تاريخ العالم الا سلسلة حلقاتها نوابغه وابطاله ؟

ولا يسعنا الآن فى مقام وصف الابطال والبطولة الا التنويه بذكر بطل من أعظم أبطالنا وزعيم من اكبر زعماء نهضتنا وأمهر قواد حركتنا ـ ذلك هو دولة الرئيس الجليل حسين رشدى باشا وكيف يتصدي امرؤ للكتابة عن ابطال النهضة الحالية ثم لا يدفعه الشعور والواجب الى وضع صورة هذا البطل العظيم فى متحف المجد القومي ونصب تمثاله فى هيكل الوطنية المقدس أولم يكن فى كل شوط من اشواطه الطرف الأغر فى حلبة الجهاد . والفارس المعلم فى كتيبة الكفاح والجلاد . أم هناك من ينكر انه

أنه ما زال الجوهرة الكريمة فى قلادة مآثرنا . والدرة اليتيمة فى تاج مفاخرنا !

ان أول مايروع المشاهد المتأمل من مناقب رشدى باشا ومحامده الجمة العديدة هو ذلك الاخلاص الحار والغيرة الملتهبة ـ ومالى لا أقول ان ذلك البطل العظيم انما هو جذوة محبة متقدة وجمرة ايمان متأججة . أولم تره فى مواقفه العديدة فى حومة النضال عن حقوق وطنه كيف كانت انفته وأباؤه . وشممه وكبرياؤه . وكيف كانت عواطف الوطنية الحادة اذا ثارت فى جنانه وجاشت فى وجدانه فتألق وهجها فى حر وجهه الكريم ولمع شعاعها فى عينه الصريحة قذف بها منطقه الشريف فى وجه الخصوم جهاراً كلمات صدق وآيات حق لا تسد سبيلها حجب المداجاة والموارية ولا تقوم من دونها حوائل المداراة والمصانعة شأن الذى لا حد لصراحته واخلاصه . وقد ما كان الاخلاص عنصر البطولة وأساسها . أجل ان الاخلاص الشديد العميق هو ـ كما قال « كارليل » أس فضائل الرجل العظيم . ولا نعنى اخلاص من لا يزال يعجز أمام الناس باخلاصه ـ فان ذلك ـ وأيم الله ـ عيب ومنقصة ـ وهو اخلاص سطحى حقير وقح .

بل غرور وسفاهة . انما الاخلاص اخلاص من كان مثل رشدى لا يباهى به ولا يفاخر ولا يكاد يحسه أو يشعر به اذ كان فى نفسه فطريا غريزيا فهو معدن روحه وجوهر نفسه

ان مايبدو لنا صريحاً من فرط اخلاصه وعطفه وحبه لابناء وطنه وعطفه على أمانيهم وغيرته على مصالحهم هو ذلك الذى يدنيه منا ويصل مابين قلوبنا وقلبه الكبير بامتن روابط الحب واسلاك كهرباء الشعور المتجاوب والاحساس المتبادل. فعينه تنم عن نجوى ضمائرنا ومكنون سرائرنا وفؤاده يخفق على دقات أفئدتنا ونبضات قلوبنا . والرجل المخلص الغيور يراه الشعب فيعرف لاول وهلة انه فتاه وبطله وبغيته وضالته . ومازال الرجل العظيم يحقق الظنون ويصيب مكانه ومركزه من زعامة الشعب وقيادته ـ اذ يكون مجرد ظهوره كفيلا أن يفسح له المكان اللائق به ويجذب اليه الانصار والاعوان ويخلق له الاسباب والوسائل والمدد والذخائر فهو فى ذلك كالجدول الفياض يخلق بذاته لذاته ضفافه الخصبة المريعة المنتجة المثمرة حيثما جرى وتسلسل .

لقد جاهد رشدى فى سبيل الوطن حق جهاده وأبلى فى الدفاع عن القضية أحسن البلاء وكان فى طليعة من عملوا على تحقيق

ما قد تم لنا من الفوز والنجاح وحسبه فخاراً انه أهدف صحته النفيسة الغالية فى سبيل بلاده لسطوة المرض وأبلى فى محبة وطنه سربال عافيته العزيزة على جميع مواطنيه وان ارتخصها هو — سامه الله وعافاه — وامتهنها فى خدمة مصالحهم . وقد ثبت فى الميدان ثبات الصناديد على رغم ما كان يقاسى من برحاء العلة . شأنه فى ذلك شأن الفارس المغوار لا يثنيه عن الكر فى حومة الوغى ما قد أصابه من طعنات الاعداء . دأبه ذلك الى أن خرج من المعركة أغر أبلج وضاء الجبين يحمل علم العزة والنصر وما هو أشرف من ذلك وأنبل — أعنى جرحه الدامى الاليم !

حيا الله رشدى باشا !

*

الفصل الرابع

مناقب ثروت باشا

نقف الآن وجهاً لوجه أمام شخصية من أعظم ما انجبت هذه البلاد من الشخصيات الجليلة نحاول جهد طاقتنا بيان ما اوصحت من آيات القوة والنفوذ ودلائل الفضل والحجى وتحليلها الى ما يكون مجموعها من عناصر الذكاء واللوذعية . وأسرار النبوغ والعبقرية . هذا ما نرومه الان وما نحاوله وان كان فوق قدرتنا الضئيلة وحولنا الضعيف لأنا نعلم ان البطل لا يزال لغزاً يعيي الناس حله وانما يظهر لنا من مآثره وحسناته ثمار تختفي جذورها فى أعماق سر الطبيعة وخفايا مجاهل الابحاث البسيكولوجية . ونعلم أن تهجم الكتاب والنقاد على شخصية الرجل العظيم ابتغاء تعرف اسرارها وتحليلها الى عناصرها يكون فى الغالب كتهافت اسراب الفراش على الشهاب المتقد ببهر ابصارها ويحير البابها وقصارها بعد ذلك أن ترتد عن لهيبه الساطع برؤوس مطرقة . واجنحة محرقة .

ولكنا على الرغم من كل هذا ــ وبباعث غريزة الاستطلاع

الفنى التى تدفع كل فتى الى الجرأة على اعوص مطالب فنه وابعدها غورا نحاول الآن ان نجول جولة فى عالم هذا النبوغ العجيب . ونسبح سبحة فى خضم تلك العقبرية المهيب . لعلنا أن نعود من هذا وذلك بقليل من نفائسها الجمة وثروتها الطائلة .

ثروت باشا رجل عظيم قد توافرت فيه شرائط العظمة التى اساسها قوة الشخصية المتسلطة على النفوس والاذهان بسحر الجاذبية . ومن ثم ما يعهد فيه من تفوق ملكة البيان وخلابة المنطق فى جميع مراتب الكلام من اسماها اعنى الخطابة فى الجماهير والمحافل الى ادناها اعنى التهامس والمسارة .

لقد عرفنا ثروت فى جميع ادوار حياته منذ كان نائبا عموميا وقبل ذلك الى وقتنا هذا الذى يتربع فيه دست الوزارة ويدير دفتى الادارة والسياسة — خطيبا مصقعا ومنطقيا مفحما ومتكلما مؤثرا خلابا . لقد عهدناه فى كل ادواره ساحر البيان يقتاد افكار سامعيه فيمكنه ذلك من اقتياد اراداتهم حتى يحبب اليهم من الاعمال والاغراض ما كانوا يستنكرونه — جهلا منهم بفوائده — منذ ساعة فيحملهم على الارتياح الى مزاولته بعد احجام عنه ونفور وليس بعسير على من بلغ من سحر البيان والخلابة منزلة الرئيس الجليل ثروت باشا أن يلعب بألباب سامعيه فيقرع بها أوتار السرور

تارة وأوتار الحزن أخرى وآونة يبعث منهار نات الندم والاسف وآونة صدحات الحبور والطارب . ومثله قدير أن يسل بقوة بيانه سخائم الصدور ويستأصل جذور الضغائن والاحقاد حتى يترك العدو صديقا حليفا . والضد صاحبا أليفا . ويملأ القلوب اليائسة رجاء وأملا . والنفوس الموحشة أنسا وجذلا أولم تحدث خطابه الاخيرة الرنانة أمثال هذه الآثار الحسان فى نفوس الشعب المصرى الكريم يوم نزلت على القلوب بردا وسلاما وبددت ما كان لا نزال عالقا بنفوس الكثيرين من بقايا الريب والظنون والقلق والاشفاق فكان في آياتها البالغة جلاء الشبهات وفى حججها الدامغة زوال الظنون وكانت منفاة الهموم والاتراح . مدعاة المسار والافراح .

ان مثل الوزير الجليل ثروت باشا اذا قام يخطب أو انبرى يتحدث خيل اليك كأنما يصب تيار روحه الزاخر في أرواح سامعيه فيمتلك نفوسهم ويستحوذ على ألبابهم ويقتاد أفئدتهم بأعنتها . ثم يرى نفسه أحق بالخطابة من سائر المتصدين لها اذ كان أغزرهم مادة وأملأهم وعاء فينبرى للكلام وانه لأجدر به وأولى ـ واذ ذاك يصغر بجانبه الخطباء ويتضاءلون . ثم يذهلهم فرط السرور بسماع مطرباته عن الاشتغال باحساسات الحسد والحقد وغيرها من نزعات الانانية فيرتاح كل سامعيه الى التضاؤل فى حضرته ويلذ

لهم أن يغمسوا أرواحهم فى معين بلاغته الفياضة ويغمروا نفوسهم برحيق بيانه المنعش . فمثل هذا الخطيب المصقع والمحدث البارع يملأ الساعة التي يقضيها بالخطابة أو بالحديث من بدائع آياته وروائع معجزاته بما يجعلها غرة في جبين العصر ويترك غيرها من ساعات حياتنا الاعتيادية وكأنها بالنسبة الى تلك الساعة الغنية الفياضة ساعات نوم ورقاد . فمن ذا الذى يعجب بعد ذلك لفرط ما أوتى أمثال ذلك الخطيب من التأثير والنفوذ والسلطان على نفوس البشر ؟

ثروت باشا خطيب عظيم ومن اجل هذا كان بطلا ـ لأن قوة الخطابة نوع من البطولة . ذلك لأن الخطيب العظيم يقف من جماهير سامعيه موقف المبارز المناجز المستعد لملاقاة كل قادم فهو قد وطن النفس على أن يكون فى كلماته الحارة المتألقة . وفى عباراته الثرة المتدفقة . ما يقنع جميع سامعيه مهما تكاثر عددهم ويفحمهم ويشفى غليلهم ويكون فيه الجواب المسكت على كل ما عساه ان يجيش بصدورهم ويجول فى خواطرهم من الشكوك والظنون والاسئلة . لذلك ترى مثل هذا الخطيب اذا قام يخطب في المحافل وقف وقفة المشمر المنجرد المتحفز بقدم متقدمة الى الامام كالذى قد هم ان يزحف على تلك الجموع المحتشدة ويغزوهم

وتلك هى الحقيقة لأنه يزحف عليهم فعلا بجيوش من افكاره البديعة السامية ويغزوهم بكتائب من آرائه الجديدة المبتكرة. لذلك يجب أن تكون خطبته سابقة فى منازل الرقى لافكار سامعيه ايا كانوا — بل سابقة لافكار جيله وعصره ، والا كانت فضولا ولغوا وهراء . ومن ثم كانت الخطبة الجليلة اجدر أن تعد عملا نافذا من ان تعتبر مجرد كلام والفاظ . اذهى فى الواقع كهربية العمل والحركة . فهى تنطوى على القوة الدافعة الى الاعمال — شأنها فى ذلك شأن ما يرسمه قائد الجيش من خرائط المواقع والملاحم وما يصدره من أوامر الكر والفر والدفاع والهجوم. وكذلك الخطيب إما أن يكون قد جاء لأمر عظيم — ليستنهض جماهير سامعيه ويستنفرهم الى استئصال جيوش الاباطيل والاضاليل والى افتتاح عوالم جديدة من الاراء والافكار — فتكون خطبته منادة الى الغزو وصيحة الى الجهاد — والا فاولى له أن يسكت.

— ان ثروت باشا باعتباره خطيبا مفحما ومتكلما خلابا يؤثر فى سامعيه ويقنعهم ويحملهم على اتباع رأيه والأخذ بمبدئه وذلك بفضل ما يجلو لهم من غوامض الأمر ويحل لهم من مشكلاته وباعارته اياهم بصيرته النافذة ورويته الثاقبة ينظرون بها فى نواحى

الموضوع وجوانبه ويتغلغلون بمنظارها الكشاف الى خفاياه وخباياه فيبدو لهم الأمر على خلاف ما كانوا يعهدون وعلى العكس مما كانوا يحسبون فاذا السواد بياض والفساد صلاح والتنافر وئام والاعوجاج استقامة والسوأة حسنة واليأس رجاء.
فمثل ثروت باشا اذا شاء اقناع سامعيه وحملهم على ما يريد رأيته ينظر الى الامام ويتجه بنظره البعيد الى ما سيكون — في حين ترى سامعيه قد جاوزوه وهم ينظرون الى ما كان من الامر وما انقضي اعنى الى الماضى وما قد انتشروا من حوادثه واحواله .
فنظرهم بذلك الماضي معقود وفيه محصور ومن ثم كان قصر نظرهم وضيقه واحتباسه في دائرة صغيرة محدودة يترددون فيها ويتعثرون كالخفافيش في ظلمة الشك والحيرة — وقد يئسوا من استقامة الأمر وصلاحه — اما هو (اعنى ثروت باشا) فغير ذلك شأنه وما كان من زمرة الخفافيش حتي يحصر نفسه في دائرة الماضى الضيقة ويحبس نفسه في ظلمتها (وان كان لا ظلمة مع شهاب رأيه الساطع ونجم فكره اللامع) ولكنه — وهو ذلك النسر الطماح — يضرب صفحا عن الماضى المنقرض الداثر ويستقبل بعينه الثاقبة شمس المستقبل الباهرة فيصفق في شعاعها البراق جناحيه الطموحين ويستدر عليهما قطرات انداء البشارة

من مزنة الامل الصدوق والرجاء المحقق ويستهبط آيات الوحى والالهام من آفاق المستقبل المشرقة . وكذلك اذا استدبر القوم المعارضون امرهم وتشبثوا باذيال الماضى واعقابه فاوصدت فى وجوههم أبواب الاراء واغلقت منافذ الافكار وانحبس عنهم فيض الخواطر الا مايصوب عليهم من اليم الذكريات مما تكف به سحائب الماضى المنقشعة ـ رأيت ثروت باشا ذلك الهمام الطماح العزمة والاريب الثاقب البصر والروية يضرب صفحاً عن ذلك الماضى ويمد الى معين ذهنه الفياض وينبوع قريحته المتدفق فيغترف من ثمت سجال الرأى السديد . والفكر الأنف الجديد . ثم يستطلع نجوم فراسته الصادقة فيتلمس فى صحفها المشرقة طوالع السعود أو يتسقط من شوابك أفنان شجرتها الذهبية أوراق اليمن والبشارة . وحينئذ يقبل على سامعيه فيباغتهم من سوانح الهام بصيرته وخطرات وحي بديهته ما يبدد سحائب شكهم وريبتهم وينفر اسراب خوفهم ووحشتهم . وهنالك يبصرهم من غوامض أسرار الأمر وخفايا دخائله مالم تكن نظراتهم السطحية لتستطيع من قبل أن تكشف نقابه . وتهتك حجابه . هنالك يفيض اناؤه المفعم الملآن فى اوعية صدورهم من مادة العلم والعرفان مايبرز لهم الموضوع فى مظهر آخر وضياء جديد وشكل مستحدث .

حتى تراه يفتن ألبابهم ويسحر عقولهم ويملؤهم دهشة وعجباً كما لو كانوا زمرة أطفال فينسيهم أفكارهم القديمة فى الموضوع ويذهلهم عما كان يخالج نفوسهم فيه من فاسد الاعتبارات والاوهام . وكذلك ينتصر عليهم بقوة التكهن والتنبؤ وقد كانوا يحسبون انه لايملك من سلاح الاقناع الا تكرار البراهين المعروفة المتبذلة والعبارات المرددة والكلام المعاد .

وانى كلما تأملت ماقد أوتي الرئيس الجليل من قوة الخطابة وسحر البيان وخلابة التأثير تذكرت ماقاله توماس كارليل فى وصف ذلك العبقرى النابغة نادرة زمانه . ومعجزة أوانه . الشاعر الاعظم البريطانى « روبرت بارنز » ورأيت أن الناقد المتصدي لوصف مايمتاز به الرئيس الجليل من الملكات البيانية والخطابية الرائعة لن يستطيع أن يبلغ غرضه بأحسن من ترديده فى الرئيس ماقاله سالفا توماس كارليل فى بطل أمته روبرت بارنز

قال ذلك الكاتب الكبير « كان بارنز آية فى خلابة المنطق وسحر البيان ـ كان حديثه العادى أبدع من شعره وأفتن من حديث كل من رأيت وسمعت به من سائر الناس .

شرك العقول ونزهة مامثلها   للمطمئن وعقله المستوفز

ان طال لم يملل وفى ايجازه   يهوي المحدث انه لم يوجز

كان حديثه كالسلم الموسيقى قد استوعب درجات النغم من أخفت جرس التحية وأرق كلم الملاطفة الى أرفع صيحة الغضب وأشد صرخة الوجد . ففيه ضحكة الطرب الجذلان . وزفرة الصب الولهان . والايجاز المجتزئ باشارته . والأطناب وليم پيت فى خطابته .

وقد روت عنه السيدات والأميرات ربات الادب البارع . والفضل الرائع . انه كان يزدهيهن بفتنة حديثه ويستخفهن بخلابة بيانه حتى يكدن يثبن فى الهواء ويطرن فى الجو . فهذا وايم الله عجيب . وأعجب منه ماروآه النقادة الجهبذ المستر لوكهارت من أن خدام الفنادق كانوا اذا رقدوا فى مضاجعهم للرقاد ورنقت سنة النعاس فى أجفانهم ثم سمعوا صوت الشاعر بارنز يتكلم وثبوا من مراقدهم فالتفوا به وكلهم اقبال عليه واصغاء لحديثه . ومالى أعجب من ذاك ؟ أليسوا رجالا ينصتون الى رجل ؟ وأعظم مايؤثر عن بارنز ماروآه لى شيخ مسن كان من أخص أصدقائه — من أن بارنز مافتح فاه قط الا التى منه حكمة . قال ذلك الشيخ « لقد كان بارنز كثير الصمت فاذا تكلم جلى من غوامض الامر وأنار شبهاته . ولا أدرى لماذا يتصدى امرؤ للكلام اذا لم يكن قادراً على هذا .

اذا قلنا ان ثروت باشا قد حذق فن الخطابة فانما نعني بذلك انه قد استكمل أدوات هذا الفن وملكاته : أعني صفاء البصيرة وقوة الذاكرة وحسن البيان . ومتانة الحجة والبرهان وحدة الخيال ـ أي القدرة على ابراز افكاره في صور طبيعية ناصعة ـ ويضاف الى ذلك الارادة النافذة القوية التي اذا تجملت بالثبات والنزاهة كانت جديرة أن تسمى « الخلق العظيم أو العظمة الاخلاقية » وتلك هي اسمى مراتب الرجولة

لاشك في أن السر في نجاح ثروت باشا كناظر وخطيب ـ يرجع الى قوة أعظم من البراعات اللفظية والمحاسن الظاهرية كدماثة الطبع وحلاوة الشيم ورقة الشمائل وعذوبة اللفظ والصوت ـ يرجع الى قوة خلقية كبرى وملكة وجدانية عظمى ـ اعني الاخلاص والايمان ورسوخ العقيدة بما يدافع عنه ويحاول اثباته من النظريات والمسائل . فهو يقبض على ناصية نظريته ويعتنقها أشد اعتناق وأحره . والحرارة ـ نتيجة الاخلاص والايمان ـ هي العامل الاكبر في قوة الخطابة ونجاحها . فاذا أردت أن تفلح في خطابتك فكن كالرئيس الجليل غير متعرض الا لما أنت به عالم وموقن وخبير وكفيل أن تحتمل تبعته ومسئوليته وتقدم عنه أوفى حساب وأدقه . فانما الخطابة والبلاغة أن تمد الى الحقيقة

الخطيرة الجائلة فى وجدانك فنترجمها الى افهام سامعيك باقرب لغة وأعلقها بأذهانهم وأوقعها فى نفوسهم. ولا مراء فى أن هذه القدرة العظيمة ـ هذه الكيمياء العجيبة التى تستطيع أن تحول الحقائق المنقوشة بلغة الخالق على صحف الضمائر المرقومة بالقلم العلوى فى سجلات السرائر الى حقائق مؤداة بلغة سامعيك من الجماعات والافراد لهي أبدع سلاح طبع فى مسبك الصانع الاجل والصيقل الاعظم

لا نعنى بلغة الخطيب التى ينقل بها افكاره الى اذهان سامعيه مجرد ما يفوه به من الالفاظ والعبارات ـ وهذه أحقر وسائل تأديته وأيسر وسائط ابلاغه ـ وانما نعنى ذلك التيار الروحانى المنبعث من ينبوع نفسه والسيال الكهربائى المنبث من جهاز أعصابه. وكما ان القائد العظيم يحرز النصر لا بكثرة الوقائع والملاحم ولكن بفضل ما يدبره من الحيل والمناورات فكذلك الخطابة والمناظرة هى حرب افكار وارواح. فالالفاظ المنطوقة هى أضعف عناصر الخطبة وأقل أجزائها. وانما الاساسى الجوهرى الذى عليه المعتمد والمعول هو موقف الخطيب وما تنم عنه هيئته وصوته ونغمته وحركاته وشمائله من قوة رجولته وسمو همته ومن انه يحمل بين جنبيه روحاً أجل واعظم من روح المخاطب.

هكذا شأن فحول الرجال الذين يصولون في ميادين الخطابة والمناظرة بقوة شخصيتهم الهائلة ويسيطرون على النفوس بسلطان الروح النافذة الباهرة . والطبيعة الغلابة القاهرة . وبهذه وتلك يحرزون الظفر وينالون الغنيمة . وقد روى عن روبسبيير ـ أحد الثلاثة الزعماء المعروفين في عهد الثورة الفرنسية ـ ان سامعي خطابه من الجماهير والجماعات كانوا لا يكادون يفهمون كلماته ولكنهم كانوا على الرغم من ذلك يفهمون في خطبه الرنانة ما هو أعظم وأخطر من الفاظها وعباراتها ـ كانوا يفهمون ما اودعت تلك الالفاظ من حرارة الوجدان ونارية الشعور والعاطفة ـ وكانت عدوى هذه الحرارة والنارية تنتقل اليهم وتسرى في اعصابهم وتشيع في جوانحهم وهل يريد الخطيب نتيجة أعظم من هذه أو اثراً أشد وأبلغ؟

مثل هذا النوع من الكلام والخطابة وان كان اثره الفعال مضموناً محتوماً قد يكون من الزور والباطل وقد أريد به التمويه والتضليل واتخذ سبيلا الى الفساد ومطية الى الشرور والرذائل . نقول قد ينجح مثل هذا الكلام الخلاب المؤثر في النفوس بسلطان شخصية باهرة لكنها غير مخلصة ـ ولكن نجاحه لا يكون الا مؤقتاً ـ لان الاكاذيب والاباطيل هي كما قلنا غير مرة رهينة بالزوال والفناء قد كتب لها الموت وصدر عليها حكم الاعدام

في محكمة الازل مهما طال عمرها وتراخت مدتها . فأنت اذا بنيت خطابتك على أساس من الباطل وكانت مقدمة قياسك المنطق أكذوبة فمهما استعملت بعد ذلك من خلابة اللسان . وسحر البيان . ومهما أثرت في سامعيك بحرارة العاطفة وثارية الوجدان وبهرتهم بقوة الروح القاهرة وغلبة الشخصية الباهرة فالك لن تصنع شيئا ولن تحدث في عالم الحقيقة أثراً وتكون انما انتهيت من حيث ابتدأت . وما كان امرؤ قط ليستطيع بأكمل عدد الفصاحة وأمضى سلاح البلاغة أن يرفع الى ذروة الحق من فنون الباطل ماتراه يهبط بطبيعته الى الوهدة ويهوى الى الحضيض .

أما الفوز الدائم والنجاح النهائي فذلك نصيب البارعين المخلصين والحاذقين الصادقين أمثال الرئيس الجليل ممن جمعوا بين رجاحة العقل ونزاهة النفس ــ بين حدة الذكاء وشدة الغيرة والتضحية ــ بين الملكات الذهنية والفضائل النفسانية ــ بين سمو الفكر والروح معاً . وصفاء الذهن والقلب جميعاً .

لقد بلغ ثروت في براعة الخطابة والبيان منزلة أصبح معها مليئا أن يقتاد أعنة قلوب سامعيه تندعن اليه وتعنو فهو المسيطر على نفوسهم المتحكم في عواطفهم ووجداناتهم . وقدما قيل : ليس

الامير من لبس التاج وجلس على الاريكة . انما الامير من عرف كيف يحكم النفوس ويسيطر على الافئدة . وكأني بالرئيس الجليل يستطيع بحدة ذكائه أن ينفذ الى اعماق القلوب عليما بذات الصدور مطلعا على مكنوناتها طبا بادواء النفوس خبيراً بأمراضها وعللها قديراً أن يداوي هذه العلل والادواء بخلابة القول - لديه لكل جرح بلسم من فتنة الالفاظ ولكل كلم مرهم من روائع الكلم - فنون شتى من البيان . تعالج بها فنون شتى من آلام النفس والجنان . ولا عجب فلقد يؤثر عن « انتيفون » اليوناني أحد الخطباء العشرة الذين روى « بلوتارك » أنهم أقطاب الخطابة في العالم - أنه نشر في أثينا اعلاناً عن نفسه قال فيه « انى مستعد لتطبيب أمراض الذهن بالكلام ومداواة علل النفس بالالفاظ » وليس ذلك بمستحيل . وقوة سلطان الكلام معروفة مجربة في كل زمان ومكان منذ كان الانسان وآثار الالفاظ في التسلط على الامزجة والعواطف والاحساسات وفي العقائد والافكار والمذاهب وتكييفها وتشكيلها حسب أميال المتكلم وفي قلب كيان الأذهان والنفوس في الافراد والجماعات - بل قلب كيان الدول والممالك تعد من قبيل الخوارق والمعجزات . وهل ترى

ـ اصلحك الله ـ مايسمونه الرقى والتعاويذ والنفث فى العقد الذى نزلت فيه آية الكتاب الحكيم اذ يقول جل شأنه « ومن شر النفاثات فى العقد » وغير ذلك من ضروب السحر وفنونه ـ شيئا سوى الالفاظ والكلمات ؟ وهل رأيت رجلا بلغ من النعيم أقصاه . ومن الصفاء والرغد منتهاه . فوثق بالحظ وأمن من طوارق الحدثان . وأخذ على القدر الميثاق ومن الدهر الأمان . الا كان فى استطاعتك ـ اذا كنت ممن أوتى سحر البيان أن تبدد ثقته وتذهب طمأنينته وتورثه القلق والاشفاق باللفظة تنبذها فى سمعه . والكلمة تلقيها فى روعه . أفلم يرو لنا التاريخ أمثال هذه الحال عما كان يحدث بين الملوك ووعاظهم من العباد والنساك اذ كان يطلع الناسك على الملك العظيم وهو منغمس فى غمار اللذات والملاهي فيرميه بالكلمة من الوعظ فاذاهو قد أفاق من غمرته . وهب من رقدته . ثم أطرق فاعتبر . وارعوى فازدجر . ألم نقرأ أمثال هذه الاخبار عن كسرى والسائح وعن النعمان وعدى بن زيد وعن المنصور وخالد بن صفوان ؟ وعلى العكس من هذه الحال ـ أى كارثة عظيمة أو فاجعة أليمة تنوب الفتى فلا يكون في مقدرة المنطق الخلاب أن يشرع في تسكين حدتها . وتلطيف سورتها . وقد عرف أفلاطون البلاغة بأنها « فن سياسة العقول

وتدبير حركات النفوس » . أليس في استطاعة البلاغة أن تغير في ظرف سويعات ماشيدته الحقب والاجيال من العادات والاخلاق والعقائد ؟

وكذلك قد يبلغ من سيطرة الخطيب العظيم مثل ثروت باشا أن يصبح جمهور السامعين بين يديه كالآلة الموسيقية بين يدى المطرب البارع – فهو يعزف على أوتار القلوب كما يعزف المطرب على أوتار آلته ويستثير من أفانين الاحساسات والعواطف من جمهوره أمثال مايستثيره المطرب من أفانين الاصوات والالحان من معزفه – فتارة يسكن ثائرة غضبهم ويطفيء نيران وجدهم ويرد شارد حلمهم وعازب رشدهم بتهدئة خواطرهم وطمأنة قلوبهم واخرى يهيج حميتهم ويجرد عزيمتهم وهمتهم . يبكيهم آنا وآنا يضحكهم . اذا شاء لوى بالطرب أعناقهم . وشق بالفكاهة أشداقهم . وان شاء استذاب بالعظات عبراتهم . واستثار بالحكم والامثال زفراتهم . وكذلك تراه يستولى على قلوبهم ويستحوذ على شعورهم ويتملك ارادتهم ومشيئتهم فيكونون طوع بنانه ورهن اشارته فمهما أمرهم به يأتمرون ومهما كلفهم يتحملون ويتجشمون ولو كان اقتحام النار . وخوض اللجج والغمار . اولم يأتك نبأ بونابرت حينما ترك منفاه في جزيره « البا » قافلا الى باريز حتى اذ نزل ارض فرنسا

وسار يؤم العاصمة في نفر قليل من محبيه وبطانته لقيتهم جيوش عدوه لويز الثامن عشر الذى كان قد تبوأ الاريكة الفرنسية بعد اعتزال نابليون . فما هو الا أن رأت تلك الجيوش الجرارة شخص بونابارت وسمعوا صوته حتى خضعوا له واذعنوا وحيوه تحية الاكبار والاجلال يدعونه امبراطورهم ومالك رقابهم وأرواحهم ثم انضموا اليه وانضووا تحت لوائه وساروا فى قيادته يؤمون باريز واذ ذاك بهت لويز الثامن عشر وزلزل به وسقط فى يديه وفر من وجه نابليون « يحتث انجى مطاياه من الهرب »

مثل هذه السيطرة الخطابية والتسلط بقوة البيان على ارواح الافراد والجماعات شبيهة بما يؤثر عن سلطان الموسيقى وتأثير النغمات وتحكمها فى شعور سامعيها وفي عواطفهم وارادتهم كالذى يروى عن « اورفيوس » وداوود وغيرهما من نوابغ الموسيقيين انهم كانوا يجتذبون اليهم بقوة عجيبة من قبيل قوة الجاذبية الطبيعية جميع الكائنات مابين حي وجماد من انسان وحيوان داجن ووحشي ومن سبع ضار وضيغم فراس وحشرة وهامة ومن شجرة ونبات وصخرة وجلمود. أو كالذى يروى عن المطرب «ميودون» كيف لما حرك برخيم النغم اوتار مزهره فى بعض المآتم استطاع ان يسحر عقول حملة النعش ويفتن البابهم بقوة تأثيره حتى ذهلوا

عمامهم فيه وبعرضه من شعائر الجنازة وانبروا يرقصون حول نعش الميت .

ان الخطيب البارع والمحدث الرائع لايحتاج الى جرس يلفت اليه الناس وينبههم الى مكانه ويشعرهم بنفاسة اقواله ـ كما انه لا يحتاج الى بوليس يقوم بمهمة توقيف الناس حوله وتثبيتهم ثمت بالقوة الجبرية ومنعهم من الانصراف قبل تمام الحديث أو الخطابة . ذلك لأن الحديث العذب والخطاب الشيق يجذب بطبيعته الخلائق ويحجزهم بلاواسطة تشويق أو ترغيب . وكأنى بالوزير الجليل ثروت باشا من ملاك اعنة البيان وفقه اسرار الخلابة اذا انبرى يتحدث أو يخطب استدرج الشيوخ من مجالسهم والفتيان من ملاهيهم والصبية من ملاعبهم والمرضى من مضاجعهم واثبتهم حوله مغلولين بأوثق قيود من الفتنة والطرب فسلبهم ارجلهم حتى لاينصرفون وسلبهم ذاكرتهم حتى لايتذكرون اهم اشغالهم واقدس واجباتهم فتشغلهم عن كلماته وتلهيهم . ـ وسلبهم عقائدهم حتى يكون ايمانهم باقواله خالصا صريحا لايشوبه رأي مخالف ولا تعارضه افكار منافية أو نظريات مضادة .

وقد حدثنا المؤرخ اليونانى العظيم « بلوتارك » قال « لما

سأل ارخيداموس » ملك اسبرطة « ثيوسيد يدس » عن صراعه مع « بريكليز » ايهما كان أشد باساً واصعب مراساو اقهر لخصمه وقرنه قال « ثيو سيد يدس » انى كلما صرعت بيريكليز ووسدت جنبه الثرى انكر ذلك وجادل فيه وتمارى واستطاع بخلابة لسانه ان يحمل الناظرين والشهود على تصديق مزاعمه مروجا لديهم الزور ومحقا الباطل » ولما سمع فيلب ملك مقدونيا وصف احدى خطابات « ديموسطين » وقوة تأثيرها قال « اما والالهة لو كنت شاهده لاستطاع ان يحملني على اعلان الحرب ضد نفسي وتجريد السلاح لقتالها » . ولما قام الخطيب البريطاني « بيرك » في البرلمان الانكليزى فالقى خطابته الطنانة في اتهام « ورن هتستن » حاكم الهند اذ ذاك قال ذلك المتهم مع اعتقاده براءة نفسه من التهمة « لقد بلغ من فرط تأثرى بكلمات « بيرك » انى لبثت أثناء خطابته اعتقد انه ليس على وجه الأرض آثم اشنع مني جريمة وافظع جناية . »

لقد رأينا ثروت باشا فى احاديثه وخطبه يجمع الى الخلابات اللفظية المحضة والبراعات البيانية البحتة مزايا اجل من ذلك واشرف اعنى العناصر الروحية والقوى الوجدانية من اخلاص وغيرة وصدق ايمان وتضحية . وهذه هي التى تكسب الخطبة

أو الحديث صفة الجزالة والفحولة ومزية الجلال والعظمة وتطبعها بطابع المجد والخلود . فاذا خلت الخطبة من هذه الصفات العظيمة والميزات الجليلة واقتصرت على الخلابات اللفظية والبراعات البيانية كانت فائدتها وقتية واثرها سريع الزوال وكان قصارى فعلها ان تسترق الآذان بحلو اللفظ وعذب الكلام وتلذ ملكة التصور والخيال فتكون بمثابة ملهاة ومسلاة ليس الا . فهى وان أثرت اشد الاثر فى وقتها وساعتها فليست تعدو كونها خدعة وشعوذة لايلبث اثرها ان يضمحل فيزول فهي اشبه شيء بصوت الآلة الموسيقية تمر فى الطرقات والشوارع فتحرك خيال المارة وتثير عواطفهم وتتركهم وكأنهم شعراء لحظة من الوقت ريثما ترن فى اسماعهم نغماتها ولكنها لا تلبث أن يزول اثرها من النفوس متى تحولت الى الحي المجاور . لذلك ارى ان اللسان الطلق الذليق اذا لم يكن من الحدة بحيث لو يوضع على الشعر لحلقه . وعلى الصخر لفلقه . ولو اعلق النجم لمحاه . أو القمر لطواه . لكان أقصى جهده أن يحدث نشوة لا تلبث أن تزول وغاية ما يستحقه أن يدرج فى عداد المسكرات والمخدرات كالافيون والخمرة . ولكان أحسن علاج يتقى به تأثيره سدادات القطن تجعل فى المسامع أو قطع الشمع التى جاء فى اساطير اليونان

ان « يولوسيس » سد بها آذان نوتيـة سفينته حينما كانت تمر بهم على جزيرة الساحرات اتقاء ما خشيه عليهم من فتنة اصواتهن وسحر الحانهن

هذا النوع من البيان السطحي هو شيء خلاف ما قد امتاز به ثروت باشا من قوة البلاغة الحرة الصادقة . وانى أرى فرق ما بين الصنفين كالذي بين رشاش الفوارة الصناعية الذى لا يكاد يتصاعد حتى يتهاوى ولا تكاد تتلألأ على لبات الضحى قلائده حتى ترفض حباته وفرائده . وبين البحر الخضم في دوافق موجه ودوافع لجه . تجيش فيه زواخر عبابه . وتقصف فى حجرتيه زماجر عجاجه وصخابه . ويكمن فى اعماقه . نفائس اعلاقه . ويستكن فى ضميره روائع ودائعه . وبدائع بضائعه . وكذلك شأن الخطيب السامي الدرجة فى مراتب البلاغة . وهذه صفات من تسنم ذروة البيان ونزل من الفصاحة فى الغارب والسنام وتلك لعمرى مزية نادرة وغاية بعيدة المنال تتقطع من دونها انفاس البراذين ولا يدرك مداها الا الكرام العتاق

وابن اللبون اذا مالز فى قرن

لم يستطع صولة البزل القناعيس

وانما نال ثروت باشا هذه الغاية وبلغ هاتيك المرتبة بفضل

ما اجتمع له من خلال قلما اجتمعت الا لواحد في جيل وفرد في أمة ـ وهذه هي العقل والدهاء والعزم والحزم وقوة الارادة والغيرة والاخلاص والشغف بالحق والهيام بالحقيقة يعزز هذه خلابة المنطق وحسن البيان ودماثة الطبع ورقة الشمائل . هذه الخلال اذا استكملت في رجل تكون فيه من مجموعها تلك القوة العجيبة النادرة المسماة « فتنة الجاذبية الروحية وسحر السيطرة الشخصية » ومن كان هذا شأنه فذلك خليق أن يرجح بسائر أهل جيله وخليق أيضاً أن يتغلب على كل امر وحادث فاذا صادفته المعضلات والمشاكل صادفت فيه فكاك عقدها وحلال الغازها واذا لاقته المحن والكوارث لاقت فيه فتاكها وفراسها ويتلقى منه الرجال جلمود صدام يصكهم فيسحقهم . ومقذف رجام يرضهم فيمحقهم . مثل هذا البطل يكون كفؤاً لكل حادثة وكارثة ولكل أزمة وشدة . فأين الرجل الاعتيادي مثلي ومثلك من ذلك البطل في ساعة الروع والخطر وقد حسرت الداهية الدهياء من نقابها . وكشرت المحنة النكراء عن نابها . قل لي ما ذا تصنع اذا وجدت نفسك وسط زوبعة على كواهل امواج كالجبال في بحر جموح الموج مجنون العباب وحولك اناس قد طاش الذعر بألبابهم وطار الرعب بقلوبهم ـ اكنت مطيقاً أن

تسترد عازب ذهنك وتربط نافر جأشك ثم تستلم مقاليد بيانك وعنان لسانك فتصرفهما بحزم وحكمة فى طمأنة افئـدة اولئك الجازعين الهالعين وتسكين خاطرهم توسلا الى النجاة من ذلك الخطر ؟ واذا رمى بك الحظ السيء فى أيدي لصوص أو جمهور ثائر أو اغوال من اكلة اللحم الآدمى فماذا تصنع وكيف تلتمس المخرج والمنفذ ؟ واذا اوقعك القدر فى يد فاتك من قطاع الطريق فهم أن يسلبك مالك وروحك فماذا أنت صانع ؟ اتراك تعرف كيف تخرج من هذا المأزق الضنك بفضل قوة الذهن وشدة العارضة وذلاقة اللسان وخلابة المنطق ؟ مثلما كان يفعل رجل كمعاوية أو ابن العاص أو طاهر بن الحسين أوصلاح الدين أو مثل الاسكندر أو يولوس قيصر أو القائد « مالبرة » أو البرنس دى كونديه او محمد علي او نابليون ؟ (ليس من شأنى ان اتصدى لالحاق ثروت باشا بهؤلاء الابطال فان ذلك موكول الى حكم التاريخ فى قادم الاجيال وان كان لا يسعنى الا الاعتراف والاقرار بانى آنس في شخصية الوزير الجليل عنصراً من تلك الفحولة وجذوة من لهيب هاتيك البطولة) . لا شك انه متى طاع اللص قاطع الطريق على احد ممن سمينا من اولئك الابطال احس فى الحال انه قد لقى من هو اشد منه بأساً وصولة وقال في نفسه « ان

كنت ريحاً فقد لاقيت اعصارا » ولا عجب فما اعظم الفرق والتفاوت بين الرجل والرجل فى قوة الوجه : الست ترى الرجل يتغلب على الآخر بتفوق الاول على الثاني فى قوة العين وحدة اللحظ فيبهره بذلك حتى يحيره ويربكه . اوما سمعت بالرجل كيف يستطيع برباطة الجأش وجراءة الجنان وبالثقة بالنفس واستشعار سيما العزة والعظمة — أن يخضع الرجال ذوى المنزلة والمكانة والصولة والنفوذ والجاه فيقودهم ويسودهم ويرأس ماشاء من الشيع والاحزاب فربما عزل الملوك والغى الدساتير وقلب الدول والممالك . واني لا أشك في أن مثل نابليون بونابرت أينما وضعته وفي أيما زمان أو مكان القيته فلا بد أن يسود ويقود وينفذ كل ماشاء وأراد . وقد كان يولوس قيصر فى أيام صباه وقع فى أسر جماعة من القرصان . فماذا كان منه ؟ لقد القى بنفسه فى سفينتهم ثم مالبث أن أكد بينه وبينهم أمتن روابط الصحبة والالفة . وكان يحدثهم القصص والنوادر تارة ويلقى عليهم الخطب تارة أخرى . فاذا رآهم لا يهللون اعجاباً ولا يصفقون طرباً هددهم بالاعدام شنقاً (وقد نفذ فيهم هذا الوعيد فيما بعد حينما صار قيصرا) . ولم تك الا مدة قصيرة حتى أصبح زعيمهم وعميدهم . مثل هذا الرجل معصوم فى جميع أوقاته وحالاته من آفة الاضطراب والارتباك والدهش والحيرة.

فهو لا تنفد من يديه أوراق اللعب الفائزة فاذا القى الورقة فكسب « الطابق » لم تستطع أن تقول هذه آخر ورقاته اذ لا يزال لديه عتاداً من السلاح وذخيرة من القوة . مثل هذا الرجل يستطيع كما قلنا أن يقلب كيان الدولة ثم تصبح أحاديثه ضرباً من المعجزات والخوارق، وأجل معجزاتها انها تؤثر في سامعيها فتنة وسحرا حتى يولونه على مجرد السماع به اعظم الثقة واكملها وبذلك يتأتى له أن يغير وجه العالم وحينذاك يسعى في خدمته ويقوم بترديد صدى مساعيه الشعر والنثر والتاريخ وتنشأ المذاهب الفلسفية الجديدة لتعليل سبب وجوده وحكمة حياته واعماله . ان ميزة هذا الرجل هي تمام مقدرته على امتلاك عواطفه ووجداناته . ولكن سر تغلبه وسيطرته أدق وأعمق من هذا — ذلك هو سريان قوة الطبيعة بلا عائق وجريانها وانطلاقها بلا عقبة او حائل من ذهنه وارادته الى يديه . فالرجال والنساء لعبه والآته وحيثما وجدوا فثمت له مصدر حيل الى مراميه وذرائع الى اغراضه . وما أحسن قول لوثر حيث يقول « انما الرجال من اجاد الكلام » . فامثال هذا الرجل كانت ولايات اليونان تستهدى وتستورد من ولاية « اسبرطة » (أوفر الولايات نصيباً من الفحول) حينما كانت تحتاج الى قائد .

واذا ضربنا صفحاً عن فحول الرجال من الملوك والقواد وأهل

الحرب والقتال ألفينا في ساحات السلام ومناديح الامن والسكينة فحولا أيضا لا يقلون عن اولئك جزالة وقوة وسلطانا على الانفس وسيطرة على العقول. فهؤلاء وان لم يعتلوا مسرح الحرب والسياسة أو يتصدوا الزعامة أو قيادة وكانت صناعاتهم عادية ومناهج عيشهم سامية مدنية تراهم مع ذلك يؤثرون أينما حلوا تأثير الشعاع المنعش. أو الزمهرير المرعش. واذا نطقوا أصيخ لهم وان لم يكن نطقهم الا همسا ونبسا. واذا خطوا قصدوا وسددوا. واذا فعلوا أحسنوا وأجادوا. ثم يكون عملهم قدوة تنتحى ومثالا يحتذى. وهؤلاء الفحول يلفون في أخفض منازل المجتمع مثلما يلقون في أرفعها وأسماها.

فأساس الملكة الخطابية في جميع الحالات وعلى اختلاف شؤون أربابها وأعمالهم وحرفهم ومراكزهم — هو قوة الشخصية وشرف النفس وسمو الهمة. ولذلك ترى الامم والشعوب اذا احتاجت الى من يمثلها أمام الخصوم ويمثل أمانيها وأغراضها ويطالب برد حقوقها عمدت الى من كان من بين أفرادها أقواهم شخصية وأعظمهم روحا وأجزلهم حظا من صفات الرجولة وخلال الفحولة كالحزم والرزانة والحلم والادب والحصافة والجرأة والشجاعة مع سمو المركز الاجتماعي — جاعلة اهتمامها بهذه المزايا

الاخلاقية النبيلة . والسجايا الرجولية الجليلة . أشد من اهتمامها بالكفاءات الفنية كالخبرة القضائية مثلا أو غزارة العلم بالقانون الدولى والتجارى أو التفقه فى العلوم الاقتصادية والسياسية . ثم لى النوع الاول من الصفات والمزايا ـ أعنى صفات الرجولة والبطولة كانت ترمى الامة المصرية ـ أعنى ذوى الرأي والمكانة واولى الفضل والكفاءة والوزن والجاه منها ـ حينما عمدت الى اختيار الرئيس الجليل ثروت باشا ليمثلها لدى الخصوم ويكون النائب والوكيل عنها فى المطالبة بحقوقها وتحقيق أمانيها . ولقد صدق ظنها وصحت فراستها وأصبحت تحمد مذهبها فى اختيار ذلك البطل حينما حقق شطر أمانيها وبات ساهر الجفن قلق الضلوع متوقد الاحشاء فى تحقيق ما بقى من آمالها . فطوبى للامة المصرية ومرحى ! لقد علمت وعلم العالم اجمع انها حينما اختارت ثروت باشا للدفاع عن قضيتها والمطالبة بحقوقها قد اختارت الرجل الذى اذا نادى بالخصوم اسمع . واذا ناظر أقنع . واذا خاصم أفحم . واذا ناوأ ارغم .

من يساجلنى يساجل ماجداً
يملأ الدلو الى عقد الكرب

* * *

كادوا وكدت فأزهقت مادبروا

احدى هنالك اىما ازهاق

ان السر فى نجاح خطة ثروت بفضل قوة تأثيره واقناعه فى خطبه وأحاديثه هو ارتكاز كلامه على أساس الحقائق الثابتة . ولا مراء فى انه ماكان للرئيس الجليل ولا لأى خطيب او مناظر كائناً من كان أن يبلغ ما يريده من التأثير فى معارضيه واقناعهم بمجرد الملكات الكلامية ما لم تستقر فى جوف كلامه حقيقة صلبة مادية . وقياساً على هذا نقول ان ثروت باشا خطيب عظيم لأنه يرمي فى اثناء خطبه بالحقيقة تلو الحقيقة أوكما يقول أهل المجاز لأنه يصيب المحز ويطبق المفصل ويقرطس الفرض ويصمى كبد الحقيقة وله بعد ذلك مايسمونه ملكة التعميم اى استخلاص الكليات من الجزئيات والقواعد من المفردات فهو يستنتج اثناء كلامه المنسجم الفياض القاعدة والقانون ينير به جو المناقشة ويجلي به ظلمة الشك والشبهة فى أوجز اختصار واسرع ايماء كأنه لمحة البرق فى غاشيات الضباب

كم حومة للجدال فرجها

والقوم عجم فى مثلها خرس .

شك حشاها بخطبة عنن
كأنها منـه طعنة خلس

ثروت باشا هو الرجل الذى يشتمل على الحقائق الخطيرة ويعرف كيف يلقي بها فى روع المخاطب ويقذفها فى جنانه - يعرف كيف ينقلها الى وجدان المخاطب سواء اشاء المخاطب أم لم يشأ ويحمله على الاقتناع بصحتها والاعتقاد بها بالكره منه وعلى رغم أنفه . وكم من رجل يشتمل من الحقائق الخطيرة على مثل ما يشتمل عليـه ثروت باشا ولكنه يعجز عن نقلها الى قلوب معارضيه وعن حملهم على الاعتقاد بها . وانما ميزة الرئيس الجليل انه يعرف كيف يهتـدى الى ذلك المسلك السرى والمنفذ الخفي الذى يوصله الى كل قلب مغلق وجنان موصد من افئدة معارضيه ومناوئيه . وكل معارض فى حقيقة من الحقائق مكذب بها مغلق دونها باب قلبـه مهما حاول الفصحاء والبلغاء ايلاجها فى ذهنـه واقرارها فى ضميره بمختلف اساليب البيان وشتى وسائل الفصاحة - فاعلم انه يوجد فى أسرار البلاغة اسلوب اذا وضعت فيه تلك الحقيقة كان كفيلا أن ينفذ بها الى فؤاد ذلك المنكر المكذب مهما تحصن دونها باكثف مجان الجحود واصفق دروع المعارضة . نعم قد يتاح لهذا المنكر المعارض ذلك البليغ المقتدر فيصب له تلك

الحقيقة المكذبة المرفوضة فى قالب عجيب غريب مخالف لآلاف الصيغ والقوالب التى اعتاد ان يسمعها عليها ـ فيكون لهذا القالب من القوة والنفوذ ما يخترق به حجاب سمعه وقلبه ويفضى الى اعماق جنانه فيضع تحت تلك الحقيقة ويضرب هنالك اوتادها وأطنابها فترسو وتستقر على عرش فؤاده عقيدة راسخة مكينة عظيمة النفوذ والسلطان . فاذا ارتاح ضميره الى الخضوع لسلطان هذه الحقيقة سلم وعاش . واذا كره بعد كل ذلك ان يخضع لسلطانها لم يغنه ذلك ولم ينفعه بل ستراه يموت من دون ذلك كمدا . فان حكم هذه الحقيقة بعد تمكنها من عقيدته سيكون نافذا قاهرا محترما ـ فاما أن يخضع لها فتكون حاكمته ومالكته واما أن يأبى الخضوع فيموت بها ـ داءه القتال ومنيته العاجلة . ـ فهذا بلا شك اروع اساليب البلاغة وامضى أسلحتها . والذى يعالج بمثل هذا الاسلوب ويكافح بمثل هذا السلاح لا يملك أن يؤمن بدولة البيان وسلطان البلاغة ويردد قول نبينا عليه السلام « ان من البيان لسحرا »

ولا تنس ما امتاز به الرئيس من حميا الاخلاص ولهيب الحمية الذى هو اصل الحياة ومنبع الروح والقوة فى احاديثه وخطبه

ـوهذا مستمد من مصدرين : (١) غيرته ووطنيته الغريزية (٢) الظروف الراهنة الاستثنائيــة . فان الظروف ـ كما لا يخفى ـ تــكون أحياناً بمثابة منبع قوة جديد يضاعف ما بالانسان من قدرة وهمة . ومتى اجتمعت قوة الظروف وكفاءة المرء فذلك اجتماع العقل البشرى والقضاء الالهي . وقد أرى إخلاص ثروت باشا لفرط حميته اشبه شيء بالنشوة قد تملكت شعوره واشتملت على لبه . فهو يكاد يترنح وطنية وغيرة . واذا اراد الكلام ازدحمت سيول البلاغة في صدره ثم انطلقت تتدفق دفعاً فدفعاً . وتراه قد تملكه موضوع الخطابة أو الحديث أعنى موضوع القضية المقدسة تملكا يترك الافكار والمعاني تنسجم في نظام هو نظام الطبيعة ذاتها ـ اقوى النظم البيانية وأروع الاساليب التعبيرية وأجل وأعظم من أن يجارى أو يبارى . فلا جرم اذا قلنا ان ثروت باشا اذا خطب فانما الطبيعة تخطب بلسانه . واذا فاضت احاديثه فانما هي الحقيقة تفيض من معين قلبه ووجدانه . فلا عجب اذا كان تأثيرها في النفوس تاماً وسلطانها على الاذهان والارواح كاملا شأن الطبيعة في كل حركاتها وآثارها وعلى اختلاف صورها ومظاهرها . واني لأرى بعد في هذا الاخلاص الرائع الشديد وفي عظيم ما ينتج عنــه من خطب الرئيس الجليل وأحاديثه

الباهرة ـ مصداقاً على تلك الخرافة القديمة وهى « انما يصيب الغرض من السهام ما يغمس أولا فى دم الرامى

من حقق النظر فى احاديث ثروت باشا وفى خطبه وفى خطب واحاديث سائر ائمة الخطابة والمناظرة فى العالم امثال ديموسطين واسكينيز وديماديس وبيريكليس ولوثر وفوكس وشاتام وباتريك هنرى وآدمز وميرابو وايسوقراط وبيرك وجون بابتست وهرميت بطرس وجون نوكس ـ وجد أن أصدق تعريف للخطابة أو الحديث البليغ هو انه « افضل كلام صادر عن افضل روح » وانه « عنوان كل ما يحتوى الذهن من آيات الجلال والجمال » فاذا خرج الخطاب أو الحديث عن كونه مجرد آلة وأداة لتأدية ما يجيش بالصدر من عقائل الافكار وكرائم المعاني وأريد به أن يكون غاية فى ذاته وأن يتباهى به ويفتخر كبعض الزخارف والحلى صار أكذوبة وخدعة .. وليس هكذا حديث ثروت باشا ولا خطابه ـ وما كانت قط هكذا احاديث الفحول ممن ذكرنا آنفاً ولا خطاباتهم. اجل ليس هذا شأن الفحول في كلامهم وليس بهذا يأمر الاخلاص والصدق والغيرة والايمان والوطنية . وما زال رجال الجد والاخلاص امثال ثروت باشا يؤثرون الغرض الشريف والعمل الصالح على مجرد المباهاة برنين

نغمات البلاغة والمفاخرة بطنين مطربات البيان والخطابة ـ اعنى يؤثرون الجوهر على العرض والروح على الزى والملبس . وتلك شيمة الاخلاص النزاهة .

شتان بين كلام المخلص الجاد الغيور صادراً عن أعمق اعماق نفسه وبين كلام المزخرف المتأنق العابث صادراً عن أغلفة قلبه وقشوره الظاهرية ـ فهذا الاخير ليس سوى سحابة صيف . وعجالة ضيف . وشيء يولد مع الصباح ويزول وقت الزوال . وشبح يذهب كالظلال . بذهاب الاهواء والاميال . وأما الاول فآية تنقش على صحيفة الزمان . وتبقى على الدهر ما بقى الانسان . وتنتج أعظم النتائج من آثار المدنية ومظاهر العمران . وهل هذه المدنية الحاضرة وآتى المدنيات وماضيها وكل مايعمرها سالفاً وحاضراً ومستقبلا من آثار الانسان فى هذه الحياة ومصنوعاته ومبدعاته ومخترعاته من دول وممالك ونظم ودساتير وقوانين وشرائع وآداب وأخلاق وعلوم وصناعات وفنون ومعاملات تجارية واقتصادية وسياسية وقصور ومدائن وقلاع وكنائس وهيا كل ومتاحف ومقاصف وكل مايقوم عليه صرح هذه الحياة الهائلة من دعائم البقاء وأساطين العمران ـ وكل مايساعد الانسان الشقى المسكين على تخفيف عبء الحياة وتلطيف آلامها

ومعالجة آفاتها ومحنها واساغة جرعتها المضيضة ومضغتها المرة وتليين عجلاتها العسرة المستعصية تسهيلا لسيرها بقافلة الانسانية التعسة فى اوعار هـذه الحياة الشاقة الاليمة الى مثوى الانسان الاخير فى سكينة القبر وهدوئه ـ أقول هل ترى كل هـذه الاشياء المكون منها صرح المدنية ونظام الحياة الا نتيجة كلمة حق تعبر عن فكرة صالحة ؟

أجل ليس ثروت باشا بالعابث فى أحاديثه وخطبه يتوخى التأثير السطحي في الجماهير بطنين الكلم الاجوف الرنان ويخدع العقول بزبرج الكلام وتزاويقه يبتغى بذلك المفاخرة باللسن والذلاقة . والمباهاة بالحذق واللباقة . ويريغ الشهرة والذكر والجاه والسلطان ـ ولكنه رجل الجد والاخلاص والصدق قولا وعملا كثير الاطراق والتفكير فاذا نطق فباشئت من لب وفضل وحكمة . لايتصدى بالكلام لغرض من الاغراض أو مسألة من المسائل الا أنار شبهتها وكشف غامضها واستثار دفينتها وهكذا يجب أن يكون الكلام والا فلا . ان ثروت باشا ذلك الرجل المجبول بفطرته على الجد والاخلاص والحمية ليرى فى قضية البلاد المقدسة أمراً جللا أعظم من أن يحتمل العبث والتظاهر والمباهاة والادلال برنات طنان الكلام وسجعاته . لقد كان الامر عنده

ـ كما قال توماس كارليل ـ « أمر حياة أمة أو مماتها ـ أمر فلاح أو خسران ومسألة بقاء أو فناء . فلم يك منه ازاء ذلك الا الجد المر والاخلاص العميق . فأما التلاعب بالكلمات والعبث بالحقائق فليس من شأنه البتة . والعبث والتلاعب فى المسائل الحيوية الجلى جريمة من أفظع الجرائم اذ ليس هو الا رقدة القلب وهجعة العين عن الحقائق وتقلب المرء فى مظاهر كاذبة خداعة . فمثل هذا الانسان لا يقتصر أمره على كون أقواله وأعماله كلها أكاذيب بل انه هو نفسه أكذوبة . فأنت اذا تأملته فى صميم كيانه الفيت نور الله ـ أعني الشرف والمروءة ـ قد انطفأ فيه سراجه . وخبا وقاده ووهاجه . فهو على الرغم من ذرابة لسانه وخلابة بيانه . أفاك كاذب . اذ لا يزال مثل هذا الرجل سم الحياة وآفة الانسانية . فان غرك برخامة صوته وجرسه . وحلاوة جهره ونبسه . ورقة مسه ولمسه . لم يك فى ذلك الا كحامض الكربون تراه على لطف مسراه . ولين مجراه . سما نقيعاً . وموتاً ذريعاً . »

والآن بعد الذى أوردناه من ذلك الفصل المسهب والمطلب المستفيض فى وصف الركن الاول من مناقب ثروت باشا أعني الملكة الخطابية البيانية باصولها وفروعها وعددها وآلاتها ودقائقها وأسرارها ننتقل الى الركن الثانى من صرح أخلاقه الوطيد الرفيع

أعنى دماثة الطبع وعذوبة الشمائل .

لقد جاء فى حكمة الاقدمين انه لن يستطيع مسرة الجلساء واطرابهم بفنون الاحاديث من كانت روحه خاليـة من عنصر السرور والطرب . فان الحديث المشتمل على تحف المعانى وبدائع الافكار اذا صدر عن روح ساخطة أو غضبي أو متضجرة أو مشمئزة أعنى عن روح متنافرة مع أرواح الجلساء والعشراء كان جديراً أن يدهش الاذهان ويبهرها ولكنه ليس جديراً أن ينعش الارواح ويدخل على النفوس عوامل الانس والصفو والحبور . فخلة اجتذاب القلوب واستمالة الاهواء محال أن تتوافر لمن كان موحش الناحية مقفر الجناب خشن الجانب . فان الاذهان خلاف الارواح وليس من اللازم المحتوم أن الرجل القادر على النفاذ الى اذهان الناس بروائع كلمه أن يستطيع بهذه الواسطة وحدها أن ينفذ أيضا الى قلوبهم وأرواحهـم ـ إذ كيف يتأتى له ذلك اذا كان جامد الروح مظلم الهواء راكد النسيم . والرجـل الخالية نفسه من عوامل الفرح كيف يستطيع ادخال الفرح على نفوس غيره .

ولذلك قيل ان فن استمالة الغير بأسباب المسرة انما أساسه أن تكون قبل كل شيء مسروراً فى أعماق نفسك . ومن ثم

رأينا ان أعاظم كتاب الفكاهة فى العالم الذين قدموا للعالمين أوفر ذخائر السرور والانس وأشهى الوان الطرب والحبور على مائدة الفنون والآداب ـ امثال موليير وشاكسبير وسرفانيتس واديسون وجولدسمث وفيـدلن وستيرن وديكنز وثـكرى ورابليـه وماريفوه وصاحب الف ليلة ـ كانوا جميعاً من ذوى الطبائع الفرحة الجذلى والامزجة الرطبة الخضلة والصدور الثلوجة القريرة والنفوس الطيبة الراضية المطمئنة المملوءة بروح الصفاء والاستبشار والتفاؤل ـ على عكس المتشائمين المتبرمين الغاضبين الثائرين من كتاب الفكاهة امثال سويفت وبوب وفولتير وبيرون، الذين قد مزجوا مزاحهم بانكر الهجاء والتهكم وخلطوا مجونهم بأمض القذع والسخط والنقمة فجاءت مؤلفاتهم ادعى الى الايلام منها الى الاطراب . وادنى الى الايجاع منها الى الاعجاب . واجدر بالايحاش منها بالايناس . وانكى شبا من ابرة العقرب فى الشعور والاحساس . ـ ذلك الى الجم الكثير من آفات تلك الكتب التشاؤمية فى المجتمع ومساوىء آثارها فى هيكل الانسانية مما يصغر ويضؤل بجانبه ما قد حوت من الفوائد والمنافع حتى ذهب فريق كبير من ادباء العالم ونقاده الى اعتبار مؤلفيها الفحول الفطاحل من ضمن عوامل الفساد ومصادر الشر والبلاء على

العالم فقال لنا الفيلسوف الالمانى الطائر الصيت « فريدريك نيتشه » اغلقوا « بيرون » وافتحوا « جيتا » . واصل هذه السوآت والآفات فى الخالدات العبقريات من تآليف اولئك النوابغ هو كما اسلفت مرارة السجية وحموضة الطبع وحرافة المزاج وما يتبع ذلك من جفوة الروح وقسوة القلب وغلظة الكبد

وليس ثروت باشا بالجافى النفس ولا القاسي القلب ولا الغليظ الكبد ولا هو بالحامض الطباع الحريف المزاج ولا بالموحش الجناب المظلم الناحية الراكد النسمات . ولكنه مع متانة اخلاقه وصرامة عزمه وانه لا يجمد فى الحق ولا يتدفق فى الباطل تراه ذلك الرجل اللين الجانب المأنوس الجناب المشرق الناحية هيناً ليناً طلق الجبين براق الاسارير

بشر ابو مروان ان عاسرته عسر وعند يساره ميسور

***

وكالسيل ان قاومته انقدت طوعه
وتقتاده من جانبيه فيتبع

***

فاذا جالسته صدرته وتنحيت له فى الحاشية
واذا سايرته قدمته وتأخرت مع المستأنيه

واذا ياسرته صادفته سلس الخلق سليم الناحيه
واذا عاسرته صادفته شرس الرأي ابيا داهيه
فاحمد الله على صحبته واسأل الرحمن منه العافيه

وطبيعة ثروت باشا بعد هى الدماثة واللطف والرقة والظرف وان كان فيه عند مقتضيات الاحوال شدة وصلابة وبأس وصرامة

له سورة مكتنة فى سكينة كما اكتن فى الغمد الحسام المهند

وتلك شيمة الرجل الفاضل فى كل زمان ومكان . وتلك كانت شيمة أبطال العرب فى ذروة عزهم وعلياء مجدهم ـ قلوب تذوب رحمة وعطفاً . فى جوانح تلتهب حمية وأنفا . وأرواحاً تتدفق براً وكرماً . تحت عزمات تثور عزاً وشمما . كالينبوع الثر الغزير العذب النمير . يكتنفه أمنع سور من الصفوان . وأمتن حاجز من الجامد الصوان .

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له
بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

وتلك كانت شيمة فرسان المسيحية فى عهد الفروسية الامجد الاشرف الذى هو فخر المدنية الغربية فى القرون الوسطى ـ يوم كان ائمة الدين هم أيضاً ائمة الحرب والجهاد . وكان أعلام التقى أعلام الوغى . يوم كان أبطالهم يحملون الانجيل على اسلات

الرماح . ويقرنون السيف الى الصليب فى نطاق ووشاح هنالك كنت ترى أقصى غاية البر والرأفة والحنان . مع أقصى غاية الثبات والشجاعة وقوة الجنان . هنالك كنت ترى التواضع والحياء والخشوع والانكسار . مع البأس والشدة وصولة العزيز القهار

خاشع تارة وجبار أخرى فتراه أرضاً وطورا سماء

وهكذا اذا طلبت منتهى الرقة والدماثة والحنان والرحمة وجدتها فى الرجل الصارم الشجاع القوى المتين — وكذلك أعذب الماء وأصفاه هو ماصادفته فى النقر والاصاب في الصخرة الصماء والصفاة الصلدة .

ومن ثم كان ثروت باشا ذلك البطل القوى الأيد الصلب العود والمعجم رجلا سمحاً سجحا غزير الأنس والحفاوة جم الظرف والفكاهة تكاد ابتسامته تضيء ماحوله بنور البشر والطلاقة ويكاد الهواء يتأرج بطيب أنفاسه اذ كانت صادرة عن روضة الحسب الأغر . والكرم الاوفر الابر .

ولا شك عندى فى أن تلك المادة الغزيرة من الفرح والابتهاج الغريزي فى ثروت باشا هي من أعظم أسباب نجاحه فى كل مايحاول من الخطط والتدابير وكل ما يباشر من المعاملات

والمفاوضات . لأن ذلك الفرح والابتهاج يظل له كنشوة طبيعية تحرك همته وتبعث عزمته وتترك سيف جده مسلولا لأيسر داع ومقتضي وتغنيه عن كل منشط خارجي وحافز صناعي . وأكبر ظني ان هذا الابتهاج والصفاء الغريزي النفساني في ثروت باشا هو بعض مصادر تلك الجاذبية والخلابة التي استطاع بها أن يؤثر في كبار رجالات البريطانيين ممن فاوضوه في قضية البلاد المقدسة ويستميلهم الى مذهبه ويقنعهم بصحة رأيه ونصوع حجته . وأراني خليقاً أن أشبهه في ذلك بالقائد الانكليزي العظيم الدوق اوف « مالبره » ذلك البطل التاريخي المشهور الذي بفضل حذقه ولباقته انتصرت انكلترا وحلفاؤها على فرنسا في عهد لويز الرابع عشر يوم كانت فرنسا أقوي دول اوروبا جيوشاً وأمهرها قواداً وأشدها بأسا وصولة وأقهرها سطوة وسلطانا . لقد كانت جيوش حلفاء بريطانيا اثناء حروبها الطويلة المتوالية مع فرنسا في ذلك العهد عرضة لعوامل النزاع والشقاق لا يزال يقع بينها النفور والمشاحنة فلو كانت استمرت على تلك الحال لما كانت ظفرت من فرنسا بطائل بل كان من المؤكد هزيمتها واندحارها باسياف تلك الدولة . ولكن القدر الذى اراد غير ذلك جعل من خلابة القائد « مالبرة » ومن جاذبيته

ومن رقة شيمته وحلاوة انسه وعذوبة شمائله ابلغ وسيلة وأحسن واسطة لضم شوارد القلوب بين الحلفاء وتأليف نوافر النفوس وجمع بدائد الاهواء والاميال ونظم تلك العناصر المتشاحنة فى سلك واحد من الوئام والالفة وقياد الجميع بحبل التوفيق والهداية الى غرضهم الاوحد الفرد من تلك الحرب الشعواء — على الرغم من متباين مذاهبهم وآرائهم ومما كان متفشياً بينهم من عوامل التحاقد والتحاسد ونزوات التعسف والتهور ونزغات الطيش والضلال . فايما بلاط من بلاطات تلك الدول المتحالفة كان يذهب اليه القائد مالبرة ويغشاه كان لا يلبث بفضل سجاحة خلقه وحلاوة سجاياه وعذوبة طبعه أن يستميل اهله ويستدرجهم مهما بلغ من عنادهم وشكاستهم حتى يحملهم على قبول شروطه واتباع رأيه.

لقد امتاز ثروت باشا بنوع من صفاء النفس وهدوء الروح وسكينة الجأش لها فى نفوس مخاطبيه ومجالسيه من الاثر العميق ما يشبه تأثير النغم الرخيم والالحان الشجية ولا عجب فان الصفاء والهدوء من النظام وكل نظام فانما يكون نظاماً بفضل ماينطوى فى جوفه من الموسيقى الصامت أى من روح الموسيقى او بعبارة أخرى كل نظام موسيقى فى عنصره وجوهره . فهذا الهدوء والسكينة والصفاء فى ثروت باشا تؤثر فى مخاطبيه ومجالسيه

تأثيراً يسبيهم من نفوسهم ويجتذبهم اليه بنوع من الكهرباء الخفي . فلا جرم اذا قلنا ان مثل هـذا الخلاب تكون روحه منهلا للانس ومستراداً للنعيم والمسرة وسنا بشره يفيض على جوانب الجو كمثل رونق الضحى . وحـديثه ينفث فى الهواء كأنفاس النعامى . تنفح باريج الخزامى

أوكانسيم الغض غب الحيا يختال فى أردية الفجر

***

واذ ما اشار هبت صبا المسـ ـك وخلت الايوان من كافور

هذه السكينة والهدوء والصفاء الغريزية الفطرية (مع حدة الذهن الهائلة) هى التي بفضلها بلغ نابليون ـ أعظم رجل فى التاريخ الحديث ـ من ذروة المجد والعلاء وقمة الحسب والفخار ما راع الملأ وبهر العالم ـ وهى التي بفضلها أيضاً استطاع ذلك الرجل المدهش أن يحتمل ارزاء الدهر ومحن الزمان فى عظمة وجلال يشوبهما شيء من اللهو والعبث وأن يستسلم لخسارة ملك العالم استسلام من خسر دوراً فى لعبة النرد أو الشطرنج

وكذلك ترى ثروت باشا على صرامتـه وبأسه فى مواضع الجد والحزم اغر أبلج بساما وضاح الجبين جم البشر والحفاوة عذب الايناس حلو الفكاهة تتألق فى صفحة وجهه الكريم

ابتسامة صادقة من فؤاد صادق ـ لأن من الابتسامات ماتكون كاذبة منبعثة عن فؤاد كاذب كسائر اكاذيب صاحبها من أعمال وأقوال . وما زال الابتسام الصادق والضحك الخالص الصريح ينبعث من القلب الطاهر النقي الرقيق الحاشية . الامين الناحية. الغزير مادة الحنان والرحمة . فمثل ذلك الضحك يكون عنوان الكرم والخير . وشاهد المروءة والبر . اذا كان كاذب الضحك آية الشر والنكر وأمارة الخبث والغدر . وما زال الحر الشريف يمزح فى الاحايين ويهزل . والبر الكريم يطرب ويجذل . وما زلنا نرى الاريب الحصيف يفصل نظام حكمته الثمين بشذور الامازيح والفكاهات. ويرصع ديباجة كلامه الجدى الرزين بفصوص المعابثات والمداعبات . ومن ثم ما قاله توماس كارليل فى وصف افراط الفكاهة والضحك فى سيد شعراء العالم قاطبة • وليم شا كسبير » « لا ارى دليلا أصدق على ما يمتاز به ذلك الشاعر الخالد من كرم النفس ورقة الطبع ونقاء الضمير وصفاء السريرة من غلواء الضحك وافراط المزاح فى رواياته . ألا ترى ان مضحكاته تنحط عليك كشآبيب الغيث الثر . ودوافع السيل الهمر . ألا ترى انه اذا نصب احد أشخاص رواياته غرضاً لمرامى المزح والدعابة انبرى يهيل على رأسه ما لا يحصى من افانين

الهزل والمجون وينقله من المواقف والاشكال المضحكة فيما فيه أقصى عجب العاجبين . وضحك الضاحكين . فيخيل اليك ان شاكسبير يضحك من ذلك الشخص الذي هو سليل وهمه وصنع خياله ضحكا مفرطا بملء صدره واضلاعه . وهو بعد ضحك طيب صالح لا يراد به السخرية من البؤساء والمساكين والضعفاء — التي هي ألأم انواع الضحك لما تنطوي عليه من السفالة والخبث والنذالة . واني أرى ضحك شاكسبير وغيره من ذوي الكرم والبر والرأفة ليس من قبيل معمعة الحريق تحت القدر — يقهقه لهيبه وضرامه والقدر تغلي وتفور . ولكنه ضحك مشوب بالرحمة والعطف حتى على الاغبياء والادعياء . فمثل ذلك الضحك لا اشبهه إلا بنساط نور الشمس على صدر البحر الرحيب . »

وكذلك ثروت باشا رجل الجد والحدوالقوة والمتانة والوقار والرزانة والعزم والصرامة . لا يخلو مع ذلك من رقة الظرف وحلاوة الايناس وطرف الفكاهة والدعابة . فياله من جوهرة كريمة « ابدى الله صفحتها . وجلا بهاءها وبهجتها » على حين قد اقفر العصر من الجواهر الغوالى . وصفرت الايدي من كرائم اللآلى . فحبذا تلك من جوهرة جمعت بين الرونق والمتانة . والسنا الوهاج والرصانة . كالصخرة المنطوية على ينابيع الكرم

والسخاء . وأشعة الفطنة والذكاء. وجمرات العزم والمضاء

ومن أركان مناقب ثروت أيضاً الثقـة بالنفس والاعتزاز بالرأي والنفاذ والصرامة . فهو يمضي فى تنفيذ ارادته مضاء النجم الثاقب متحملا مسؤولية اعماله وتبعتها متحملاً ما يعترضه مما يراه هو اعتراضاً باطلا واعتباراً كاذباً .غير مبال بما يصوب اليه من سهام الملام والتفنيد وقوارص العذل والتقريع اغتباطا بما يعتقد انه سيكون من صالح النتائج ومحمود العواقب ـ ممـا يراه هو ببصره النافذ ورويته البصيرة وان خفي على غيره من الاشخاص المعتادين ممن لم تمنحهم الطبيعـة ما ميزته هو به من الذكاء والفطنة والدهاء . فلا عجب اذا كان ثروت شأ كغيره من الابطال والفحول يتبين فيما يأتى ويذر وفيما يحل ويعقد من سر الحكمة ووجه الصواب ماليس يظهر لسواه من النـاس اذ كان كل قائد يظل أعرف بخطته من سائر الجنود وأبصر بما ينتهج لهم من مناهج السعي والعمل وسبل الغزو والجهاد .فبرنامج العمل المرقوم فى ذهنه وخريطة الزحف المرسومة على صفحات قلبه انما يقرؤها ويفهمها هو وحده من دونهم . وهو وحده المسؤول عن العاقبة والنتيجة .فلينتقدوا وليعارضوا ما شـؤوا فما

اعتراضهم ونقدهم إلا سحابة صيف لن تلبث أن تزول متى طلعت من ورائها شموس نتائج أعماله مشرقة بلجاء واذ ذاك يعلم اقوام أن مذهب الوزير كان الحق الصراح وخطته الصدق المبين وكان عمله منزها عن الاغراض والاهواء بريئاً من شوائب الانانية . بل هادماً لعوامل الانانيـة ماحقاً لعناصرها مشبعاً بعواطف الوطنية والاخلاص والتضحية .

ونحن اذا آنسنا فى أخلاق ثروت باشا خلة الثقة بالنفس والاعتزاز بالرأى فقد ما آنس الناس ذلك فى كل بطل وقائد . وهل كان الاعتزاز بالنفس الا شيمة النفس الثائرة على الا كاذيب والاباطيل المترفعة عن مراعاة اكاذيب التقاليد والاصطلاحات. واباطيل السنن والاعتبارات. الآخذة بالجد والاقدام والاصرار والمثابرة بعزيمة لا تهن ولا تكل . وصريمة لا تثلم ولا تفل . المستهزئة باكاذيب الاراء والعقائد . فصاحب مثل هذه النفس الكبيرة الشماء ينطلق الى غايتـه انطلاق الكوكب المشبوب مسترسلا فى سننه طرباً على نغمات موسيقى روحه العظيمة الجياشة الصداحة ولو ثارت من حوله الزوابع . وضجت المعامع . وصخبت الزعازع . وهبت العواصف . وزمجرت القواصف . وكاد الكون أن يتحطم فيتهدم . هذه وابيك البطولة فى انصع مجاليها . وابعد

مراميها . وهى وان راعت بعض القوم واخافتهم ـ لعجزهم عن سبر أغوارها . وادراك أسرارها . ـ فالواجب على الجميع أن يوفوها حقها من الاجلال والاكبار . اذا كانت قد حفت من شواهد الجلال وآيات السمو والعظمة بما ينبغى أن يثير عواطف الاعجاب والاكبار فى نفس كل شريف بل فى نفس كل من عاق بنفسه أدنى أثر من عناصر الشرف والكرم والمروءة ـ فيملؤه عجباً وطرباً من جلائل أعمال ذلك البطل (وان قصر ذهنه عن تمام إدراكها) ثم يلهمه شيئاً من الصبر والتأنى انتظاراً وترقباً لما سيكون من نتائج فعاله وعواقب أعماله . ـ وحسبه أثناء ذلك أن يحمل نفسه على الاعتقاد بأن أفعال مثل هـذا الرجل القوى انما هي أفعال المولى جل شأنه يأتيها على يد عبد من عباده . فقبيح بأي مخلوق أن يتسرع اليها باللوم والطعن والهجاء وذميم أن يعجل الى منفذها بالشر والشغب والمناوأة أو يعترضه فى سبيله الخشن الصعب بالعرقلة والتعطيل والمقاومة ـ فحسبه بخشونة مركبه ووعورة مسلكه . وإنه يبيت ساهر العين من أجل عيون ملء أجفانها الرقاد . وينصب متعب الجسد من أجل أجساد . تتقلب على اللين مهاد . ويتجرع غصص الالم . فى سبيل أقوام يرشفون أقداح المسرات والنعم . ويخترط أشواك المضض من شجر الكمد

والعناء . لمصلحة من يقطفون ثمار الراحة من أفنان الدعة والصفاء .

ان الرجل العظيم يعمل عمله مدفوعاً اليه بدافع وجدانى مستتر فى خفايا نفسه العميقة العظيمة — فحكمة هذا الدافع الوجدانى لا يمكن أن تكون بادية لعيون العامة والجماهير مثلما تبدو وتظهر لصاحبه — بدليل ان كل امرئ يكون أعرف بسريرة وجدانه من غيره ويكون أبعد نظراً وأقصى مرمي فيما يتعلق بمذهبه الخاص به دون غيره وبخطته التي هو انتهجها دون سواه .

ولكننا نرى الذين لا يريدون أن يعترفوا للرجل العظيم بشرف مسعاه . وسمو غايته ومرماه — إما لقصر عن إدراك مراميه أو لآفة فى نفوسهم — ينكرون عليه بعد همته . وحسن نيته . فيتهمونه بالسعي وراء حاجة فى نفسه وبغية شخصية أنانية . ومن ثم يحكمون عليه بما لا يليق أن ينسب الى الفحول والابطال . أمثال هؤلاء الظالمين الجائرين لا يرون فى أبطال العالم الذين هم بناة مافى العالم من مجد وعظمة ومشيدو ما فيه من صروح الحضارة والمدنية العالية — والذين هم فى الحقيقة اعلام التاريخ وفرائد عقده النظيم المؤلفة منهم سلسلة المدنيات الذهبية — الا اشراراً آثمين لافضل لهم ولا خير فيهم . وانهم لم يأتوا من أعمالهم العظام ماأتوا الا ارضاء لشهوات أنانية واشباعا لمطامع شخصية . والواقع ان

اولئك الافاكين المعتدين بالكذب والزور على مقامات العظماء فى كل زمان ومكان هم الجناة الآثمون الذين لم يسلم من السنتهم بطل ما أيا كان فى حاضر الزمن وغابره فهم زعموا أن الاسكندر الاكبر كان مجنوناً مصاباً بجنون الغزو والفتح بعلة انه دوخ بلاد اليونان . واصقاع آسيا - وزعموا أن حب الشهرة والولوع بالصيت كان باعثه الوحيد على فتوحاته العظيمة بدليل ان هذه الفتوحات قد ادت فى النهاية الى الصيت والشهرة . ومثل هذا قاله اولئك الافاكون عن يولوس قيصر وهانيبال والسفاح وتيمور لنك ومحمد الفاتح وشارلمان وشارل الثانى عشر ملك السويد (الذين سموه « مجنون الشمال - اشارة الى موقع مملكته من انحاء المعمور) ونابليون بونابرت وكذلك خيل اليهم انهم قد استطاعوا أن يثبتوا الجنون على ائمة العالم وقادته وأقطابه . وكأنى بهم قد استنتجوا من ذلك (وان لم يصرحوا بهذا الاستنتاج) انهم هم الاكابر والفحول والعظماء - لا نابليون ولا محمد الفاتح ولا عمرو ولا أمثالهم - وأنهم أجل وأعظم من هؤلاء الاعلام والاقطاب بدليل أنهم لم يغزوا آسيا كالاسكندر ولم يفتحوا روما كهانيبال ولم يدوخوا اوربا كما فعل نابليون وانما حصروا كل مجهودهم وهمتهم فى أن يأكلوا ويشربوا ويتركوا غيرهم يأكل ويشرب وبذلك عاشوا وماتوا سالمين مسلما

منهم آمنين مأمونا من شرهم

فهؤلاء النقاد الاصاغر أشبه شيء بالبعوض الذى يحاول أن يلدغ بأبرته الضئيلة الواهية المناكب العراض والاعناق الضخمة من أسود المجتمع وضياغمه فتكل ابرتهم وتنبرى دون أن تنال تلك الليوث بأدنى ضائر. أو هم كما قال الاعشى

كناطح صخرة يوماً ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

هذا البعوض النقاد مازال يظهر فى العالم منذ كان العالم لم يخل منه عصر من العصور ولا مصر من الامصار. فنحن نتلو نبأه فى اليازة هوميروس تحت اسم « ترسيثيس » ذلك المخلوق الحقير الذى لم يكن له هم ولا دأب الا سب الامراء والملوك — فكان جزاؤه على الدوام الضرب بالعصى والجلد بالسياط. وأشد عذاباً عليه من ذلك شوكة الحسد المغيض وابرة الحقد الأليم التي قضى عليه أن لايزال يحملها فى جلده. وجمرة الغيظ والحنق التي قيض له أن لاتنفك مدفونة فى صميم كبده. وحسبه فشلا وخيبة مع كل ذلك أن تصبح آراؤه الوجيهة الرشيدة. وانتقاداته السليمة السديدة — يوماً ما ان عاجلا أو آجلا — قد ذهبت بعد كل مجهوداته الجسيمة ومحاولاته العظيمة هباء منثورا. « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا : »

* * *

والآن بعد ما اجلت قلمى الضعيف جولة فى هذا الميدان الفسيح ـ مجال البطولة والفحولة ـ وسمته خوضة فى ذلك الخضم العميق ـ عباب العظمة والهمة والرجولة ـ التي به فى ا كنان الراحـة نضواً متعباً حسيراً من طول ما اصطلك أثناء جولاته بهضاب تلك العبقرية الباذخة . وجبال تلك البطولة الشامخة . وأطرح صحيفتي فى يم التأليف ذلك الهائج المائج الثائر المضطرب لتلقي نصيبها من الطفو أو الرسوب . وجزاءها من العطب أو السلامة .

لقد أمضيت برهة على هضاب جبل « أوليمب » مجال الابطال وملعب الالهة (فى أساطير اليونان) أتأمل روائع آياتها وبدائع معجزاتها . حتىأفعم قلبي جلالا وجمالا . وبهرني ذلك المشهد المهيب فانحدرت نازلا وأنا أسبح بحمدالله عجباًوطرباً واحمد الصانع البديع الذى يأبي كرمه وفضله أن يترك مقابح هذه الحياة وشوهاتها فى أى عصر وبقعة خالية من محاسن الرجولة . مقفرة من مفاخر العظمة والبطولة .

مشروع ملنر

مذكرة

١ ـ لكي يبني استقلال مصر على أساس متين دائم يلزم تحديد العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر تحديداً دقيقاً ويجب تعديل ماتتمتع به الدول ذوات الامتيازات في مصر من المزايا وأحوال الاعفاء وجعلها أقل ضرراً بمصالح البلاد

٢ ـ ولا يمكن تحقيق هذين الغرضين بغير مفاوضات جديدة تحصل للغرض الاول بين ممثلين معتمدين من الحكومة البريطانية وآخرين معتمدين من الحكومة المصرية ومفاوضات تحصل للغرض الثانى بين الحكومة البريطانية وحكومات الدول ذوات الامتيازات وجميع هذه المفاوضات ترمي الى الوصول الى اتفاقات معينة على القواعد الآتية :—

٣ ـ اولا ـ تعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى تعترف بريطانيا العظمى بموجبها باستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ذات هيئات نيابية وتمنح مصر بريطانيا العظمى الحقوق التى تلزم لصيانة مصالحها الخاصة ولتمكينها من تقديم الضمانات التى يجب أن تعطى للدول الاجنبية لتحقيق تخلى تلك الدول عن تلك الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات

ثانياً ـ تبرم بموجب هذه المعاهدة نفسها محالفة بين بريطانيا العظمى

ومصر تتعهد بمقتضاها بريطانيا العظمى أن تعضد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها وتتعهد مصر انها فى حالة الحرب حتى ولو لم يكن هناك مساس بسلامة ارضها تقدم داخل حدود بلادها كل المساعدة التى في وسعها الى بريطانيا العظمي ومن ضمنها استعمال ما لها من الموانىء وميادين الطيران ووسائل المواصلات للاغراض الحربية .

٤ ـ تشتمل هذه المعاهدة احكاما للاغراض الآتية :—

اولا ـ تتمتع مصر بحق التمثيل فى البلاد الاجنبية وعند عدم وجود ممثل مصري معتمد من حكومته تعهد الحكومة المصرية بمصالحها الى الممثل البريطانى وتتعهد مصر بان لا تتخذ في البلاد الاجنبية خطة لا تتفق مع المحالفة أو توجد صعوبات لبريطانيا العظمي وتتعهد كذلك بان لا تعقد مع دولة اجنبية أي اتفاق ضار بالمصالح البريطانية .

ثانياً ـ تمنح مصر بريطانيا العظمى حق ابقاء قوة عسكرية فى الاراضى المصرية لحماية مواصلاتها الامبراطورية وتعين المعاهدة المكان الذي تعسكر فيه هذه القوة وتسوي ماتستتبعه من المسائل التى تحتاج الى التسوية ولا يعتبر وجود هذه القوة بأي وجه من الوجوه احتلالا عسكرياً للبلاد كما انه لا يمس حقوق حكومة مصر .

ثالثاً ـ تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشاراً يعهد اليه في الوقت عينه بالاختصاصات التى لصندوق الدين الآن ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته في جميع المسائل الاخرى التى قد ترغب فى استشارته فيها .

رابعاً ـ تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية موظفا فى وزارة الحقانية يتمتع بحق الدخول على الوزير ويجب احاطته علماً على

الدوام بجميع المسائل المتعلقة بادارة القضاء فيما له مساس بالاجانب ويكون ايضاً تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته في أي أمر مرتبط بحفظ الامن العام

خامساً — نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها الى الآن الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التداخل بواسطة ممثليها في مصر ليمنع أن يطبق على الاجانب أى قانون مصرى يستدعي الآن موافقة الدول الاجنبية وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها أن لا تستعمل هذا الحق الا حيث يكون مفعول القانون جائراً على الاجانب .

صيغة أخرى لهذه المادة

نظراً لما فى النية من نقل الحقوق التي تستعملها للآن الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التداخل بواسطة ممثليها لتمنع أن ينفذ على الاجانب أي قانون مصري يستدعي الآن موافقة الدول الاجنبية وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها بأن لا تستعمل هذا الحق الا في حالة القوانين التي تتضمن تمييزاً جائراً على الاجانب فى مادة فرض الضرائب اولا توافق مبادىء التشريع المشتركة بين جميع الدول ذوات الامتيازات.

سادساً — نظراً للعلاقات الخاصة التي تنشأ عن المحالفة بين بريطانيا العظمى ومصر يمنح الممثل البريطاني مركزاً استثنائياً في مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين .

سابعاً — الضباط والموظفون الاداريون من بريطانيين وغيرهم

من الاجانب الذين دخلوا خدمة الحكومة المصرية قبل العمل بالمعاهدة يجوز انتهاء خدمتهم بناء على رغبتهم أو رغبة الحكومة المصرية في أي وقت خلال سنتين بعد العمل بالمعاهدة وتحدد المعاهدة المعاش أو التعويض الذي يمنح للموظفين الذين يتركون الخدمة بموجب هذا النص زيادة عما هو مخول لهم بمقتضى القانون الحالي .

وفي حالة عدم استعمال الحق المخول بهذا الاتفاق تبقى احكام التوظف الحالية بغير مساس .

٥ — تعرض هذه المعاهدة على جمعية تنظيم ولكن لا يعمل بها الا بعد انفاذ الاتفاقات بين الدول الأجنبية على ابطال محاكمها القنصلية وانفاذ الأوامر العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة .

٦ — يعهد الى جمعية التنظيم وضع قانون نظامى جديد تسير حكومة مصر فى المستقبل بمقتضى أحكامه ويتضمن هذا النظام أحكاماً تقضى بجعل الوزراء مسئولين امام الهيئة التشريعية وتقضي أيضاً باطلاق الحرية الدينية لجميع الأشخاص وبالحماية الواجبة لحقوق الأجانب .

٧ — تحصل التعديلات اللازم ادخالها على نظام الامتيازات باتفاقات تعقد بين بريطانيا العظمى والدول المختلفة ذوات الامتيازات وتقضى هذه الاتفاقات بابطال المحاكم القنصلية الأجنبية لكي يتيسر تعديل نظام المحاكم المختلطة وتوسيع اختصاصها وسريان التشريع الذى تسنه الهيئة التشريعية المصرية (ومنه التشريع الذى يفرض الضرائب) على جميع الاجانب فى مصر .

٨ — تنص هذه الاتفاقات على أن تنتقل الى الحكومة البريطانية الحقوق التي كانت تستعملها الحكومات الأجنبية المختلفة بمقتضى نظام

الامتيازات وتشتمل أيضاً أحكاماً تقضي بما يأتي . —

أولا — لا يسوغ العمل على التمييز الجائر على رعايا أى دولة وافقت على ابطال محاكمها القنصلية ويتمتع هؤلاء الرعايا فى مصر بنفس المعاملة التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون .

ثانياً — يؤسس قانون الجنسية المصرية على قاعدة النسب فيتمتع الاولاد الذين يولدون في مصر لأجنبي بجنسية أبيهم ولا يحق اعتبارهم رعايا مصريين .

ثالثاً — تخول مصر موظفى قنصليات الدول الأجنبيه نفس النظام الذى يتمتع به القناصل الأجانب فى انجلترا .

رابعاً — المعاهدات والاتفاقات الحالية التى اشتركت مصر في التعاقد عليها فى مسائل التجارة والملاحة ومنها اتفاقات البريد والتلغراف تبقى نافذة المفعول أما في المسائل التى ينالها مساس ماجراء ابطال المحاكم القنصلية فتعمل مصر بالمعاهدات النافذة المفعول بين بريطانيا العظمى والدول الأجنبية صاحبة الشأن مثل معاهدات تسليم المجرمين وتسليم البحارة الفارين وكذلك المعاهدات التى لها صفة سياسية سواء كانت معقودة بين أطراف عـدة أو بين طرفين مثال ذلك اتفاقات تحكيم والاتفاقات المختلفة المتعلقة بسير الحروب وذلك كله ريثما تعقد اتفاقات خاصة تكون مصر طرفا فيها .

خامساً — تضمن حرية ابقاء المدارس وتعليم لغة الدولة الاجنبية صاحبة الشأن علي شرط أن تخضع هذه المدارس من جميع الوجوه للقوانين السارية بوجه عام على المدارس الأوروبية بمصر .

سادساً — تضمن أيضا حرية ابقاء أو انشاء معاهد دينيه وخيرية

كالمستشفيات الخ وتنص المعاهدات أيضا على التغيرات اللازمة في صندوق الدين وعلى ابعاد العنصر الدولى عن مجلس الصحة في الاسكندرية .

٩ ــ التشريع الذى تستلزمه الاتفاقات السالفة الذكر بين بريطانيا والدول الأجنبية يعمل به بمقتضى مراسيم تصدرها الحكومة المصرية وفي الوقت عينه يصدر مرسوم يقضى باعتبار جميع الاجراآت التشريعية والإدارية والقضائية التى اتخذت بمقتضى الاحكام العرفية صحيحة .

١٠ ــ تقضى المراسيم العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة بتخويل هذه المحاكم كل الاختصاص الذى كان مخولا الى الآن المحاكم القنصلية والأجنبية ويترك اختصاص المحاكم الأهلية غير ممسوس

١١ ــ بعد العمل بالمعاهدة المشار اليها فى البند الثالث تبلغ بريطانيا العظمى نصها الى الدول الأوروبية الأجنبية وتعضد الطلب الذي تقدمه مصر للدخول عضواً في جمعية الأمم .

*

مشروع كرزون

بنصوص مشروع اتفاق بين بريطانيا العظمى ومصر

أولا ـ انتهاء الحماية

١ ـ في مقابل ابرام المعاهدة الحالية والتصديق عليها تقبل حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمي رفع الحماية المعلنة على مصر في ١٨ ديسمبر سـنة ١٩١٤ والاعتراف بمصر من ذلك الحين دولة متمتعة بحقوق السـيادة (Sovereign State) تحت اسرة ملوكية دستورية . فبمقتضى هذا قد أبرمت وتستمر باقية بين حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمي وشعبه من جهـة وبين حكومة مصر والشعب المصرى من الجهة الأخري معاهدة دائمة ورابطة سلام ووداد وتحالف.

ثانياً ـ العلاقات الأجنبية

٢ ـ تتولى الشؤون الخـارجية لمصر وزارة الخارجية المصرية تحت ادارة وزير معين لذلك .

٣ ـ يمثل حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى فى مصر قوميسير عال يكون له في جميـع الأوقات وبسبب مسؤولياته الخاصة مركز استثنائى ويكون له حق التقدم على ممثلى الدول الأخرى .

٤ ـ يمثل الحـكومة المصريه في لوندره وفي أية عاصمة أخرى ترى الحكومة المصرية أن المصالح المصرية يمكن أن تستدعى هـذا التمثيل فيها معتمدون سياسيون يكون لهم لقب ومرتبة وزير .

٥ ـ بالنظر للتعهدات التى أخذتها بريطانيا العظمى على نفسها في

مصر وعلى الخصوص فيما يتعلق بالدول الأجنبية يجب أن توجد أوثق الصلات بين وزارة الخارجية المصرية والقوميسير العالى البريطانى الذى يقدم كل المساعدة الممكنة للحكومة المصرية فيما يتعلق بالمعاملات والمفاوضات السياسية .

٦ — لاتدخل الحكومة المصرية في أي اتفاق سياسى مع دولة أجنبيه بدون أن تستطلع رأي حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى بواسطة القوميسير العالى البريطانى .

٧ — تتمتع الحكومة المصرية بحق تعيين ممثلين قنصليين في الخارج حسب مقتضيات مصالحها .

٨ — لأجل تولى الشؤون السياسية بوجه عام والقيام بالحماية القنصلية للمصالح المصرية في الاماكن التي لايوجد فيها ممثلون سياسيون أو قناصل مصريون يضع ممثلو جلالة ملك بريطانيا العظمى أنفسهم تحت تصرف الحكومة المصرية ويقدمون لها كل مساعدة فى قدرتهم .

٩ — تستمر حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى على تولى المفاوضة لالغاء الامتيازات الحالية مع الدول ذوات الامتيازات وتقبل مسؤولية حماية المصالح المشروعة للاجانب في مصر وتتداول حكومة جلالة الملك مع الحكومة المصرية قبل البت في هذه المفاوضات رسمياً .

ثالثاً — النصوص العسكرية

١٠ — تتعهد بريطانيا العظمى بمساعدة مصر في الدفاع عن مصالحها الحيوية وعن سلامة أراضيها .

لأجل القيام بهذه التعهدات ولحماية المواصلات الامبراطورية البريطانية الحماية اللازمة تكون للقوات البريطانية حرية المرور في مصر

ولها أن تستقر في أي مكان في مصر ولأية مدة يحددان من وقت لآخر . ويكون لها أيضاً في كل وقت مالها الآن من التسهيلات لاحراز واستعمال الثكنات وميادين التمرين والمطارات والترسانات الحربية والمين الحربية .

رابعاً ـ استخدام الموظفين الأجانب

١١ ـ بالنظر للمسؤليات الخاصة التى تتحملها بريطانيا العظمى وبالنظر للحالة القائمة فى الجيش المصرى والمصالح العمومية تتعهد الحكومة المصرية بألا تعين ضباطاً أو موظفين أجانب في أية مصلحة منها قبل موافقة القوميسير العالى البريطانى .

خامساً ـ الادارة المالية

١٢ ـ تعين الحكومة المصرية بمداستشارة In consultation with حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قوميسيراً مالياً توكل اليه في الوقت المناسب الحقوق التي يقوم بها الآن أعضاء صندوق الدين ويكون هذا القوميسير المالى مسؤولا بوجه أخص عن دفع المطلوبات الآتية في مواعيدها :

(١) المبالغ المخصصة لميزانية المحاكم المختلطة .

(٢) جميع المعاشات والسنويات الأخرى المستحقة للموظفين الاجانب الحالين على المعاش وورثتهم .

(٣) ميزانيتى القوميسيرين المالى والقضائى والموظفين التابعين لهما .

١٣ ـ لأجل أن يؤدى القوميسير المالى واجباته كما ينبغى يجب أن يحاط احاطة تامة بجميع الأمور الداخلة في دائرة وزارة المالية ويكون له فى كل وقت التمتع بحق الدخول على رئيس مجلس الوزراء ووزير المالية

١٤ ـ ليس للحكومة المصرية عقد قرض خارجى أو تخصيص ايردات مصلحة عمومية بدون موافقة القوميسير العالى

سادساً ـ الادارة القضائية

١٥ ـ تعين الحكومة المصرية بالاتفاق مع حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قوميسيراً قضائياً يكلف بسبب التعهدات التى تحملتها بريطانيا العظمى القيام بمراقبة تنفيذ القانون في جميع المسائل التي تمس الاجانب .

١٦ ـ لاجل أن يؤدي القوميسير القضائى واجباته كما ينبغي يجب أن يحاط احاطة تامة بجميع الامور التى تمس الاجانب وتكون من اختصاص وزارة الحقانية والداخلية ويكون له في كل وقت التمتع بحق الدخول على وزيري الحقانية والداخلية .

سابعاً ـ السودان

١٧ ـ حيث ان رقي السودان السلمي هو من الضروريات لأمن مصر ولدوام مورد المياه لها تتعهد مصر بأن تستمر في أن تقدم لحكومة السودان نفس المساعدات الحربية التي كانت تقوم بها في الماضى أو أن تقدم بدلا من ذلك لحكومة السودان اعانة مالية تحدد قيمتها بالاتفاق بين الحكومتين

تكون كل القوات المصرية في السودان تحت امر الحاكم العام

وغير ذلك تتعهد بريطانيا العظمي بأن تضمن لمصر نصيبها العادل من مياه النيل ولهذا الغرض قد تقرر أن لا تقام اعمال ري جديدة على النيل أو روافده جنوبى وادى حلفا بدون موافقة لجنة مؤلفة من ثلاثة أمناء يمثل أحدهم مصر والثانى السودان والثالث أوغندا .

ثامناً ـ قروض الجزية

١٨ ـ المبالغ التي تعهد خديوي مصر فى أوقات مختلفة بدفعها للبيوت المالية التي أصدرت القروض التركية المضمونة بالخزينة المصرية تستمر الحكومة المصرية على تخصيصها كما كان في الماضي لدفع الفوائد والاستهلاك لقرضي سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩١ الى أن يتم استهلاك هذين القرضين.

تستمر الحكومة المصرية ايضاً في دفع المبالغ التى كان جارياً دفعها لسداد فوائد قرض سنة ١٨٥٥ المضمون.

عند ما يتم استهلاك قروض سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩١ وسنة ١٨٥٥ تنتهي مسئولية الحكومة المصرية فيما يتعلق بأي تعهد ناشىء عن الجزية التى كانت تدفعها مصر لتركيا سابقاً .

تاسعاً ـ اعتزال الموظفين والتعويض المستحق لهم

١٩ ـ للحكومة المصرية الحق فى أن تستغني عن خدمة الموظفين البريطانيين في أى وقت كان بعد نفاذ هذه المعاهدة بشرط أن يمنح هؤلاء تعويضاً مالياً كما سيأتى بيانه وذلك زيادة على المعاش أو المكافأة التى يستحقونها بمقتضى احكام استخدامهم

ويكون للموظفين البريطانيين الحق بنفس هذه الشروط في الاستعفاء من الخدمة فى أي وقت بعد نفاذ هذه المعاهدة .

تسرى جميع هذه الاحكام على الموظفين الذين لهم الحق في المعاش والذين ليس لهم الحق فى المعاش وأيضاً على موظفى البلديات ومجالس المديريات والهيئات المحلية الاخري .

٢٠ ـ الموظفون المرفوتون أو المحالون على المعاش طبقاً لنص المادة السابقة تعطي لهم زيادة على التعويض اعانة اياب لبلادهم تكون كافية لسد نفقات ترحيل الموظف نفسه وعائلته ومتاعه المنزلي الى لندره .

٢١ ـ تدفع التعويضات والمعاشات بالجنيهات المصرية باعتبار سعر ثابت قدره ٩٧ قرشاً صاغاً ونصف قرش صاغ للجنيه الانجليزي

٢٢ ـ يوضع جدول عن التعويضات :

(١) للموظفين الدائمين

(٢) للموظفين المؤقتين

بمعرفة رئيس جمعية خبراء حسابات التأمين (Society of Actuaries)

عاشراً ـ حماية الاقليات

٢٣ ـ تتعهد مصر بان النصوص الوارد ذكرها فيما بعد تعتبر قوانين أساسية وألا يتضارب معها أو يؤثر عليها أي قانون أو لائحة أو عمل رسمي وألا ينقض مفعولها قانون أو لائحة أو عمل رسمي

٢٤ ـ تتعهد مصر بأن تضمن لجميع سكان مصر الحماية التامة الكاملة لأرواحهم وحريتهم من غير تمييز بسبب مولدهم أو تبعيتهم الاولية أو لغتهم او جنسهم أو دينهم .

يكون لجميع سكان مصر الحق فى أن يقوموا بحرية تامة علانية أو غير علانية بشعائر أية ملة أو دين أو عقيدة ما دامت هذه الشعائر لا تنافي النظام العام أو الاداب العمومية.

٢٥ — جميع الحائزين للرعوية المصرية يكونون متساوين أمام القانون ويكون لكل منهم التمتع بما يتمتع به الاخرون من الحقوق المدنية والسياسية من غير تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين .

اختلاف الاديان والعقائد والمذهب لا يؤثر على أي شخص حائز للرعوية المصرية في المسائل الخاصة بالتمتع بالحقوق المدنية والسياسية مثل الدخول في الخدمات العمومية والتوظف والحصول على ألقاب الشرف أو مزاولة المهن أو الصناعات .

لا يسوغ فرض أي قيد على أى شخص متمتع بالرعوية المصرية فى حرية استعماله لأية لغة في معاملاته الخصوصية أو التجارية أو في الدين أو في الصحف أو في المطبوعات من أي نوع كانت أو في الاجتماعات العمومية .

٢٦ — الاشخاص الحائزون للرعوية المصرية التابعون للأقليات القومية أو الدينية أو اللغوية يكون لهم الحق في القانون وفي الواقع في نفس المعاملة والضمانات التى يتمتع بها غيرهم من الحائزين للرعوية المصرية وعلى الخصوص يكون لهم حق مساو لحق الآخرين فى أن ينشئوا أو يديروا أو يراقبوا على نفقتهم معاهد خيرية أو دينية أو اجتماعية ومدارس أو غيرها من دور التربية ويكون لهم الحق فى أن يستعملوا فيها لغتهم الخاصة وأن يقوموا بشعائر دينهم بحرية فيها ؟

المذكرة التفسيرية

تبليغ من نائب جلالة الملك
الى حضرة صاحب العظمة سلطان مصر
فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢١

يا صاحب العظمة

انه بموجب التعليمات التى وصلتنى من حكومة جلالة الملك لي الشرف أن أرفع الى مقام عظمتكم البيان الآتى المتضمن آراء حكومة جلالته فيما يتعلق بالمفاوضات التى جرت حديثاً مع الوفد المرسل من قبل عظمتكم تحت رئاسة صاحب الدولة عدلي يكن باشا أن حكومة جلالته قدمت الى عدلي باشا مشروع اتفاق لعقد معاهدة بين الامبراطوريه البريطانية ومصر كانت حكومة جلالته على استعداد لأن توصى جلالة الملك ومجلس النواب بقبوله ولكنها علمت بمزيد الاسف أن ذلك المشروع لم يحز قبولا لديه . ومما زاد أسفها أنها تعتبر اقتراحاتها هذه سخية في جوهرها واسعة النطاق في نتائجها فانها لا يمكنها أن تبقى محلا لأى أمل في اعادة النظر في المبدأ الذى بنيت عليه تلك الاقتراحات لذلك كان من المستحسن أن تحيط حكومة جلالته علم عظمتكم احاطة وافية بالاعتبارات الرئيسية التى استرشدت بها وبالروح التى صدرت عنها تلك الاقتراحات..

ان هناك حقيقة جلية سادت العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر

مدة أربعين سنة ويجب أن تبقى هذه الحقيقة سائدة على الدوام وهي التوافق التام بين مصالح بريطانيا العظمى في مصر وبين مصالح مصر نفسها . ان استقلال الامة المصرية وسيادتها كلاهما عظيم الاهمية للامبراطورية البريطانيه . ان مصر واقعة على خط المواصلات الرئيسى بين بريطانيا العظمي وممتلكات جلالة الملك فى الشرق وجيع الاراضى المصريه هي في الواقع ضرورية لهذه المواصلات لان مصر لا يمكن فصلها عن سلامة منطقة قناة السويس . لذلك فان حفظ مصر بسالمة من تسلط أية دوله عظيمة أخرى عليها هو فى الدرجة الاولى من الأهمية للهند وأستراليا ونيوزيلانده ولجميع مستعمرات وولايات جلالته فى الشرق ويؤثر في سعادة وسلامة نحو ثلاثمايه وخمسين مايونا من رعايا جلالته ثم ان نجاح مصر يهم هذه البلاد ليس لان كلا من بريطانيا العظمي ومصر هي أفضل عملية للاخري فقط بل لان كل خطر جسيم على مصلحة مصر التجاريه أو المـاليه يدعو الى مداخلة الدول الاخرى فيها ويهدد استقلالها . هذه كانت البواعث الرئيسيه للعلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر وهي لاتزال الآن على ما كانت عليه من القوة في العام الماضى .

لقد اعترف الجميع بما أصاب هذا الائتلاف من النجاح بوجه عام أثناء الحرب العظمى . ولما بدأت بريطانيا العظمي تهتم بمصر اهتماماً فعلياً كان المصريون فريسة الاحتلال المالى والفوضى الاداريه وكانوا تحت رحمة أي قادم ولم يكن في طاقتهم مقاومة ضروب الوسائل القتالة للاستغلال الاجنبي تلك الوسائل التي تسلب من نفوس الامه كرامتها وتمحو قواها الحيويه فاذا كانت الامه المصريه الآن أمه نشيطة ذات

كرامة فانها مدينة لهذه النهضة على الخصوص لمعونة بريطانيا العظمى ومشورتها ان المصريين سلموا من المداخلة الأجنبية واعينوا على انشاء نظام ادارى وانه وقد تدرب عدد كبير منهم على ادارة الأمور والحكم واطرد نمو مقدرتهم ونجحت ماليتهم نجاحاً فوق المنتظر وقد قامت سعادة جميع الطبقات على أسس ثابتة . وفى هذا التقدم السريع لم يكن هناك ظل للاستغلال أن بريطانيا العظمى لم تطلب لنفسها ربحاً مالياً أو امتيازاً تجارياً والأمة المصرية قد جنت كل ثمار مشورة بريطانيا العظمى ومساعدتها لها . أن نشوب نار الحرب بين الدول الأوربية العظمى سنة ١٩١٤ زاد بالضرورة عرى الائتلاف توثيقاً بين الامبراطورية البريطانية ومصر . ولما انضمت الدولة العثمانية الى جانب المانيا في الحرب لم يكن أثر ذلك قاصراً على تهديد المواصلات البريطانية وحدها بل كان مهدداً لها ولاستقلال مصر على السواء تهديداً عاجلا فكان اعلان الحماية على مصر اعترافاً بهذه الحقيقة وهي أنه لا يمكن دفع الخطر عن الامبراطورية البريطانية ومصر معاً الا بعمل مشترك تحت قيادة واحدة . كان تساع نطاق الحرب بدخول تركيا فيها السبب فى قتل وتشويه آلاف من رعايا جلالة الملك من الهند واستراليا ونيوزيلاند ومن رجال بريطانيا العظمي أيضاً وقبورهم في غاليبولى وفلسطين والعراق شاهدة على الجهد العظيم الذي كابدته شعوب الأمبراطورية البريطانيه بسبب دخول تركيا . قد اجتازت مصر هذه المحنة دون أن يمسها ضرر بفضل جهود من بعثت بهم تلك الشعوب من الجنود . فكانت خسائر مصر طفيفه ولم يزد دينها وثروتها لآن أعظم مما كانت قبل الحرب فى حين أن الكساد الاقتصادى قد اشتدت وطأته على أكثر البلدان الاخرى . فليس من الحكمة أن

الشعب المصرى يتغاضى عن هذه الحقائق أو ينسى لمن هو مدين بذلك كله. ولولا القوة التى أبدتها الأمبراطوريه البريطانيه في الحرب لاصبحت مصر ميدان حرب بين القوات المتحاربه ولوطئت هذه القوات حقوق مصر بأقدامها وأفنت ثروتها . ولولا نصر الحلفاء لم تكن في مصر أمة الآن تطالب بحقوق السيادة الوطنيه بدلا عن حمايه أجنبيه فالحريه التى تتمتع بها مصر الآن وماتتطلع اليه من حرية أوسع انما هي مدينه بهما للسياسة البريطانيه والقوة البريطانيه .

ان حكومة جلالة الملك مقتنعة بأن الاتفاق التام فى المصالح بين بريطانيا العظمي ومصر الذى جعل ائتلافاً نافعاً لكلتيهما فى الماضى هو دعامة العلاقة التى يجب على كلتيهما استمرار المحافظة عليها وعلى الأمبراطوريه البريطانيه الآن كما كان في الماضي أن تحمل على عاتقها فى آخر الأمر مسئولية الدفاع من أراضى عظمتكم ضد أي تهديد خارجي . وكذلك عليها تقديم المعونه التي قد تطلبها في أى وقت حكومة عظمتكم لحفظ سلطتكم في البلاد . ثم أن حكومة جلالة الملك تطلب فوق ذلك أن يكون لها دون غيرها الحق فى تقديم ماقد تحتاج حكومة عظمتكم من المشورة في ادارة البلاد وتدبير ماليتها وترقية نظامها القضائى ومواصلة علاقاتها مع الحكومات الأجنبيه : على أن حكومة جلالته لاترمي من وراء هذه المطالب الى منع مصر من تمتعها بكامل حقوقها فى حكومة ذاتية وطنية بل هي ترمي بذلك لى التمسك بها قبل الدول الأجنبيه الأخري . وهذه المطالب قوامها تلك الحقيقة وهي أن استقلال مصر واستتباب النظام فيها وسعادتها ركن أساسى لسلامة الأمبراطوريه البريطانيه فحكومة جلالة الملك تأسف على أن

مندوبى عظمتكم لم يتقدموا أثناء المفاوضات تقدماً يذكر في سبيل الاعتراف بما للامبراطوريه البريطانيه دون سواها من الأسباب الصحيحة للتمسك بهذه الحقوق والمسئوليات .

ان شروط المعاهدة التي تعتبرها حكومة جلالة الملك ضرورية لحفظ هذه الحقوق وكفالة هذه المسئوليات قد أدرجت فى مواد المشروع الذي سيرفعه الى عظمتكم صاحب الدوله عدلى باشا . وأهم هذه الشروط هو مايتعلق بالجنود البريطانيه . فأن حكومة جلالة الملك قد عنيت أتم عناية ببحث الادلة التي قدمها الوفد المصرى فى هذا الشأن ولكنها لم تستطع أن تقبلها . لأن حالة العالم الحاضرة ومجري الأحوال فى مصر منذ عقد هدنة لا يسمحان بأي تعديل كان في توزيع القوات البريطانيه في الوقت الحاضر ومن الواجب اعادة القول بأن مصر هي جزء من مواصلات الأمبراطوريه البريطانيه ، ولم يكد يمضى جيل على مصر منذ انقذت من الفوضى وهناك علامات على أنه لا يبعد على المتطرفين فى الحركة الوطنيه أن يزجوا بمصر ثانية في الهوة التى لم يطل العهد على انقاذها منها . وقد زاد اهتمام جلالة الملك بهذا الشأن لما رأنه من عدم رغبة وفد عظمتكم في الاعتراف بأن الامبراطوريه البريطانيه يجب أن يكون عندها ضمان قوى ضد أي تهديد مثل هذا لمصالحها والى أن يحين الوقت الذى يكون فيه سلوك مصر مدعاة الى الثقة بالضمانات التى تعطيها يكون من الواجب على الأمبراطوريه البريطانيه نفسها أن تستبقى ماتراه كافياً من الضمانات . وأول هذه الضمانات ورأسها هو وجود جنود بريطانيه في مصر وحكومة جلالة الملك لا يمكنها أن تتخلى عن هذا الضمان ولا أن تنقص منه .

على انها تعيد القول وتأكده بأن مطالبها في هذا الصدد لا يقصد بها استمرار حماية لا فعلا ولا حكما بل بالعكس أن أمنيتها القلبية الخالصة هي أن تتمتع مصر بحقوق وطنيـة ويكون لها بين الامم مقام دولة متمتعة بحق السيادة على أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقاً بالامبراطورية البريطانيـه بمعاهدة تكفل للفريقين مصالحهما وأغراضهما المشتركة .

ولهـذه الغاية التي جعلتها حكومة جلالته نصب عينيها اقترحت رفع الحماية فوراً والاعتراف بمصر « دولة متمتعة بحقوق السيادة تحت أمرة ملوكيـة دستورية » والاستعاضة عن العلاقات القائمة الآن بين الامبراطوريه البريطانيـه ومصر « بمعاهدة دائمة رابطة سلام ووداد وتحالف » وكانت حكومة جلالته تأمل أن مصر باعادة وزارة الخارجية ترسل ممثليها في الحال الى الممالك الاجنبيـة كما انها كانت على استعداد لتعضيد مصر في انضمامها الى جمعية الامم اذا طلبت ذلك وبذلك كان يتحقق لمصر في الحال ما للدول المتمتعة بحقوق السيادة من السلطة والميزات

ولكن رفض حكومة عظمتكم الحاضرة لهذه الاقتراحات اوجد حالة جديدة. وهذه الحالة لا تؤثر في مبدأ السياسة البريطانية ولكنها بالضرورة تقلل من التدابير التى يمكن تنفيـذها الآن ولذلك فان حكومة جلالة الملك ترغب أن تبدى بوضوح حالة موقفها الآن .

ففيما يتعلق بالحاضر لا يمكن لحكومة جلالته تنفيذ اقتراحاتها بدون رضاء الامة المصريه واشتراكها ولكن حكومة جلالته تحافظ على الرغبة التى كانت لديها على الدوام وهي العمل على انماء مواهب المصريين بزيادة عدد الموظفين منهـم في كل فرع ولاسيما في الفروع الاداريه الماليه التي كثر فيها عدد الموظفين الاوربيين وحكومة جلالته مستعدة

لان تواصل بمشاورة حكومة عظمتكم المفاوضات مع الدول الاجنبية لاجل الغاء الامتيازات لكي يكون الموقف الدولى جلياً عند ما يحين وقت اصدار التشريع المصري الذي سيحل محل تلك الامتيازات. وكذلك ترجو حكومة جلالته ان السلطة التي يباشرها الآن القائد العام تحت القانون العسكري تباشرها الحكومة المصريه وحدها بمقتضى القوانين المدنيه المصريه وهي تسر برفع الاحكام العسكريه حالما يصدر « قانون التضمينات » ويعمل به في كل المحاكم المدنية والجنائية فى مصر

وهو قانون لابد منه لحماية الحكومة المصريه وحماية السلطة البريطانيه فى مصر

وأما من جهة المستقبل فان حكومة جلالة الملك ترغب أن توضح بعبارة جلية السياسة التي تنوى اتباعها . فقد علمت أن المشروع الذي قدمته الى وفد عظمتكم قد رفض بحجة أن الضمانات التى تضمنها المشروع لصيانة المصالح البريطانيه والاجنبية تقضي على التمتع بالحكومة الذاتية تمتعاً صحيحاً وهي تأسف غاية الاسف على أن استبقاء الجنود البريطانية في مصر واشتراك الموظفين البريطانيين مع وزارتى الحقانية والمالية يساء فهم المراد منهما الى هذا الحد . اذا كان الشعب المصري يستسلم الى امانيه الوطنية مهما كانت هذه الامانى صحيحة ومشروعة في ذاتها دون أن يكترث اكتراثاً كافياً بالحقائق التي تستحكم في الحياة الدولية فان تقدمه في سبيل تحقيق مطمحه الاسمى لا يصيبه التأخير فقط بل يتعرض للخطر تعرضاً تاماً . اذ ليس من فائدة ترجى من وراء التصغير من شأن ما على الامة من الواجبات وتعظيم ما لها من الحقوق وان الزعماء المتطرفين الذين يدعون الى هذا

لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون رقيها . وهم بما كان لهم من الاثر في مجرى الحوادث قد تحدوا مرة بعد مرة الدول الاجنبية في مصالحها وأثاروا مخاوفها . وكذلك عملوا في الاسابيع الاخيرة على التأثير على مصير المفاوضات بنداءآت مهيجة استثاروا بها جهل العامه وشهواتهم . وان حكومة جلالة الملك لا تعتبر انها تخدم مصلحة مصر بتساهلها ازاء تهييج من هذا القبيل ولن يمكنوا مصر أن تسير في سبيل الرقي الا متى اظهر قادتها المسئولون من الحزم والعزيمة ما يكفل قمع مثل هذا التهييج فان العالم الآن تألم من جهات عديدة من الاندفاع في نوع من الوطنية المتعصبة المضطربة وحكومة جلالة الملك تقاوم هذا النوع من الوطنية بكل شدة سواء في مصر او في غيرها . وان اولئك الذين يستسلمون لتلك النزعات انما يعملون على جعل القيود الاجنبية التي يطلبون الخلاص منها اشد لزوماً وبذلك يطيلون أجلها.

واذ كان الامر كذلك فان حكومة جلالة الملك مراعاة لمصلحة مصر ومصلحتها الخاصة أيضاً تستمر بلا تردد على مواصلة غرضها كمرشدة لمصر وأمينة على مصالحها ولا يكفيها أن تعلم أن في استطاعتها العودة الى مصر اذا تبين أن مصر بعد أن تركت لنفسها بغير معونة قد عادت الى عهد التبذير والاضطراب الذى لازمها فى القرن الماضى . فرغبة حكومة جلالة الملك أن تستكمل العمل الذى بدىء به فى عهد اللورد كرومر لا أن تبدأه من جديد . وهي لا تنوى أن تبقى مصر تحت وصايتها بل بالعكس ترغب فى تقوية عناصر التعمير في الوطنية المصريه وتوسيع مجال العمل أمامها وتقريب الوقت الذي يمكن فيه تحقيق المطمح الوطنى تحقيقاً تاما . ولكنها ترى من الواجب أن تصر على

الاحتفاظ بالحقوق والسلطة الفعاله لأجل صيانة مصالح مصر ومصالحها الخاصة على السواء وذلك الى أن يظهر الشعب المصرى انه قادر على صيانة بلاده من الاضطراب الداخلى وما يترتب عليه حتما من تداخل الدول الاجنبية .

وسبيل التقدم الوحيد للشعب المصرى يقوم على تآزره مع الامبراطوريه البريطانية لاعلى تنافرها . وحكومة جلالته لرغبتها فى هذا التآزر مستعدة فيما يتعلق بها الى البحث فى أية طريقة قد تعرض عليها لإجل تنفيذ اقتراحاتها فى جوهرها وذلك فى أى وقت تريده حكومة عظمتكم . على انها مع هذا لا يسعها تعديل المبدأ الذى بنيت عليه تلك الاقتراحات ولا اضعاف الضمانات الجوهريه التى تشتمل عليها. وهذه الاقتراحات من مقتضاها أن يكون مستقبل مصر في أيدى الشعب المصري بنفسه . فكلما زاد اعتراف شعبكم بوحدة المصالح البريطانيه ومصالحه قلت الحاجة الى هذه الضمانات . وقادة مصر المسئولون هم الذين عليهم فى هذا العهد الثانى من اشتراكهم مع بريطانيا العظمي أن يثبتوا بقبولهم النظام الوطني المعروض عليهم الآن وبالتزام جانب الحكمة فى العمل به ان المصالح الحيويه للامبراطوريه البريطانية في بلادهم يمكن أن توكل لعنايتهم بالتدريج .

رد الوفد الرسمي

على مشروع الاتفاق بين بريطانيا العظمى ومصر

اطلع الوفد الرسمي المصري على المشروع الذي سلمه اللورد كرزون الى رئيس الوفد بتاريخ ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢١ .

ولقد رأي أن هذا المشروع تضمن فيما يتعلق بأكثر المسائل التي تناولتها مناقشاتنا والمذكرات التي تبادلناها منذ أربعة شهور نفس النصوص والصيغ التي عرضت علينا عند بدء المفاوضات ولم نقبلها حينئذ .

فمن المسألة العسكريه وهي ذات أهمية كبرى استبقى المشروع الحل الذي قاومناه أشد مقاومة . ولم يقتصر على ذلك بل توسع في مرماه بما جعله أشد وطأة . على ان حمايه المواصلات الامبراطوريه ، وهي التي قيل فى مفاوضات العام الماضى أنها العلة الوحيدة لوجود قوة عسكريه في القطر المصري ، لاتبرر هذا الحل .

ففي حين أنه كان يكفى تعيين نقطة فى منطقة القنال تنحصر فيها طرق ووسائل المواصلات الامبراطوريه وكذلك القوة التي تتولى حمايتها نص المشروع على تخويل بريطانيا العظمي الحق فى ابقاء قوات عسكريه فى كل زمان وفي أي مكان بالاراضي المصريه ووضع أيضاً تحت تصرفها كل مالدى القطر من وسائل المواصلات وطرقها . وهذا انما هو الاحتلال بذاته ، الاحتلال الذي يهدم كل معنى للاستقلال بل ويذهب

الى حد القضاء على السيادة الداخلية . على ان الاحتلال العسكري في الماضي ، ولو لم تكن له الا صفة مؤقته ، قد كفى لأن يثبت لبريطانيا العظمى المراقبة المطلقة على الادارة كلها وان لم يكن هناك أي نص في معاهدة أو تقرير لأية سلطه .

أما مسألة العلاقات الخارجيه ، وهي المسألة الوحيدة التي عدلت فيها الصيغة الاولى التي كانت وضعتها وزارة الخارجية البريطانيه وذلك بقبول مبدأ التمثيل ، فان المشروع قد أحاط الحق الذي اعترف لنا به بقيود كثيرة أصبح معها بمثابة حق وهمي ، اذ لا يتصور أن تتوفر لدى وزير الخارجية الحرية التي يقتضيها القيام بأعباء منصبه وتحمل مسؤوليته اذا كان ملزماً بنص صريح بأن يبقى على اتصال وثيق بالمندوب السامي . فان ذلك معناه أن يكون خاضعاً في الواقع لمراقبته مباشرة في ادارة الامور الخارجيه . وعدا ذلك فان الالتزام بالحصول على موافقة بريطانيا العظمى على جميع الاتفاقات السياسيه ، حتى ما لا يتناقض منها مع روح التحالف ، فيه اخلال خطير بمبدأ السيادة الخارجيه . وأخيراً فان استبقاء لقب المندوب السامي ، وهو لقب لم تجر العادة بمنحه الى الممثلين السياسيين لدى البلاد المستقلة ، هو أوضح في الدلالة على طبيعة النظام السياسي المقترح لمصر .

ومن جهة أخرى فان تأجيل مسألة الامتيازات دعانا الى الاعتقاد بأنه لم تبق حاجة الى النص عليها في المعاهدة وان المفاوضة بشأنها في المستقبل تكون موكولة الى مصر صاحبة الشأن الاول مع معاونتها في ذلك سياسياً من جانب حليفتها . ولكن المسألة منظوراليها اليوم كأنها تعني على الاخص بريطانيا العظمي التي تتولى من الآن حماية

المصالح الاجنبية . وتريد أن تباشر وحدها عند الاقتضاء المفاوضات بشأن الغاء الامتيازات .

أما فيما يتعلق بالمندوبين (القومسيرين) المالى والقضائى وبتداخلهما فى ادارة الشؤون الداخلية كلها باسم حماية المصالح الاجنبيه تداخلا قد يصل فى بعض الاحوال فيما يختص بالمندوب (القومسير) المالى الى شل سلطة الحكومة والبرلمان فاننا لانريد هنا أن نكرر ماسبق لنا ابداؤه من الاعتراضات في مذكراتنا .

على انه يتحتم علينا القول بأن المناقشات التى تلت تأجيل مسألة الامتيازات بعثت فى نفوسنا الشعور بأن الاتفاق فيما يتعلق بحماية المصالح الاجنبية سيقوم على قواعد أكثر ملاءمة للسيادة المصريه

أما مسألة السودان التي لم يكن قد تناولها البحث فلا بد لنا فيها من توجيه النظر الى ان النصوص الخاصة بها لا يمكن التسليم بها من جانبنا . فان هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع بما لها على تلك البلاد من حق السيادة الذى لانزاع فيه وحق السيطرة على مياه النيل

* * *

ان الملاحظات المتقدمة لاتجعل ثمت حاجة الى مناقشة المشروع تفصيلا اذ فيها ما يكفى للدلالة على روحه ومرماه . وغير هذا فقد التزم المشروع تكرار ذكر تعهدات بريطانيا العظمي و « المسؤوليات الخصوصيه » الواقعة على المندوب السامي وكذلك الغرض الجديد ــ وهو قصد صيانة المصالح الحيويه لمصر ــ الذى اتخذ سبباً لوجود القوة العسكرية وبهذا تم للمشروع صبغة الوصاية الفعلية .

انا لما قبلنا المهمة التي عهد بها الينا عظمة السلطان كنا نؤمل الوصول الى ابرام معاهدة تحالف مؤيدة لاستقلال مصر تأييداً حقيقياً وكفيلة في الوقت نفسه بصيانة المصالح البريطانية وعندئذ فان مصر حليفة بريطانيا العظمى كانت تعد من واجبات كرامتها الوفاء باخلاص عما تقطعه على نفسها من العهود . ولكن التحالف بين أمتين لا يمكن أن يتحقق الا على شريطة أن لا يقضى علي احداهما بالخضوع الدائم .

وان روح المسالمة التى سادت مناقشاتنا كانت تسمح لنا بالتفاؤل بنجاح المفاوضات . ولكن المشروع الذي أمامنا لم يحقق هذا الامل . فهو بحالته لا يجعل محلا للأمل في الوصول الى اتفاق يحقق أمانى مصر الوطنية ؟

لوندره فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢١

الوثيقتان الجديدتان

كتاب اللورد اللنبي الى عظمة السلطان

ياصاحب العظمة

(١) أتشرف بأن أعرض لمقام عظمتكم أن الناس قد ذهبوا في تأويل بعض عبارات المذكرة التفسيرية التى قدمتها الى عظمتكم في الثالث من شهر ديسمبر مذاهب تخالف أفكار الحكومة البريطانية وسياستها وهو ما آسف له أشد الأسف

(٢) ولقد يخال المرء مما نشر عن هذه المذكرة من التعليقات العديدة أن كثيراً من المصريين التى في روعهم أن بريطانيا العظمي توشك أن ترجع في نواياها القائمة على التسامح والعطف على الأماني المصريه وانها تنوى الانتفاع بمركزها الخاص بمصر لاستبقاء نظام سياسى ادارى لايتفق والحريات التي وعدت بها

(٣) غير انه ليس شيء أبعد عن خاطر الحكومه البريطانيه من هذه الفكرة . بل ان الاساس الذي بنيت عليه المذكرة التفسيريه هو ان الغاية من الضمانات التى تطلبها بريطانيا العظمى ليست ابقاء الحماية حقيقة أو حكماً . وقد نصت المذكرة على أن بريطانيا العظمى صادقه الرغبة في أن ترى مصر متمتعه بما تتمتع به البلاد المستقلة من ميزات أهلية ومن مركز دولى

(٤) واذا كان المصريون قد رأوا في هذه الضمانات انها تجاوزت الحد الذى يلتئم مع حالة البلاد الحرة فقد غاب عنهم ان انجلترة انما

الجأها الى ذلك حرصها على سلامه" نفسها تلقاء حالة تتطلب منها أشد الحذر خصوصاً فيما يتعلق بتوزيع القوات العسكريه" . على أن الاحوال التي يمر بها العالم الآن لن تدوم . ولا يلبث كذلك أن يزول الاضطراب السائد في مصر منذ الهدنة . والامل وطيد فى أن الاحوال العالمية صائرة الى التحسن . هذا من جانب . ومن جانب آخر فكما قيل في المذكرة سيجيء وقت تكون فيه حالة مصر مدعاة الى الثقه" بما تقدمه هى من الضمانات المصرية لصيانة المصالح الاجنبية

(٥) اما أن تكون انجلترة راغبة في التداخل في ادارة مصر الداخلية فذلك ماقالت فيه الحكومة البريطانية ولا تزال تقول ان اصدق رغباتها وأخلصها هو أن تترك للمصريين ادارة شؤونهم . ولم يكن يخرج مشروع الاتفاق الذي عرضته بريطانيا العظمى عن هذا المعنى . واذا كان قد ورد فيه ذكر موظفين بريطانيين لوزارتى المالية والحقانية فان الحكومة البريطانية لم ترم بذلك الى استخدامهما للتداخل في شؤون مصر . وكل ماقصدته هو أن تستبقى اداة اتصال تستدعيها حماية المصالح الاجنبية .

(٦) هذا هو كل مرمى الضمانات . ولم تصدر هذه الضمانات قط عن رغبة في الحيلولة بين مصر وبين التمتع بحقوقها الكاملة في حكومة أهلية .

(٧) فاذا كانت هذه هي نوايا انكلترة فلا يمكن لأحد أن ينكر أن انجلترة يعز عليها أن ترى المصريين يؤخرون بعملهم حلول الاجل الذى يبلغون فيه مطمحاً ترغب فيه انكلترة كما تتوق اليه مصر . أو أن ينكر انها تكره أن ترى نفسها مضطرة الى التداخل لرد الامن الى

نصابه كلما أدركه اختلال يثير مخاوف الاجانب ويجعل مصالح الدول في خطر . وانه ليكون مما يؤسف له أن يرى المصريون في التدابير الاستثنائية التي اتخذت أخيراً أي مساس بمطمحهم الاممي أو أية دلالة على تغيير القاعدة السياسية التى سبق بيانها . فان الحكومة البريطانية لم يعد غرضها أن تضع حداً لتهييج ضار قد يكون لتوجيهه الى اهواء العامة نتائج تذهب بثمرة الجهود القومية المصرية . ولذلك كان الذى روعي بوجه خاص فيما اتخذ من التدابير مصلحة القضية المصريه التي تستفيد من أن البحث فيها يجري في جو قائم على الهدوء والمناقشة باخلاص .

(٨) والآن وقد بدت تعود السكينة الى ما كانت عليه بفضل الحكمة التى هي قوام الخلق المصرى والتى تتغلب فى الساعات الحاسمة فانى لسعيد أن أنهي الى عظمتكم أن حكومة جلالة الملك تنوى أن تشير على البرلمان باقرار التصريح الملحق بهذا . وانى على يقين بأن هذا التصريح يوجد حالة تسود فيها الثقة المتبادلة ويضع الاساس لحل المسألة المصرية حلا نهائيا مرضيا .

(٩) وليس ثمت مايمنع منذ الآن من اعادة منصب وزير الخارجيه والعمل لتحقيق التمثيل السياسى والقنصلى لمصر .

(١٠) أما انشاء برلمان يتمتع بحق الاشراف والرقابة على السياسة والادارة في حكومة مسؤولة على الطريقة الدستورية فالأمر فيه يرجع الى عظمتكم والى الشعب المصري .

واذا ابطأ لأى سبب من الاسباب انفاذ قانون التضمينات (اقرار الاجراءات التي اتخذت باسم السلطة العسكرية) السارى على جميع

ساكني مصر والذى أشير اليه في التصريح الملحق بهذا فانى أود أن أحيط عظمتكم بأني الى أن يتم الغاء الاعلان الصادر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ سأكون على استعداد لايقاف تطبيق الاحكام العرفية فى جميع الامور المتعلقة بحرية المصريين فى التمتع بحقوقهم السياسية .

فالكلمة الآن لمصر . وانه ليرجى انها وقد عرفت مبلغ حسن استعداد الحكومة البريطانية ونواياها تسترشد فى أمرها بالعقل والروية لا بعامل الاهواء .

ولى مزيد الشرف الخ

القاهرة فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

(اللنبي فيلد ماريشال)

تصريح لمصر

بما ان حكومة جلالة الملك عملا بنواياها التى جاهرت بها ترغب في الحال في الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة

وبما أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك وبين أهمية جوهرية للامبراطورية البريطانية

— فبموجب هذا تعلن المبادىء الاتيه :

(١) انتهت الحماية البريطانيـة على مصر . وتكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

(٢) حالما تصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (اقرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ المعل على جميع ساكني مصر تلغي الاحكام العرفية التي أعلنت في ٢ نوفمبر ١٩١٤

(٣) الى أن يحين الوقت الذى يتسني فيـه ابرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومـة المصرية فيما يتعلق بالامور الآتى بيانها وذلك بمفاوضات وديه غير مقيـدة بين الفريقين تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولى هذه الامور وهي :

« ا » تأمين مواصلات الامبراطوريه البريطانيه في مصر

«ب» الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تداخل أجنبي بالذات أو بالواسطه

«ج» حماية المصالح الاجنبية فى مصر وحماية الاقليات

«د» السودان

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحالة فيما يتعلق بهـذه الامور على ماهي عليه الآن .

تأليف الوزارة الجديدة

امر كريم نمرة ١٣ لسنة ١٩٢٢

صادر لحضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

عزيزي عبد الخالق ثروت باشا

ان القرار الذي ابلغنا اياه صاحب المقام الجليل المندوب السامي لدولة بريطانيا العظمي فيما يختص بانتهاء الحماية البريطانية على مصر بالاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة يحقق أعز امنية لنا ولشعبنا العزيز وهو ثمرة الجهاد القومي الذي تعهدناه على الدوام بالتشجيع والتأييد ولا ريب عندنا في أن استمساك الامة بروابط الوئام والاتحاد والتزامها جانب الحكمة في هذا الدور الجديد من حياتها السياسية كفيل بتحقيق كامل امانيها

ونظراً لما نعرفه لكم من الجهد المشكور في خدمة القضية المصرية ولما لنا من الثقة التامة بكم وما نعهده فيكم من الجدارة الكاملة للقيام بمهام الامور — قد اقتضت ارادتنا السلطانية توجيه سند رئاسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرئاسة الجليلة لعهدتكم . وقد أصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للاخذ في تأليف وزارة جديدة يكون من بينها وزير للخارجية وعرض مشروعه لجنابنا لصدور مرسومنا العالى به . ولما كان من أجل رغباتنا أن يكون للبلاد نظام دستوري يحقق التعاون بين الامة

والحكومة لذلك يكون من أول ما تمني به الوزارة اعداد مشروع ذلك النظام .

وانا نسأل الله العلي القدير أن يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود على بلادنا ورعايانا بالخير والسعادة وهو المستعان .

صدر بسراى عابدين في ٢ رجب سنه ١٣٤٠ ـ أول مارس ١٩٢٢

الامضاء (فؤاد)

برنامج الوزارة

يا صاحب العظمة :

أتقدم الى سدة عظمتكم بفائق الشكر على ما تفضلت فأوليتنى من الثقة السامية اذ عهدت الي بتأليف الوزارة الجديدة ووجهت الى رتبة الرئاسة الجليلة .

وانى لأتشرف بأن أعرض على عظمتكم اسماء الوزراء الذين تتألف منهم هيئة الوزارة وقد قبلو مشاركتى فى العمل وهم :

اسماعيل صدقي باشا	لوزارة المالية
وابراهيم فتحي باشا	« الحربية والبحرية
وجعفر ولى باشا	« الاوقاف
ومصطفى ماهر باشا	« المعارف العمومية
ومحمد شكرى باشا	« الزراعة
ومصطفى فتحي باشا	« الحقانية
وحسين واصف باشا	« الاشغال العمومية
وواصف سميكه بك	« المواصلات

وقد احتفظت بوزارتى الداخليه والخارجيه

فاذا وقع هذا الاختيار موقع الاستحسان لدى عظمتكم يصدر المرسوم العالى بالتصديق عليه

ياصاحب العظمه :

لم يكن لزملائى ولى ونحن نشاطر الأمة أمانيها في الاستقلال الا أن نقر الوفد الرسمي الذي تولى المفاوضات لعقد اتفاق مع بريطانيا العظمي على مافعل . فلم يكن يسعنا أن نتولى اعباء الحكم مادامت المبادىء التي تسترشد بها الحكومة البريطانيه في سياستها نحو مصر هي تلك التى كانت تظهر من مشروع ١٠ نوفبر من العام الماضى ومن المذكره التفسيريه التي تلته . فان تولى الحكم فيظل مثل هذه المبادىء قد يكون فيه معنى القبول بها .

غير أن الكتاب الذي رفعه فخامة المندوب السامي البريطانى الى عظمتكم وتصريح الحكومة البريطانيه في البرلمان قد أحدثا في الحالة تغييراً كبيراً فأصبح من الممكن أن تتألف هذه الوزاره اذ أنها ترى أن الشعور القومي أصاب ترضية من هاتين الوثيقتين لا من ناحية الاعتراف باستقلال مصر حالا وقبل أي اتفاق محسب بل ولان المفاوضات المقبلة ستكون حرة غير مقيدة بأي تعهد سابق

أما وقد جزنا هذا الدور بخير فلم يبق على مصر الا أن تثبت لبريطانيا العظمى أن ليس بها في سبيل حماية مصالحها من حاجة للتشدد في طلب ضمانات قد يكون فيها مساس باستقلالنا وان خير الضمانات فى هذا الصدد وأجلها أثراً هي حسن نية مصر ومصلحتها في حفظ العهود .

على أن الوزاره ترى أنه لكي تكون جهود البلاد فى سبيل تحقيق كامل أمانيها بحيث تؤتى جميع ثمرها يجب أن يؤلف بين عمل الحكومة وبين عمل هيئة تنوب عن الأمة وأن تسعى الهيئتين متساندتين لأغراض متحدة ولذلك فان الوزارة عملا بأوامر عظمتكم ستأخذ فى الحال فى اعداد مشروع دستور طبقاً لمبادئ القانون العام الحديث وسيقرر هذا الدستور مبدأ المسئولية الوزارية ويكون بذلك للهيئة النيابية حق الاشراف على العمل السياسى المقبل .

وغنى عن البيان ان انفاذ هـذا الدستور يقتضي الغاء الاحكام العرفيه هـذا وان اعادة منصب وزير الخارجية سيعين على العمل لتحقيق التمثيل السياسى والقنصلى لمصر في الخارج

ونظراً لأن النظام الادارى الحالى لاتتفق مع النظام السياسي الجديد ومع الانظمة الديموقراطية التي ستمنحها البلاد فان الوزارة قد اعتزمت أن تتولى الأمر بنفسها وبلا شريك في الحكم الذى ستتحمل كل مسؤوليته أمام الهيئة النيابية المصرية وسيكون رائدها فى ادارة شؤون الأمة توجيهها الى المصلحة القوميةدون غيرهاوالوزارةموقنه بأن أكبر عامل لنجاح مصر في تسوية المسائل التى بقى حلها وأقوي حجة تستعين بها في تأييد وجهة نظرها هو أن تقبل على هـذا الدور الجـديد متحدة الـكلمة مؤتلفة القـلوب وأن تأخذ بدواعي النظام وتلتزم جانب الحكم

والوزارة تحيي العصر الجديد الذى كان لعظمتكم أجـل أثر في طلوعه على الأمة بفضل ما بذلته عظمتكم من المساعي الوطنية العالية وهي واثقة أن ستلقى من لدن عظمتكم كل تأييد في عمل الغد وانها

لترجو أن يجيء مكللا لمجهود البلاد .

وانى لا أزال لعظمتكم العبد الخاضع المطيع والخادم المخلص الامين ؟

(ثروت)

القاهرة فى ٢ رجب سنة ١٣٤٠ (أول مارس سنة ١٩٢٢)

*

خطب ثروت باشا

فى وفود المهنئين

ملخصة فى مقطم ٢١ مارس سنة ١٩٢٢

خلاصة خطب ثروت باشا

فى وفود الاعيان

يوم ٢١ مارس سنة ١٩٢٢

ان مصر خطت الخطوة العظمي في سبيل الاستقلال وذلك بفضل أهلها ـ كل على قدر اشتراكه في الاتحاد والتضامن في سبيل الاستقلال . فهم أى الوفود يهنئون دولته به ويشكرونه عليه ولكن دولته يرد ثناءهم اليهم ويشكر الأمة وأبناءها الذين جدوا وجاهدوا لنيل هذا الاستقلال بتضامنهم واتحاد كلمتهم حتي حصلوا على هذه النعمة العظمي من نعم الله التى يجب عليهم التحدث بها على الدوام . قال فلقد حضر هذا الصباح معتمدوا الدول الاجنبيه الى سراى عابدين العامرة لجلالة الملك فقدمهم دولته الى جلالته واحدا واحدا ثم خطب أقدمهم عهداً فهنأ جلالته باستقلال مصر مجاهرا على رؤوس الاشهاد

ثانياً انه اذا قلنا أن مصر خطت الخطوة العظمي في سبيل الاستقلال فليس المراد من ذلك ان مصر لم تحصل على استقلالها لأنها حصلت عليه من الوجهة الوطنية المصرية وانما المراد أنه لا يزال أمام

مصر مفاوضات يلزمها أن تفاوضها من الوجهة البريطانية لأن انكلترا تطلب من مصر ضمانات . فقد كانت انكلترا قابضة على استقلال مصر وهي تقول لنا انه وديعة بيدى اسلمكم اياه متى أعطيتمونى الضمانات التي أطلبها منكم . وكان دولته ينتقل من هذا الكلام الى الكلام عن الوفد المصري الرسمي ويطرى مآثر صاحب الدولة عدلى باشا فيه وامتناعه عن أن يقيد الامة باعطاء الضمانات المطلوبة حتي عاد دولته ورفاقه من دون أن يتم الاتفاق على الاستقلال المطلوب . وانحاز ثروت باشا وغيره من الوزراء الباقين في هذا القطر الى دولة عدلي باشا وقالوا قوله ورفضوا مارفضه وهكذا فضل أعضاء الوزارة الحالية معتمدين في ذلك كله على اتحاد الامة وحسن تضامنها وصدق غيرتها وعزيمتها حتي قدر الله ان رضيت انكلترا بتسليم وديعة الاستقلال الى مصر . وأن لاتطالب الوزارة المصرية أية كانت بالضمانات التي تريدها بل تطالب الامة المصرية ذاتها . فنالت مصر استقلالها وفازت بحريتها وهي لم تقيد بشيء ولا أخذ عليها عهد ما . والآن تسعي الوزارة في انشاء برلمان مصرى يكون له القول الفصل في مسألة الضمانات الانكليزية . قال دولته فاذا بحث نواب أمتكم في تلك الضمانات ووجدوها مطابقة لاستقلالهم ومصلحة بلادهم قبلوها واذا لم يجدوها كذلك رفضوها وهم أسياد في بلادهم . ثم كان دولته يتخلص من ذلك .

ثالثاً ان الفوز التام في سبيل هذا الاستقلال انما ينال اذا سلكت الامة سبيل العقل والروية وحافظت على السكون وتمام النظام واظهرت للاوربيين جميعاً انها أمة تحسن السير وتستطيع التقدم فى مراتب الكمال بعد تمتعها بنعمة الاستقلال . قال دولته وهذا يتوقف أمره

عليكم ويطلب منكم . والحكومة ترجو انكم تضافرونها عليه وتكونون لها عوناً فيه فهي مستعدة لأن تضع بيدكم مايلزم لحفظ السكون والنظام من وسيلة وعدة من الوسائل المشروعة وعاقدة النية على أن لاتدخر وسعاً فى تأييد النظام وشد أزر المحافظين عليه والضرب على كل يد تعبث به وتعيث فساداً فى البلاد . وهي مصممة أيضاً على أن تفرغ جهدها في عمل كل ماتقتضيه مصلحة البلاد من الاعمال وما يقتضيه السكون والنظام وتقدم البلاد والعباد فى الراحة والرفاهة وترجو أن الامة تتأنى في حكمها على عملها ولا تتسرع بالاصغاء الى الاقوال التي لاتطابق الواقع حتى يتضح لها الغث من الثمين والصدق من المين فتحكم حكمها بعد ذلك . وكانت الوفود تقابل أقوال دولته بالهتاف والدعاء . وخصوصاً عند ذكر دولة عدلى باشا وكانت تهتف طويلا وتصفق كثيراً .

خطبة

صاحب الدولة ثروت باشا

فى مأدبة الكونتننتال

حضرات السادة الاجلاء

انى أغتبط الاغتباط بوقفي بينكم في هذا اليوم السعيد الميمون الذي هو أول عيد لميلاد مولانا المعظم بعد اعلان استقلال البلاد

أرى أيها السادة من واجبي قبل كل شيء أن انحنى بكل احترام واجلال تحية لصاحب عرش مصر على ما أبداه من التفانى فى شد أزر أمته والاخذ بناصرها فى هـذا الدور العظيم من أدوار تاريخها الطويل المجيد

لقد كان من بواعث سعادتى أن رأيت بنفسي عن كثب ما قام به مليكنا النبيل من الجهاد فى القضية المصرية وأثبت بهذا أن الدم لا يكذب وكتب لنفسه فى تاريخ المجد صحيفة خالدة جديرة بابن اسماعيل وحفيد ابراهيم ومحمد علي فليحي سيد مصر المستقلة ولنهتف جميعاً من قلب مفعم بالاخلاص والولاء ليحي جلالة الملك فؤاد الاول

ثم نحيي بعد ذلك هـذه الامة الكريمة التي عرفت قدر نفسها واستمسكت بحقها وأبت أن تتنازل عما يوجبه عليها تاريخها الحافل بالعظائم وبحتمه عليها ماضيها العظيم وأظهرت من الحكم وسداد الرأي

ما اكسبها احترام الامم وجعلها جديرة بما تطمح اليـه من المستقبل الزاهر فانه اذا كان لأحد فضل فيما وصلنا اليه وفى ما سنصل اليـه بعون الله وتأييد مليك البلاد فان الفضل فى الواقع للامة بأجمعها ولما أبداه كل فرد منها كبيراً أو صغيراً فى صدق الوطنية وروح التضحية

أيها السادة : أنتم من صفوة ابناء الامة ومن خيرة أهل الفضل والحجى فيها ولكم اكبر مصلحة فى نجاحها ويسرها فانا انتهز هـذا الظرف السعيد لكى اكاشفكم بما يجول فى نفسى وأخاطبكم اليوم لكي أستمد العون والتعضيد منكم على ما أنا ماض فيه مع زملائي فانما نحن لكم نعمل وبكم نعتز وليس لنا من الحول الا بمقدار ما نرى منكم من الاخذ بناصرنا وما تولونا من ثقة

لنرجع اذن أيها السادة قليلا الى الوراء لنتعرف الحالة على حقيقتها ولنتبين منها أهمية الخطوة التى خطوناها أخيراً

بسطت بريطانيا العظمى حمايتها على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ على أثر دخول تركيا الحرب العامة وانضمامها الى دولتي الوسط وأعلنت في تبليغها للمغفور له السلطان حسين كامل ان جميع الحقوق التي كانت لتركيا قد سقطت عنها وآلت الى الحكومة البريطانية ولكنها أعلنت في الوقت نفسه انها تعتبر هـذه الحقوق وديعة تحت يدها لسكان القطر المصري

كانت نيران الحرب مشتعلة والنفوس ثائرة وقد أوشكت أركان الحضارة أن تنهار وأصبح مصير الشعوب معلقاً في ميزان القدر فلم يكن في وسع مصر الا أن تصبر حتى تنجلي هذه الكارثة ويتبين وجه الحق وأقبلت على بريطانيا تنجدها نجدة الكريم للكريم ولم تدخر جهداً

في سبيل مدها بالمعونة حتى بسم ثغر النصر فلما امضيت الهدنة بادرت مصر تقاضي انجلترا ما وعدت به فى اعلانها من أن حقوق تركيا وديعة تحت يدها لسكان مصر وتطالبها برد الوديعة لاصحابها

ولا أرى داعياً الى الاسهاب فى بيان ما وضع في هذه السنوات من الجهاد الطويل وما حدث فيه من التطور في الافكار فكلكم اشترك فيه وكلكم كان من المجاهدين ولكنى اذكركم اني كنت في ذلك العهد عضواً في الوزارة متشرفاً فيها برياسة ذلك الوطنى الجليل حضرة صاحب الدولة حسين رشدي باشا وزميله الصديق الوفي الامين دولة عدلى باشا فأبت الوزارة أن تسكت على حق مصر أو تقبل في هذا الحق هوادة أو تسوية فلما حالت الحكومة البريطانية بيننا وبين ابداء ما نريد كانت الاستقالة المعروفة ولا ينكر أحد ما كان لهذه الاستقالة من الاثر في تاريخ الحركة المصرية كان المذهب الذى تذهب اليه الحكومة البريطانية في بادىء الأمر ان مصر قد دخلت في دائرة الحمايه فلن تخرج منها وقد أوفدت اللورد ملنر الى مصر لكي ينظر في خير الانظمة لهذه البلاد في دائرة الحمايه فلما تبين لها انه ما من مصري يرضى بتلك الحمايه التى فرضت على مصر فرضاً لضرورات خاصة تحولت عن موقفها الاولى وانتهى بها الامر الى الاعتراف بأن الحمايه لم تعد علاقة مرضيه وطلبت الى مصر المفاوضة في ابدال هذه العلاقة بغيرها

يتبين لكم من هذا ان السياسة البريطانية تجاه مصر كانت قائمة على أن الغاء الحمايه لا يمكن أن يتم الا فى مقابل علاقة جديدة تحل محلها وعلى أن لبريطانيا العظمي في هذا القطر مصالح جوهرية لا بد لها من تأمينها وضمانها فلن تعترف باستقلالنا الا متي اعطيناها هذه الضمانات

وانا أيها السادة نعتقد ان خير ضمانه لمصالح انجلترا ومصالح جميع الدول الاجانب على السواء هو حرص مصر نفسها على حسن سمعتها كدوله متمدنه راقيـه ومصلحتها في حفظ عهودها فلقد أخذنا بأسباب الرقي من عهد بعيد وأدخلنا الى بلادنا الانظمه الحديثه ونشرنا فيها رايه العرفان وأوفدنا البعثات العلميه الى البلاد الغربيه وبالاجمال نهضنا من عهد محمد علي نهضة عظمي حتى صح أن يقال ان مصر قطعه من اوربا ومع هذا فان الامه المصريه لاجل اثبات حسن قصدها وشديد رغبتها فى الاتفاق مع بريطانيا العظمى وتبديد مخاوفها سلمت مبدئياً بفكرة الضمانات وانما بشرط اساسى لا محيص عنـه وهو ان لاتتعارض هذه الضمانات مع الاستقلال وعلى أمل ان لا تلبث الحال قليلا حتى ترى انجلترا ذاتها ان لا حاجه بها الى هذه الضمانات

تشكلت الوزارة العدليه لتتولى المفاوضه فى القضيه المصريه بعد أن أعلنت الحكومه الانجليزيه رأيها ولا يمكنني أن أترك ذكر هذا الحادث من دون أن أقوم بواجب أشعر به نحو ذلك الذى كان مثلا في الوطنيه ونكران الذات واعني به دوله رشدى باشا لقد تولى دولته رياسه الوزارة قبل ذلك مرات عدة وبلغ اسمي مقام يمكن أن يطمح اليه انسان ومع ذلك فانه قبل أن يدخل عضواً في الوزارة الجديدة لان البلاد كانت في تلك الساعة في حاجة الى مواهبه وعلمه فما تردد في اجابة نداء الواجب ولم يقعده عن ذلك اعتبار من الاعتبارات

سافر الوفد الرسمي الى انجلترا وعلى رأسه ذلك الرجل الكبير القلب الكبير النفس عدلي يكن باشا للمفاوضة في عقد اتفاق وقد اخذ على نفسه ان يعمل على تحقيق الاستقلال وعاهد امته بل عاهد قبل ذلك ضميره

وربه على أن لا يقبل اتفاقاً يخل بهذا الاستقلال بأي وجه من الوجوه

طالت المفاوضات شهوراً بين الرجا واليأس الى ان تكشفت عن المشروع الذي قدمته بريطانيا العظمى الى الوفد في ١٠ نوفمبر من العام الماضي وهو المشروع الذي عرف بين الناس باسم مشروع كرزون

نظر عدلي باشا الى المشروع فرأى أن بريطانيا العظمي غالت فيما طلبته من الضمانات وإن هذه الضمانات لا تتفق وما عاهد به امته من استقلال لا تحوطه ريبة فما تردد لحظة في رفض برد اقترنت فيه الحكمة بالشمم والبراعة السياسية بعزة النفس كان في وسعه أن يعرض المشروع على امته وان يلقي على عاتقها مسئولية قبوله أو رفضه ولكن عدلي عرض المشروع على ضميره أولا فكان نصيبه الرفض

أيها السادة : سينشر يوما من الايام ما طوي من الصحائف وما خفي من أسرار المفاوضات حينئذ يعلم بنو مصر جميعاً أنه ما من رجل دافع عن بلده كما دافع عدلي باشا عن مصر أثناء المفاوضات الرسمية وان الموقف الشريف الذي وقفه ذلك الوزير الكبير والوطني الصميم كان في ذاته أعظم تأكيد لشخصية مصر التي صممت على نيل استقلالها والتي تأبى أن توقع على صك يضعف هذه الشخصية . انما الوطنية الصحيحة . الوطنية الصادقه تعمل ولا تتكلم وكل همهما موجه الى جلب النفع للوطن . فلزم عدلي باشا الصمت . كان خصومه يرمونه بأشنع ما يرمي به انسان من نقص في الوطنية وضعف في العقيدة القومية فكان جوابه الوحيد على هذه التهم العمل على اثبات حق مصر وأما ماعدا ذلك فلم يكن له عنده من شأن فكان وطنياً عظيما في صمته كما كان وطنياً عظيما في حسن دفاعه ولقد أعلنا تضامننا مع الوفد في رفضه للمشروع وفي رده عليه.

نعم أيها السادة كنا ومازلنا ولن نزال نقر الوفد على مافعل في هذا الرفض لاننا نأبى كل الآباء أن نقر أى اتفاق أو تعاقـد ينقض استقلال بلادنا

ولـكن بريطانيا العظمى أمسكت بالمشروع في يدها ولوحت بالاستقلال التام أمام عيوننا وقالت ها أنا ذا على استعداد للاعتراف لـكم بالاستقلال ولالغاء الحماية المفروضة عليكم ولـكن بشرط أن أتقاضى منكم ثمنه . قلنا وما هو الثمن ؟ قالت أن تعطوني ماأطلبه من الضمانات المبينه في المشروع فان فعلتم كان لـكم ماتريدون وان أبيتم فالحماية باقية في أعناقكم

قال الوفد الرسمي كلا وقلنا نحن كلا وقالت البلاد كلها بصوت واحد كلا لاننا نريد استقلالا صحيحاً ولأن ماتمترف به انجلترا في المشروع تهدمه هاتيك الضمانات

أما اليوم فقد تغيرت الحال فأن بريطانيا العظمي قد ألغت الحماية على مصر . ألغتها ولم تتقاض ذلك الثمن الذى جعلت تقاضيه منا شرطاً لالغائها ونادى جلالة ملـكنا المعظم بان بلادنا دولة مستقلة تامة السيادة وأبلغنا هذا النطق الملـكي من وزارة خارجيتنا الى وكلاء الدول الاجنبية في مصر كما أبلغهم اياه جناب المارشال اللنبى فجاءنا رد هؤلاء الوكلاء بوصول البلاغ الى دولهم وبادرت الوزارات الاجنبية بتقديم تهانئها الى حكومتنا على هذا العهد الجديد وأرسل الملوك ورؤساء الجمهوريات الى جلالة الملك فؤاد الأول تهانيهم بالاستقلال

أيها السادة لقد كنا لغاية سنة ١٩١٤ مستقلين استقلالا داخلياً تحت سيادة الدولة العثمانية فلما نشبت الحرب العامة وسقطت سيادة

تركيا عنا أصبحنا مستقلين حكما ولكن تمسك بريطانيا العظمي بانتقال حقوق تركيا اليها بحكم اعلان الحماية حال بيننا وبين استقلالنا

أما اليوم فقد سقطت الحماية أيضاً دولياً بصورة نهائية فاصبحت مصر دولة مستقلة في نظر الدول جمعاء

ومهما كان رأى الناس فى أمر الحماية واختلاف نظرهم اليها من جهة صحتها أو بطلانها فما لا نزاع فيه أن بعض الدول وافقت عليها وانه من الوجهة الدولية أصبحت هـذه الحماية صحيحة على الاقل في نظر هذه الدول أما اليوم فقد انتهي الأمر وسواء كانت هذه الحماية صحيحة أو باطلة فقد عفت آثارها

يقولون ولـكن بريطانيا قد احتفظت بأمور معينة كانت مبينة في المشروع الذى رفضته البلاد . وجوابى . أن هذه الامور احتفظت بها بريطانيا من تلقاء نفسها وبمحض ارادتها ومن غير أن نوقع لها صكا باقرارها . ولـكن مشروع المعاهدة كان يجعل قبول هـذه الضمانات شرطاً أساسياً لالغاء الحماية وهناك على ما أظن فرق كبير بين أن تكون الضمانات صادرة عن ارادة انجلترا وبين أن تكون انجلترا حاصلة عليها بصفة شرعية برضي مصر

وفضلا عن هـذا فان انجلترا قد احتفظت بهذه الضمانات بصفة عامة دون تعرض للتفاصيل وقد سبق أن بينا أن مبدأ الضمانات في ذاته سلمت به غالبية الامة وانما كان الاختلاف يقع عنـد التفصيل — والتصريح الأخيرا كتفي بالاجمال واجتنب التفصيل . ثم أن الحـكومة البريطانية فى تبليغها الى جلالة الملك لم يسعها الا الاعتراف بان الامور المحتفظ بها تـكون محلا لمفاوضة مقبلة حرة غير مقيدة فبقي حق مصر

كاملا حتى لو رجعنا الى هذا التبليغ

وفوق هذا كله فأنا ابينا أن نرتبط أي ارتباط بأى أمر من هذه الامور وقلنا أن الكلمة الاخيرة في ذلك تكون للبلاد ممثلة في برلمانها

وبالاجمال فأن مصرخرجت من هذه المعركة السياسية فائزة بالمزايا التي كانت تسعي الى تحقيقها دون أن ترتبط بأى ارتباط أو تلتزم بعهد يقيد حريتها فى العمل فيما بقى وان استقلالها أصبح معترفاً به من الدول-

نترك هذا الموضوع وننتقل الى نظام الحكم في بلادنا

لقد جعلنا أساس برنامجنا فيما يتعلق بالحكم أن تكون لبلادنا هيئة نيابية وأن تكون الوزارة مسئولة أمامها عن كل أعمالها فما تستطيع البقاء في منصب الحكم الا اذا أولاها البرلمان ثقته فحققنا بذلك دفعة واحدة مالج صوت البلاد في المطالبة به سنوات عديدة فلم تظفر بطائل ومالم يحصل عليه كثير من البلاد الا بعد أن بذلت في سبيله جهداً كبيراً

ويترتب علي هذا النظام بطبيعة الحال أن يكون للوزارة تمام الحرية فى تولى ادارة البلاد وسياستها دون أن يشاركها فى ذلك أحد لان تحمل المسئولية يفترض في ذاته حتما هـذه الحرية اذ مما لا يمكن تصوره أن يكون للبرلمان الكلمة العليا في شئون البلاد والاشراف عليها وتكون الوزارة مسئولة أمامه عن هذه الشئون فلاتبقى في مساندها الا بسيرها على ارادته وتوخيها انفاذ مقاصـده ثم تكون في الوقت ذاته خاضعه لأية سلطة أخرى فيما يتعلق بالشئون عينها

على اننا أيها السادة لم ننتظر انفاذ النظام البرلماني حتي نأخذ المسئولية على عاتقنا بل نحن قد اخذناها على عاتقنا من أول لحظة وأصبحت ادارة شئون البلاد في يدنا بتمام الحرية فلم يبق للمستشارين هذا الأثر الذي كلكم كنتم تعرفونه وتحسون به وأصبحت كلمتهم لا تخرج عن حد المشورة ولا اريد أن أسبق الحوادث فاخبركم بما سيكون في القريب العاجل

والخلاصة في هذا الباب أن مصر الآن من الوجهة الداخلية اصبحت أمورها بيد ابنائها وأنها ستصبح في القريب العاجل ذات نظام دستوري على أحدث النظم العصرية

ولم يبق علينا الا أن نقنع انجلترا أن ليس بها من حاجة الى التمسك بالضمانات التي تريد الاحتفاظ بها فتخطو بريطانيا العظمي خطوة أخرى بالاكتفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعي

أيها السادة : ليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب اليه اكبر من تعلقنا باهداب السكينة والتزامنا الهدوء وأخذنا باسباب النظام فان حجتهم الكبري في ما يبدونه من رغبة في الضمانات هي شدة حذرهم على مصالحهم وخوفهم عليها وعدم اطمئنانهم في تركها لعهدتنا فاذا قضينا على عوامل الفتنة والاضطراب وجعلنا التزام السكينة رائدنا فأننا نثلم هذا السلاح بايديهم وندفع حججهم علينا ولا مشاحة في أن كل من يعمل علي تعكير السلام أو اثارة الاضطراب مجرم في حق وطنه عامل على هدم كيانه

علي أن خصومنا السياسين لا يرون اننا فعلنا شيئاً أو أن الوثائق الجديدة تحوي أمراً جديداً وأن الغاء الحماية واعلان الاستقلال وتبليغه للدول واعتراف هذه الدول به وادخال النظام النيابي الكامل وتقرير

مبدأ مسئولية الوزارة أمام البرلمان كل هذا لايعد شيئاً مذكوراً في في نظر بعض الناس متي جاء على يد خصومهم

لاغرابة في ذلك فان للاعتبارات الشخصية عند البعض مقاما فوق كل مقام . تقولوا علينا الاقاويل وأذاعوا عنا ما أذاعوا في طول البلاد وعرضها وزعموا أن الوزارة ستتعرض لحرية الانتخابات وان البرلمان سيكون ألعوبة في يدها . من أين أتاهم علم الغيب ومن أين جاءهم أنها ستعدل ذلك وأية مصلحة لها في أن لا تتعرف من الامة الا رأياً فاسداً لايتفق ورأيها الصحيح

لقد نسوا انهم بهذا يرمون أمتهم بأقبح التهم وينسبون اليها أنها تنقاد كالانعام وتستسلم استسلاما أعمى للحكام حتي فيما يعود على الوطن بالتلف والمذلة

لقد نسوا أو تناسوا أيها السادة أننا أشخاص زائلون واننا لن نبقى متربعين في دست الاحكام الا برهة من الزمن ثم نخلي السبيل لغيرنا أما النظام الدستوري فهو نظام ثابت دائم وهو أتم ماوصل اليه الناس الى اليوم لتمثيل الامة أحسن تمثيل وللاشراف على الحكم باسمها . سنذهب نحن أما النظام فسيبقى وعجيب ان رجالا يتولون الحكم زمناً قصيراً يعملون على تحقيق مثل هذا النظام الصالح لكي يجعلوه أداة في يدهم وسلاحا يشهرونه في وجه خصومهم

أيها السادة لن تكون الانتخابات سراً مكتوما فستشتركون جميعكم فيها بل يشترك فيها كل مصري له حق الانتخاب وستذيع أخبارها وتتناقلها الافواه وسترون بأنفسكم أن الحكومة بريئة مما يتهمونها به وان هذه التهم وليدة الظن الاثيم

اني أعتقـد أن تحقيق النظام البرلماني صحيفة فخار — ولو أن الفخر كله في الامة واليها — فلن يبلغ بنا سوء الرأى الى تسويد هذه الصحيفة بمثـل ماينسبون الينا من التداخل المعيب فلا تصغوا أيها السادة الى مايقولون ويعيدون واحكموا بما سـترون لا بما تسمعون وانى أجاهر لكم وهـل وأنتم فى حاجة الى مثل هـذه المجاهرة بأن الانتخابات ستكون حرة بعيدة عن عوامل التأثير وافساد الضمائر

كذلك أخذ خصومنا علينا عدم الغاء الاحكام العرفية حالا .

نعم ان الغاء الاحكام العرفية لم يصبح أمراً مرهوناً بارادة السلطة العسكرية وهو اليوم بيد الحكومة المصرية من حيث المبدأ ولكن الشروط التي لايشك أحد في وجوبها لالغاء تلك الاحكام لاتتحقق بين غمضة عين وانتباهتها ، يعلمون ذلك ولكنهم يغالطون ويشوهون الواقع في أمر قانون التضمينات للتـذرع بذلك فى اتهام الوزارة في اخلاصها وصدق نواياها

تعلمون حضراتكم انه في سنوات الحرب وبعدها صدرت تشريعات مهمة استمدت فيها سلطة القائد العام لجعلها سارية على الاجانب حينما كان الالتجاء الى الطرق العادية في اصدار القوانين غير ميسوراً ومقروناً بالصعوبات أو محتمل البطء في أمور تقضى بالاستعجال كضريبة الخفر وقانون أجور المبانى وايقاف سريان المدد والمواعيد القانونية وكالنظامات المتعلقة بأشخاص الاعداء وأموالهم وتنفيذ معاهدات الصلح

كذلك منعت المحاكم الاهلية والمختلطة لاسباب مختلفة من نظر مسائل داخلة في اختصاصها أو يجوز اعتبارها كذلك لتتولاها محاكم عسكرية أو لجان أو غير ذلك من الهيئات وصدرت في هذه المسائل

أحكام وقرارات وبنى على أساسها حقوق وتعهدات ثم صدرت أيضاً أوامر ادارية وتدابير تتعلق بالأمن أو النظام العام

وتعلمون حضراتكم أن كل ذلك حصل وان السلطة العسكرية اشتركت في أعمال التشريع والقضاء والادارة العادية للبلاد بسبب الامتيازات الاجنبية وبسبب الحرب هذا فضلا عن المركز الخاص الذى تهيأ لها بسبب معاهدات الصلح فأصبحت أشبه بنظام عادى بالرغم من أن الاحكام العرفية بطبيعتها أداة استثنائية

تعلمون ذلك حضراتكم ولا تجهلون أن كل مابني على هذا النظام يجب أن ينهار اذا زال أساسه وانه اذا ألغيت الاحكام العرفية سقطت كل التشريعات التى اتخذت بمقتضاها وأصبح من الممكن أن تنقض كل الحقوق المدنيـة التى بنيت على أحكام السلطة وأوامرها بل أن يفتح على السلطة أبواب مسؤولية واسعة

ليس منا من لايرغب في الغاء الاحكام العرفية وبلا تأخير ولكن كل انسان يشعر بأننا لايمكننا الغاءها دون اقرار التصرفات الماضية ولا عبرة بما يراه غير المسئولين الذين يرون أنه يكفى أن نطلب فنجاب

عرف الناس ذلك وسمعوا أنه يجب اصدار قانون لاقرار التصرفات الماضية فقال بعضهم انما أريد به تقرير الحماية وتنظيم أحكامها وهم يعلمون أن ذلك القانون لايخرج أمره عن أن يكون تصفية للماضي ولا علاقة له مطلقا بالنظام المستقبل فلفظة التضمينات هي التى أفسحت المجال للمضللين أن يذهبـوا الى التأويل ما شاءوا وحقيقة الامر ان ذلك القانون يسمى بالانجليزيه Bill of Indemnity ومعناه الصحيح القانون الذي يقيل من المسئولية ويرفعها

على ان بعض من يشكون من وجود الاحكام العرفية ويطالبون بالغائها يعملون في الوقت نفسه على عرقلة مساعي الحكومة في ذلك وقد وعدت هـذه الوزارة بأنها اعتماداً على حسن موقف الامة ستسعي في الحصول على الرجوع فيما اتخذ من التدابير المقيدة للحرية طبقاً للاحكام العرفية ولكن للذين لا يرعون حرمة يحرضون على الفتنة ويشجعون الرعاع على الاخلال بالنظام وأعمال التهييج والارهاب (أترون في ذلك شيئاً من الخير للبلاد) ولكن هذه الحكومة لن تري مانعاً من القيام بواجبها وستمضى أعمالهـا بما تمليه عليها ذمتها وضميرها ولا تلتفت بالا لهذه الحركات التي لم يقصد بها وجه الله ومصلحة الوطن حتي اذا فرغت من عملها وتقدمت به الى الامة أدرك كل بالغ أن صفحتها بيضاء وان اخلاصها عظيم

هذا ما أردت أن أقوله لكم في هذا المقام ولكني قبـل الختام وبمناسبة ما ذكره حضرة صديقنا شيخ المحامين وكبيرهم ابراهيم بك الهلباوى (وكأنى به قد خشي أن تنثنى عزائمنا لما نلقاه من المعارضة) لا أرى بداً من أن أطمئنه وأن أوجه أنظاركم أيها السادة الى اني لا أكره المعارضة بل اذا انعدمت هذه المعارضة فانى أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة في الوصول الى الحقيقة وتمحيص كل أمر على أكمل وجه ولكني أريد المعارضة الشريفة التي تترفع عن الاعتبارات الشخصية ولا تنزل الى اختلاق الاكاذيب والعمل على النيـل من الخصم بكل وسيلة والنظر الى كل عمل من أعماله بمنظار البغضاء والمداوة انى أريد الخصومة الشريفة التي لا تنظر الا لمصلحة الوطن وخير البلد وتدرس كل أمر لذاته مجرداً عن كل اعتبار شخصي هذه الخصومة الشريفة

أتمنى وجودها وأمد يدي لمصالحتها أما تلك الخصومة الحمقاء التي تأخذ على الناس سبيل آرائهم وتزرى بأقدارهم وترجمهم في الطرقات وتعمل على اضطهادهم ماديا وأدبيا عقابا لهم على رأى أو قول تلك الخصومة الحمقاء المجرمة التي تزعم أنها تعمل هذا باسم الحرية ودفاعا عن الحرية فتحقق بذلك القول المشهور (أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك) تلك المعارضة المجرمة يجب علينا جميعاً مكافحتها الى النهاية لانها نكبة على بلد ناهض وسأجد من عونكم مايعينني على الوقوف في وجهها

أيها السادة متى فتح البرلمان المصرى أبوابه فسنقوم منا أحزاب وشيع تبعاً لاختلاف الآراء وتعدد وجهات النظر وسيعمل كل حزب علي خدمة الوطن بالسبيل التى يراها أقوم السبل أما اليوم فاننا جميعاً سواء أمام المطلب الاسمي للامه واذا كنا في وقت من أوقات تاريخنا في حاجة الى الاتحاد فانما هو هذا الوقت الذي نرجو فيه أن نسعي في ازالة مايحول بيننا وبين التمتع الكامل باستقلالنا

فأنا أنادي الامة باسم الوطن ومصلحته بضم صفوفنا وتناسى الماضي وليكن كلنا حزباً واحداً في خدمة بلادنا

والله المسئول أن يقرب اليوم الذي تتحقق فيه جميع آمالنا في ظل حضرة صاحب الجلالة ملك مصر أطال الله ملكه وأدام عزه »

حديث ثروت باشا

عن السودان

مع مكاتب الاهرام

فى ٢٢ مايو سنة ١٩٢٢

تفضل صاحب الدولة رئيس الوزارة بالجواب على الاسئلة التى القيناها بخصوص السودان وهذا نص الحديث :

(س) لغط الناس كثيراً فى مسألة السودان في العهد الأخير وتساءلوا لم لم تبد الحكومة بياناً عن خطتها ورأيها في مركزالسودان بالنسبة لمصر ؟

(ج) تذكرون ان مسألة السودان من المسائل المحتفظ بها للمفاوضات المقبلة كما ورد ذلك فى كتاب المندوب السامى البريطانى الى جلالة الملك فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ولكن ليس معنى الاحتفاظ بمسألة لزمن مقبل ألا يكون للحكومة المصرية رأى فيها ومذهب تدافع عنه وتسعي لتحقيقه وغير صحيح ان الحكومة لم تبد رأيها فى مركز السودان بالنسبة لمصر فان برنامج الوزارة كان بهذه العبارة « لم يكن لزملائى ولى » ونحن نشاطر الامة أمانيها في الاستقلال الا أن نقر الوفد الرسمي على مافعل » ولم يغب عن ذهن أحد أن الوفد أشار في الرد الذي أرسله الى اللورد كرزون الى مذهبه في علاقة مصر

بالسودان وقال في ذلك « أما مسألة السودان التي لم يكن قد تناولها البحث فلا بد لما فيها من توجيه النظر الى أن النصوص الخاصة بها لايمكن التسليم بها من جانبنا . فان هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع بما لها على تلك البلاد من حق السيادة الذي لانزاع فيه وحق السيطرة على مياه النيل

وليس معنى اقرار الوفد الرسمي على مافعل الا أن الوزارة أخذت بمذهبه في المسائل المختلفة التى تعرض لها في الرد ومنها مسألة السودان فرأى الحكومة في السودان رأى غير مكتوم . واذا لم يكن الذين ينتقدون على الحكومة عدم ابداء رأيها في السودان قد تنبهوا الى هذا الرأي فليس ذلك من ذنب الحكومة .

(س) ولكن ماهو رأى الحكومة ازاء مايروونه من احتمال تغيير حالة السودان قبل الوصول الى المفاوضات . وهل هي تنوى السكوت على هذه الحالة الجديدة ؟

(ج) احتفظت الحكومة الانجليزية بمسألة السودان كما احتفظت بغيرها من المسائل وأشارت الى أن معنى ذلك الاحتفاظ هو أن هذه المسائل تبقى على ما كانت عليه حتى يجيء دور المفاوضات فلا محل لتوقع أى تغيير في حالة السودان قبل ذلك الدور

وما دامت المفاوضة ستجرى حرة خالية من كل قيد فكل ركن من أركان المسألة سيتناوله البحث والتمحيص .

ولقد جرى لى مع فخامة المندوب السامي البريطانى حديث في هـذا الشأن وكنا على اتفاق انه مهما كانت نظرية كل فريق فانه لن يحدث من أحد الجانبين أي تغيير في حالة السودان أو بت في شأنه .

بل يجب بقاء القديم على قدمه حتى يجيء دور المفاوضات بين الحكومتين المصرية والانكليزية . وقد صرحت الحكومة الانكليزية بذلك أخيراً في مجلس النواب البريطاني بلسان أحد وزرائها . وعلى ذلك فلا محل لاثارة البحث في هذا الموضوع الآن

وعندي ان مسألة السودان مسألة متشعبة الوجوه ومن مصلحة القضية المصرية أن يكون البحث فيها شاملا لجميع أطرافها في وقت واحد . وهذا لا يتيسر الا وقت المفاوضة حيث تلتقى الوجهتان المصرية والانكليزية بصفة تامة واضحة . وأرجو أن لا يتعذر اذ ذاك الوصول الى حل مرض . ثم أن لهذه المسألة كما لغيرها من المسائل المحتفظ بها من الاهمية الكبرى والدقة ما يقضى بأشراف الهيئة النيابية على المفاوضة بشأنها .

خطبة ثروت باشا
في لجنة الدستور

حضرة صاحب الدولة

وحضرات الاعضاء المحترمين

انى باسم حكومة جلالة الملك المعظم فؤاد الاول أحييكم في هذا الاجتماع الذي هو أول اجتماع للجنتكم الموقرة كما أحيي فيكم الغيرة الوطنية والرغبة الصادقة في خدمة بلادكم العزيزة اذ قبلتم ان تشاركوا الحكومة في مهمة وضع مشروع الدستور للمملكة المصرية بعد اعلان استقلالها

ان الحكومة ايها السادة تقدر كل التقدير خطورة المهمة التى وكلت اليها من جانب مليك البلاد وتعلم حق العلم عظيم مسئوليتها عن حسن القيام بها امام ضميرها وأمام الامة والتاريخ كذلك تعلم ان مهمة وضع دستور للبلاد لا يكفي في ادائها على الوجه الصالح أن ينقل ما وضع لغيرها من البلاد بغير تمحيص وتدقيق بل يجب أن تلاحظ في تقرير احكام هذا الدستور تقاليد البلاد المحلية وعاداتها ومختلف الاعتبارات الاجتماعية فيها وان يستفاد في وضع نصوصه من تجاريب الامم الاخرى كذلك أيها السادة لم تتردد الحكومة منذ طلبت اليها القيام بهذه المهمة في أن لا تستأثر في ادائها برأيها وأن لا تكتفى في ذلك بما لرجالها من الخبرة الخاصة بحالة البلد وبالانظمة العامة . بل صحت

عزمتها على الاستعانة في ذلك بخبرة ذوى الكفاءآت من ابناء البلاد

وقد كان من حسن حظها أن لبيتم دعوتها ورضيتم أن تشاركوها في مسئوليتها وأن تضحوا من وقتكم وراحتكم شيئاً كثيراً في سبيل تحقيق التعاون بين الامة والحكومة ووضع الحجر الاساسى لحياة مصر المستقلة لذلك لا يسعني الا أن أهنئكم بهذا الشعور وأن أسديكم خالص الشكر على العون الجليل الذى لاشك في أن الحكومة ستناله من اشتراككم معها وان شكرى لكم ليزداد اذا ذكرت الضجة التى أقيمت حول مسألة وضع الدستور وانها لم تصرفكم عن سماع نداء الضمير والواجب

ان الحكومة لم تقتصر في الدعوة الى معاونتها على فريق دون آخر بل وجهتها أيضاً الى من قضت عليهم الظروف بان يعتبروا أنفسهم خصوماً سياسيين لها غير أنهم للاسف لم يريدوا أن يصافحوا اليد التي مدت اليهم وأبوا أن يتقدموا الى المشاركة في هذا العمل الوطنى الخطير ولعمرى أن في تصرفهم مايقضي بالعجب فأن مصير الدستور أن يطبق علي الأمة جميعها لا علي طائفة دون غيرها وكنت استبعد أن تدخل الشخصيات فى شأن يجب بطبيعته أن يعلو على كل تلك المنافسات . .

ولقد أعجب اكثر من ذلك أن أراهم يخطئون النظر حتي من وجهة مصلحتهم الخصوصية . فلقد كان اشتراكهم فى عمل اللجنة يسمح لهم بالاطلاع على كل مايجرى فيها ويمكنهم من الوقوف على حقيقة ماجرت به السنة السوء وليتبينوا أن ليس هناك أمور مقررة من قبل تعرض على اللجنة لمجرد الشكل ولقد فاتهم برفضهم الدخول في اللجنة فرصة ماكان احقهم بالحرص عليها فرصة عرض آرائهم والادلاء بحججهم واللجنة

بين أن تأخذ بها فيتضح لهم أنها لم تكن متحيزة أو صادرة عن غرض أو هوى او أن ترفضها فيكونوا قد أراحوا ضمائرهم والحساب بعد ذلك بيد الامة لاأدرى مقدار ارتباط هذا الرفض بالحركة التي روجت منذ أيام للدعوة الى عقد جمعية وطنية وما اذا كانت سبباً أو نتيجة على أن ذلك لايعنيني الآن وانما يعنيني تمحيص هذه الآراء خصوصاً وان تلك الدعوة كان ينطوى فيها شيء ليس بالقليل من سوء الظن بالحكومة وتهمتها في اخلاصها انى أترك جانباً ذلك الفريق الذي يدأب على تحدى الحكومة ومناوأتها واقامة العراقيل في وجهها مهما جر ذلك على البلاد من الشر والوبال

أما الفريق الثانى فأنه يحكم على الاشياء حكما نظرياً صرفاً ويخطىء تطبيق النظريات على الواقع اولئك هم الذين يزعمون أنه لم يوضع دستور الا على يد جمعية وطنية وانه لايصح دستور الا اذا كان كذلك

علمنا أن القوانين الدستورية وتواريخها ومبادئها معروفة ومنتشرة بين جميع الناس وفى وسع كل انسان أن يرجع اليها ليعرف مقدار نصيب تلك النظريات من الصحة ويمكنني أن أقول لحضراتكم أن الأمر في وضع القوانين الدستورية ليس على مايذكرون فأن كثيراً من البلاد الاوروبية وغير الاوربية لم تكن قوانينها الدستورية وليدة جمعية وطنية وأذكر على سبيل الاستدلال تلك الامة العظيمة التى قطعت شوطاً كبيراً في سبيل الحضارة والمدنية وأعني بها الامة اليابانية وهي تلك البلاد التى أصبحت في مركز لا أريد أن أغالى فأقول أن أمم أوربا تحسدها عليه ولكن مركزها على كل حال مما تغبط عليه أما أمم أوربا فأن بعضها كان الدستور فيها من عمل جمعية وطنية ولكنها الاقل عدداً

والسبب في تولى الجمعية الوطنية هذا العمل يرجع الى ظروف استثنائية خاصة كالثورة أو زوال السلطة الشرعية فيها وحلول سلطة مؤقتة عليها أما الأمم الاخرى فقد سادت في وضع دساتيرها على الطريق العادى وصدرت دساتيرها من ملوكها وأذكر على سبيل المثال ايطاليا والنمسا والبرتغال وتركيا.

فيجب أن لا يغيب عن أذهان أولئك القائلين بنظرية الجمعية الوطنية تلك الفروق بيننا و بين من اضطرتهم أحوالهم الاستثنائية الى الالتجاء لجمعية وطنية لوضع نظام حكوماتهم اذ اننا ولله الحمد لسنا فى حالة من تلك الاحوال

على انه فيما يتعلق بمصر يجب لأجل تعيين السلطة التي تتولى وضع الدستور الرجوع الى قانوننا العام وقد جرى الأمر فيه على أن تصدر القوانين النظامية من ولى الأمر سواء كان ذلك في انشاء مجلس الوزراء وهو أول حجر وضع في بنيان النظام الديموقراطي في مصر أو ما في تلا ذلك من النظم النيابية التي أوجدت نوعاً من الاشتراك بين الامة والحكومة وهي قانون مجلس شورى النواب وقانون مجلس شوري القوانين والجمعية العمومية والقانون الذي انشأ الجمعية التشريعية واذا كان قانون سنة ١٨٨٢ قد شذ عن هذا القياس فان ذلك يرجع الى أنه فى ذلك العهد كانت ثورة على العرش دعت الى اغتصاب وضع الدستور من صاحب السلطة فى وضعه وهذا مايؤيد ما نذهب اليه من أن وضع الدستور بطريق ولى الأمر ليس فيه افتيات على حقوق الامة أو خروج عن القواعد المألوفة

قد يقول قائل اذا لم يكن الدستور من وضع جمعية وطنية فان فى وسع

ولى الامر أن يسترده فى أي يوم من الايام وهو قول لايقول به الا كل رجل يجهل مبادىء القانون الحديث وتطوراته لأنه مهما يكن من طريقة وضع الدستور واصداره فان استرداده بعد ذلك محال اذا أنه بمجرد صدوره يصبح حقاً مكتسباً للأمة

انهم يقولون ان الجمعية الوطنية هي الوسيلة الوحيدة للوقوف على رغبات الامة وحاجاتها . وأخشى أن أقول في هذا أنه حق يراد به باطل ذلك لانه حتي مع التسليم جدلا بأن المبادىء العامة في مصر تسمح بأن مثل هذا العمل تتولاه جمعية وطنيه فأن هناك أشخاص يعملون منذ زمن على ترويج سوء الظن بالحكومة وعلى التقليل من أهمية ماوصلت اليه البلاد وعلى التشكيك فى مانحن قادمون عليه بحيث اذا اجتمعت جمعية وطنية سادت فيها تلك الآراء والنزعات وانقلب العمل فيها الى معارضة وتهويش وتعطيل تمتنع معه كل نتيجة صالحة بل يخشى أن ينقلب وبالا على البلاد ذلك انه بالرغم من أن البلاد نالت فوزاً عظيما باعلان استقلالها واعتراف الدول به الا أن المسألة المصرية لم تسو بعد تسوية تامة نهائية اذ لايزال أمامنا مفاوضات يجب أن تمكن مصر من الوصول الى دورها موفورة القوة تامة النظام لم تفسد عليها عوامل الشر والفوضى آمال النجاح فيها

يدعون اننا بعملنا هذا نرمى الامة بالعجز والقصور عن تقدير مصلحتها فالله يعلم اننا نجل أمتنا كل الاجلال ونضعها فوق كل اعتبار وإن هذا نفسه هو الذي يدعونا أن نقيها فى هذه الآونة الدقيقة من عوامل الفساد ودواعى التضليل . ولعمرى لأن نتهم تهمة سيتجلى وجه الحق فيها بعد قليل خير لنا من أن نترك البلاد تسود فيها الفوضى

ويجرى الشغب فيها مجراه فأن التهمة اذا اصطدمت بالواقع المحسوس زائلة ولكن اضرار الشغب والفوضى هائلة وآثارها باقية

وأريد هنا أن أتساءل عن قيمة المخاوف والشكوك التي يريد بعضهم أن ينشرها بين الناس ويحيط بها عمل الحكومة واللجنة

يزعمون اننا نخشى الجمعية الوطنية لأنها لو دعيت للاجتماع لاتخذت من القرارات مالا يتفق مع ميول الحكومة نريد بالاقتصار على تأليف لجنة أن تتحكم فى النظام الدستوري وأن تحول بين الامة وبين ابداء رغباتها وأقول ان بيننا وبين الامة عهداً يحدد جوهر مايختلف فيه الآن لنا برنامج قطعنا فيه على أنفسنا اننا سنراعى فى الدستور الذى نضعه أحدث مبادىء القانون العام وعلى الاخص المسئولية الوزارية أمام البرلمان أتري يشكون فى مباديء القانون العام الحديث نفسها أم يجهلون أن مبدأ المسئولية الوزارية هو محور النظام الدستوري وجوهره ولبابه والأمان الكافي ضد خروج السلطات عن حدودها والاساس الصالح للتعاون بين الامة والحكومة أو يجهلون أن ماخلا هذا المبدأ لايبلغ أهميته ان هذا المبدأ ضابط لاحكام الدستور نفسه

قالوا أن وضع الدستور بهذه الطريقة لن يجعل للامة سبيلا الى تغيير شيء من أحكامه على انى لا أدري مبلغ هذا التكهن من الصحة فأن ما أعلمه عن القواعد الدستورية وهي التى أشرت اليها فى برنامج الوزارة أن الدستور يشتمل عادة على نص يحتفظ به بسبيل يكون من حق للأمة مشخصة فى ادخال ماتري ضرورة ادخاله من التعديلات . . . سيري الناس اذا انتظروا قليلا أن محاولة عرقلة الحكومة فى أعمالها لم يكن من مصلحة البلاد فى شيء وان الحكومة ماتوخت ولن تتوخى

شيئا غير مصلحة الوطن القائمة التى تتلاشى أمامها الاعراض الزائلة والاوهام الباطلة

سيري الناس يوم يصبح الدستور حقيقة واقعة بأن التهمة التى وجهت للحكومة غير صادقة أن يرون أنفسهم امام نظام يسمح للارادة العامة بأن يكون لها مظهر حقيقي وأثر فعلى فى تصريف الاعمال العامة وفي كل شيء يتعلق بمستقبل البلاد

قالوا اننا خرجنا عن برنامج وزارة عدلى باشا الذي كنا متضامنين معه فيه . ولكنهم نسوا أو تناسوا أن مهمة الجمعية الوطنية بحسب ذلك البرنامج لم تكن في الاصل وضع دستور للبلاد وانما كانت مهمتها النظر في الاتفاق الذي تألفت وزارة عدلى باشا للمفاوضات فيه ثم وضع الدستور المبنى على نصوص هذا الاتفاق بعد ذلك

فالمهمتان لاتقبلان التجزئة وكان يجب على الجمعية اذا هي أقرت الاتفاق أن تراعى فى وضع الدستور مايكون قد تضمنه من الشروط والقيود أما اليوم فان وضع الدستور متقدم على الاتفاق واذا كان لايبنى عليه فانه يجب على أي حال أن لا يسد الطريق للوصول اليه

هذه هي الحقائق التي أردت أن أبسطها امام حضراتكم وان ماتعرفه الحكومة في حضراتكم من الكفاءة والكفاية لهذا العمل أحسن ضمان لان يكون عملكم خير مرشد وهاد الى رغبات البلاد وحاجاتها

ولا أريد أن أختم كلامي بغير اشارة الى التضحية الكبيرة التى قدمها حضرة صاحب الدولة رشدى باشا بقبول الاشتراك في عمل هذه اللجنة ولا أخفى على حضراتكم أن فكرة اسناد الرئاسة لدولته

قد خطرت مراراً على بالى من أول يوم فكرت فيه الحكومة فى تأليف اللجنة

ولكن علمنا بمقدار مايبذله من نفسه وصحته في اداء الواجب الذي يدعوه اليه الوطن ومصلحته وحبنا لشخصه ورغبتنا في تمتعه بالصحة التامة كل ذلك جعلنا نتردد عن مخاطبته في الامر

غير انى لما خاطبت بعد ذلك أحدا من حضراتكم الا وسألنى عما اذا كان رشدى باشا مشتركا في عمل اللجنة وأظهر رغبته في أن يراه على رأسها فلم أجد بداً أمام هذا الاجماع من ايصال هذه الرغبه الى علمه

فتقدم كعادته الى الخدمة الوطنية غير ملتفت الى مايكلفه ذلك من تحميل صحته هذه المتاعب الجديدة ولكنه اشترط شرطاً لم يكن في وسعى قبوله وترك لدولته الحرية في أن يقدمه بنفسه لحضراتكم لتتصرفوا فيه كما تريدون . . . . وأختم القول بتكرار التحية لحضراتكم وتوجيه الرجاء الى المولى عز وجل أن يلهمكم السداد وأن يوفقنا جميعاً الى مافيه الخير للبلاد

شروط ثروت باشا
لتأليف الوزارة

(نقلا عن مقطم ٣١ يناير سنة ١٩٢٢)

أولا — عدم قبول مشروع كرزون والمذكرة التفسيرية

ثانياً — تصريح الحكومة البريطانية بالغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر قبل الدخول فى كل مفاوضة

ثالثاً — ايجاد وزارة خارجية مصرية وتمثيل خارجى من تعيين سفراء وقناصل

رابعاً — ايجاد برلمان مشكل من هيئتين احداهما مجلس نواب والاخرى مجلس شيوخ ويكون للبرلمان المذكور السلطة التامة على أعمال الحكومة وتكون الوزارة مسؤولة أمامه

خامساً — اطلاق يد الوزارة بلا مشارك فى جميع أعمال الحكومة تمكيناً للوزارة من تحمل مسؤولية الحكم أمام البرلمان

سادساً — ألا يكون للمستشارين فى الوزارات الا رأى استشارى وأن يبطل ماللمستشارين الآن من الحق فى حضور جلسات مجلس الوزراء

سابعاً — حذف وظائف المستشارين في القريب العاجل ماعدا وظيفتى مستشارى الحقانية والمالية فانهما تبقيان الى ما بعد ظهور نتيجة المفاوضات الجديدة

ثامناً ـ استبدال الموظفين الاجانب بموظفين مصريين وأخذ العدة لذلك من الآن وتعيين وكلاء مصريين على الفور لجميع الوزارات وهم وكيل للمالية ووكيل للخارجية ووكيل للمواصلات ووكيل للاشغال العمومية ووكيل للداخلية ووكيل آخر للداخلية فى الصحة

تاسعاً ـ رفع الاحكام العسكرية ووعد الوزارة اعتماداً على حسن موقف الامة بالسعي في سحب ما اتخذ من الاجراءات بمقتضي الاحكام العرفية ومن جملة ذلك فك اعتقال المعتقلين المصريين حيثما كانوا

عاشراً ـ الدخول في مفاوضات جديدة ـ بعد تشكيل البرلمان المصرى ـ مع الحكومة البريطانية بواسطة هيئة مصرية يشرف البرلمان المصرى نفسه على تعيينها للنظر فى مسألة السودان وفيما لا ينافي استقلال البلاد من الضمانات التى تطلبها الحكومة البريطانية تأميناً لمصالح الامبراطورية البريطانية ومصالح الاجانب فى مصر وذلك كله على شرط أن تكون هذه المفاوضة غير مقيدة بشرط أو قيد من القيود والشروط المبينة في مشروع كرزون

وبعد الانتهاء من هذه المفاوضات يكون القول الفصل فى نتيجتها للامة المصرية المشخصة في برلمانها .

الفهرست

تابع الفهرست